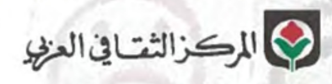
رواية

نجم والي

صورة يوسف

حكايات حانة المدينة



نجم والي

صورة يوسف

حكايات حانة المدينة

الكتاب

صورة يوسف

تأليف

نجم والي

الطبعة

الأولى، 2005

عدد الصفحات: 320

القياس: 14.5 × 21.5

الترقيم الدولي:

ISBN: 9953-68-107-4

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 2303339 ـ 2307651

فاكس: 2305726 ـ 2 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01750507 ـ 01352826

فاكس: 01343701 ـ 961+

«سنقص عليك أحسن القصص»

سورة يوسف....قرآن

«نحن حيوات تروي بعضها»

فرناندو بيسوا



إلى نهار في متاهة صناعة الأسماء

نهاية الحكاية

لم أعرف، ما إذا كان الشعور بالفزع الذي استحوذ عليَّ فجأة، بأن من ينام هناك يمكن أن يكون أي شخص، باستثناء أن أكون أنا، أم صدى الجملة الأخيرة التي جاءتني من آلة التسجيل: «حان وقت قيام الساعة، وعلى القاتل تسديد ديونه»، ما جعلني أفزّ مذعوراً. نظرت حولي، ثم تطلعت عبر النافذة. كان الظلام ما يزال يستحوذ على الخارج، تُمكن رؤيته خلف ستائر الشباك، ويجعل الحديقة بعيدة، تصعب رؤيتها. لا أدري كم مضى عليّ من الوقت وأنا مستلقٍ على سرير عريض يتسع في الحقيقة لشخصين على الأقل، بدا أوسع مما يجب لحجم جسمي النحيف، الذي تكور على نفسه أكثر، بالوضع نفسه الذي كنت أرى يوسف فيه، قبل أن ينام، عندما يسترخي على السرير، ويبدأ بالتركيز لكي يروي قصة من قصصه. ربما مرت على نومتي تلك ساعات، فحسب ما أتذكر، فإنني أصلاً لم أستلق هناك لكي أنام، إنما فكرت أن أسمع، كما طلب مني، ما ترويه آلة التسجيل، (نقلتها بنفسي لاحقاً إلى الكومودين الصغيرة الملاصقة للسرير، والتي تفصله عن الحائط من جهة الشباك)، خلال جلوسي عند طاولة الطعام الموضوعة قرب الشباك، لكنني ولشعوري بالتعب الذي سرى في كل مسامات جسمي، فكرت، أن من الأفضل لي، أن أذهب لأسترخي قليلاً على السرير الذي بدا وكأنه وُضع هناك منذ زمن خصيصاً لي،

لكي أستريح عليه، وليس سريره الذي نام عليه سنوات. وقبل أن أغمض عيني، فكرت في الصوت القادم من آلة التسجيل، وربما لن يكون بمستطاعي سماعه لاحقاً، إذا حصل ونمت. فأنا منذ أن ضغطت على مفتاح زر آلة التسجيل، لأسمع كل ما سُجل هناك، شعرت بالسرير يتطلع بي، وبأنه ينتظرني لكي ألبي نداءه، وأن أرمي بجسدي المنهك إليه. كنت تعباً بالفعل، بعد أن كان عليّ أن أظل يقظاً طوال اليوم، منذ فجر اليوم الماضي حتى منتصف الليلة الثانية، منذ أن نقلوه إلى المستشفى، جريحاً في حالة ميؤوس منها، كما قال لي الطبيب المسؤول عن علاجه، ولولا البنت الصغيرة، ذات الأحد عشر عاماً، التي رأيتها تجلس على السرير إلى جانبه، والتي قالت لي بصوت طفولي: «يصر على مجيئك، ما زال على قيد الحياة»، لما ظننت أنه سيفتح عينيه لاحقاً، ويقول لي مباشرة: «إذا أردت معرفة الحقيقة، اسمع ما ترويه آلة التسجيل». كأنه عرف، ما إن تطلع بي، وإن بوهنٍ، أنني ربما أطالبه بجواب، وأنه يرد لي ديناً، ويعوّض عن صمته الذي كان يواجه به أسئلتي، ورغبتي في علاجه، وعدم تصديقي لجملته التي قالها لي في اليوم الأول، عندما قادوه مكبل اليدين: «أنا حالة ميؤوس منها، مثل باقي الحالات في بلاد المنتصرين والمسحوقين». تلك الجملة لم ينسها هو الآخر، كررها في كل زياراتي له في المستشفى، رغم أنه أضاف جملة جديدة، بدت للوهلة الأولى، لا تستند إلى منطق: «فقط هذه المرة، أعرف أنني سأعيش». قال تلك الجملة وهو يتطلع إلى الفتاة الصغيرة، التي لم أعرف من هي حتى ذلك الحين، ليضيف لي حيرة صاحبتني منذ مغادرتي له وحتى وصولي هنا، إلى المكان الذي أعطاني عنوانه، في هذا البيت الذي حصّنَ فيه نفسه سنوات طويلة، وسط المدينة، حيث وجدت أشرطة تسجيل عديدة في انتظاري، كل ما سجله من أحداث جرت له (أو اعتقد أنها حدثت)،

ولأولئك الذين أصر على الحديث باسمهم، وحيث أفتح عيني الآن، وأجدني أغفو في مكانه.

ما زال كل شيء مبهماً ومليئاً بالأسرار، مثل الظلمة التي أطبقت في الخارج، ومثل الشك الذي هجم عليّ منذ لحظة دخولي البيت ليلة أمس. لم يكن ثمة ما يوحي أن أحداً غيري سيكون هناك، أو أحداً سيعود، مهما بقيت هناك، على العكس، فكل شيء يشير إلى ذلك، من باب البيت الذي وجدته مفتوحاً، والذي لم أحتج إلا إلى دفعه قليلاً، لكي أدخل، إلى ترك أشرطة التسجيل على الطاولة بشكل لافت للنظر، وانتهاءً بنظافة الغرفة وترتيبها. كأن المكان أُعد سلفاً لإقامتي أنا فيه، أو كأن الأمر متروك لي في النهاية، إذا أردت أن أبقى أو أغادر. ولم أعد أتذكر ما إذا فكرت في ذلك، قبل أن أنام، منذ لحظة جلوسي أمام آلة التسجيل، لأسمع كل ما سُجل على الأشرطة التي تركها هناك، أم أكتشف ذلك الآن، لحظة استيقاظي، من حلم لم ينته، ربما من الأفضل وصفه بالكابوس، سمعت فيه جملة واحدة تتكرر، «حان وقت قيام الساعة، وعلى القاتل تسديد ديونه». عن أية ساعة وعن أية ديون يتحدث صاحب الصوت؟ فهو بالتأكيد يقصد شخصاً آخر. قلت لنفسي، وأنا أفتح عينيَّ ببطء، لأرى أمامي على الطاولة في الصالون: آلة تسجيل، منفضة سجائر وعلبتين من البيرة، إلى جانب مجلات مصورة للأطفال، وأشرطة تسجيل متناثرة، وصحيفة محلية.

إنها لمفارقة بالفعل، كنت أظن أن آلة التسجيل هي التي أيقظتني، وأن الصوت المحذر هذا، كان يأتي من هناك، من جهة الآلة. ولكن ها أنذا أرى آلة التسجيل، تبعث أنيناً خافتاً وحسب، يعلن عن نهاية الشريط، وأن الصوت ذاك، يأتي من جهتي أنا، إذ ما زال يتردد في جنبات أذني. تساءلت قليلاً، لمن يمكن أن يكون هذا الصوت؟ هل يمكن افتراض أن صاحبه ليس غيره هو: يوسف ماني؟ ولأنني كنت

مخدراً، مثلي مثل أي شخص يستيقظ من النوم، ويمر بوضع مثل وضعي، قلت لنفسي، إذن كان يوسف يهرب من نفسه إليه، وليس كما ظننت، بأنه يهرب مني، ولا يريد الانتهاء من القصة، وهو ترك لي أشرطة التسجيل تلك، لكي يهيؤني للمشهد اللاحق، لكي لا أتفاجأ بشيء. تلك هي حاله منذ أن عرفته، عندما جلبوه إلى المستشفى للمرة الأولى، وحتى رؤيتي له في المرة الأخيرة، حريص على النظام، يحتفظ بشيء من الترتيب والدقة، كل تلك الأمور التي افتقدناها جميعاً، في الطفولة أولاً، ثم في حياتنا اللاحقة، عندما كبرنا وذهب كل واحد منا إلى مصيره الذي رسموه له.

لكن ذلك التفكير لم يستغرق مني وقتاً أطول من الوقت الذي استغرقه الخدر اللذيذ والمريب الذي يستحوذ على الجسم في مثل هذه المناسبات. فمع استرخاء العضلات وانفتاح الجفنين، فكرت، بأنني حتى الآن، لم أنم بما فيه الكفاية، وبأن ما حصل لي حتى الآن، وأنا مستلق على السرير العريض، هو كفاح بين النوم واليقظة، بين الحلم والكابوس، بين الشك واليقين، بين الحقيقة والاختراع، بين ما سمعته حتى تلك اللحظة من شريط التسجيل وما لم أسمعه حتى الآن، والذي يمكنني تخيله، إذا شئت، وبذلت جهداً من أجل ذلك. وفي النهاية بيني، أنا المرمي هناك، وبين يوسف الذي كان من المُفترض أن يكون هناك الآن، كما كان يحرص في كل أوقات هربه، وليس في أي مكان آخر. كانت تلك اللحظة، التي استحوذ فيها عليَّ شعور مفاجئ غريب، بأن آلة التسجيل تتحدث عني، وبأنني أنا الذي تركتها هناك، لكي أسمع ما ترويه شخصياً، وأن المشكلة المعلقة بين يوسف وأخيه، هي بين يوسف وبيني، وكأن كل ما جرى بالفعل، أو تخيلت أنه جرى بهذا الشكل، أعرفه منذ زمن طويل، وكأنني أقوم بقفزة صغيرة وحسب،

أتجول عبر أكثر من شخص، أخترع على هواي وجوداً مسبقاً لي، أورط نفسي فيه، بغض النظر عما سمعته من آلة التسجيل، وعما لم أسمعه، لكي أضع نفسي في مكانه، وأعيش كل ما مرّ عليه. وكلما استغرق مني هذا التفكير وقتاً أطول، شعرت بتحرري مما سمعته ومما لم أسمعه حتى الآن، وكأن شريط التسجيل انتقل إلى مكان بعيد، أو كأنني لم أعد هناك في البيت، ملقى على السرير العريض، بل كأنني لست هناك بسبب شخص آخر غيري، أو أنا هو يوسف الذي ينتظر قدومي، أو كأنني أنا الذي كنت هناك ملقى في المستشفى جريحاً، أعرف أنني سأموت، فطلبت منه، أن يذهب إلى بيت، من غير المهم أين يكون، بيت في اللامكان، وإذا أراد معرفة الحقيقة، عليه فقط تشغيل آلة التسجيل، أطلب منه أن يبقى هناك ويتركني أروي القصة له أو لتلك البنت التي جلست إلى جانبه، قصته حتى نهايتها، حقيقية كانت أم مخترعة. بل من غير المهم الطريقة التي أرويها بها، فهي بالتالي، قصته، حتى وإن احتوت على قصص الآخرين، وليس كما ظننت أنا الذي اعتقدت أنني، فقط بهذا الشكل، سأشفيه، عن طريق روايتي القصة تلو القصة له، حتى وإن كان ما أرويه قصته هو، أو في أسوأ الأحوال، قصة اعتقد أنها تعود إليه، لكنها في الحقيقة لا تعود لأحد، قصة يرويها معتوه، مليئة بالصخب والعنف والقتل والخيانة. المهم هو ما كنت أسعى وأريد الوصول إليه معه: أن أسمعه يقول لي، شفيت، وعليك ألا تقلق بعد اليوم، وتكفي الأضرار التي ألحقها وجودي. أعرف أنه شعور غريب، ليس من السهل الفكاك منه. لكنه أيضاً شعور جديد بالنسبة لي، يعيد لي - رغم كل الفوضى التي يتركها واضحة على ما أفكر فيه - استرجاع خزائن روحي. إنه أمر مدهش بالفعل، فرغم الظلمة التي أحاطت بي وطوقتني من كل الجهات، والتي بدت لي حالكة جداً أكثر من المعتاد، شعرت بجفنيَّ خفيفين، رقيقين، ينفتحان

بسهولة، لترى عيناي ما يحيط بي بوضوح. تساءلت مع نفسي، كم هي الساعة الآن؟ ثم لأجيب في الوقت نفسه، سيّان، ليكن ما يكون.

أصخت السمع، فسمعت أصواتاً خفيفة تصفر قادمة من جهة الحديقة، عبر الشباك. فقلت لنفسي، لا بد أن يكون الفجر، وبلا شك أنها حيوانات الفجر تستيقظ مثلي، تتفحص نفسها أولاً، لكي تتأكد أنها ما زالت على قيد الحياة، وأن ليلة أخرى قد مضت، وها هي تهيئ نفسها لعمل نهار قادم، ما يزال يتثاءب في نومه، يحاول أن يحرر نفسه. من البعيد وصل سمعي صوت قطار سريع، كلما ابتعد، تخيلته يخط بصوته حدود مسافة جديدة، وكأنني أحد أولئك المسافرين، الذين سينزلون منه في المحطة القادمة.

أحرك جسمي، لبرهة أعدل من جلستي قليلاً، أمد يدي للكومودين الصغيرة القريبة من جهة السرير الملاصقة للحائط، وأسحب ساعتي التي تركتها هناك. أتطلع بأرقامها الفسفورية. كانت الساعة الرابعة تقريباً. فأتذكر جملة لا أدري أين سمعتها أو قرأتها: «إنها اللحظة التي يشعر فيها المريض الذي عليه أن يسافر، والذي يقضي الليلة في فندق غير معروف وهناك يستيقظ نتيجة خاطر ما، بالسعادة عندما يرى بصيص ضوء تحت عتبة الباب». الفارق، هو أن المريض الذي في حالتي، لا يجلس في فندق غير معروف، إنما في بيت وسط المدينة، بيت في اللامكان، يجد نفسه في مكان المريض، متمدداً على فراشه، يتخيل بصيص ضوء ينبعث من فسفور بطن الساعة التي وضعها إلى جانب صحيفة محلية ونظارات طبية سميكة وآلة تسجيل تركها هناك، قريباً من جهاز التلفون، رأسه مشوش لا يستطيع التركيز على قصة واحدة، فيسمع جملة تتردد في جنبات الغرفة: «إذا أردت الحقيقة، اسمع ما ترويه آلة التسجيل»، فيضغط على زر مفتاح آلة التسجيل، ثم يفرك عينيه، ويتطلع حوله، كأنه يصحو من كابوس طويل، فيرى - أو يتخيل

أنه رأى - على زجاج النافذة، وسط الظلمة، وجه فتاة صغيرة، في نحو الحادية عشرة من عمرها، كل شيء يدل، أنها ذات البنت، سراب، تجلس هناك، تمسك يد رجل استلقى على سرير عريض، أوسع مما يحتاجه جسمه النحيل، شفاهه تتمتم بصوت تسمعه البنت فقط، يطلب منها ألا تنسى ما حدث له ولكل الناس الذين أحاطوا به، ألا تنسى كل حكاية يرويها، مهما تقادم العمر بها، أن تظل تتذكره وتتذكر كل القصص التي تسمعها منه الآن، قبل أن ينهض ويتحول إلى شخص آخر، يبدأ رحلته اليومية، عبر أماكن مألوفة، ويصنع معه، دون أن يدري، أو . . . . . يدري: صورة يوسف.

آلـة التسجيل

الفصل الأول

في الهروب منه إليه: تذكر موت البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء

رأيته أمامي: كانت الساعة قاربت الرابعة ليلاً، عندما استيقظ يوسف ماني من نومه، على صوت يقول له محذراً: «حان وقت قيام الساعة، وعلى القاتل تسديد ديونه». لم يكن كابوساً مألوفاً، مثل تلك الكوابيس التي بدأت تزوره في الأيام الأخيرة، منذ أن بدأت المكالمة التلفونية ذاتها تتكرر بإلحاح، والتي كان يسمع فيها الصوت نفسه، يُذّكِره، بأن يوم الحساب قد حان، وعليه أن يهيئ نفسه هذه المرة. ولم يمنحه صاحب الصوت الفرصة لكي يوضح، أن هناك بالتأكيد التباساً في الموضوع، أولاً لأنه أصلاً لم يكن اسمه يونس، كما ناداه محدثه بصوت واثق، إنما هو اسم أخيه الأكبر الذي اختفى منذ اثني عشر عاماً تقريباً. ثانياً، وذلك هو الأهم، أنه انتهى من تلك التهمة منذ أن كان عليه تحمّل عبئها ودفع ثمنها، عندما كان ما يزال صبياً، منذ أن قرر دفن اسمه القديم للأبد، وتغيير اسمه. لكن صاحب الصوت الغريب، وبحماس من يطالب بالثأر، حيث لم يتوقف عن الاتصال به، نهاراً في مكان العمل، وليلاً في البيت، مكرراً عليه التهمة ذاتها، لم يسمح له ولو ثانية واحدة بالرد على أسئلته أو استفساراته، وكأنه كان مقتنعاً تماماً بما يقول: «عندي كل الأدلة الثبوتية التي تؤيد ما أقوله»، قال له ذات مرة.

في الحقيقة كان يوسف يعتقد حتى تلك اللحظة، أن قضية الاسم أصبحت موضوعاً ينتمي للماضي، ومن غير الممكن أن تظهر مرة أخرى، فلقد نسيها هو ذاته، خاصة بعد أن حرر ورقة وفاة أخيه بيده، ولا يعرف لماذا تظهر الآن للعلن من جديد. وازداد قلقه، عندما وقعت عيناه قبل أسبوعين أو ثلاثة صدفة، على اسمه القديم الذي يُفترض أن يكون أسمه: «يوسف ماني»، مخطوطاً على الصفحة الأولى لإحدى الصحف اليومية، بصفته صاحب امتياز الصحيفة. منذ ذلك الحين لم يعد باستطاعة يوسف النوم بسهولة. إذ أصبح غالباً ما يفز مذعوراً، يتصبب العرق من جبهته، تسري الحمى في جسمه. تكرر ذلك مرات عديدة، لدرجة أنه بدأ يعتقد أن حرارته المرتفعة من الممكن أن تشعر بها سراب، شريكته في السرير، والتي تخيلها أكثر من مرة تستيقظ وهي في عمق النوم بسبب صراخه المفاجئ، حتى أدرك أن من الصعب عليه التصرف، كما لو لم يحدث شيء، وأن عليه أن ينسى ما قرره في الأيام الأولى من سماعه النداء، عندما فكر أن يتجاهل الأمر، ظناً منه، أن هناك التباساً لا غير، أو في أسوأ الأحوال، أن ما حدث، مجرد صدفة تحدث يومياً في كل بقاع العالم، فليس من النادر أن يحدث تشابه في الأسماء. لكنه عندما قرأ مقابلة في عدد لاحق من أعداد الجريدة ذاتها، يتحدث فيها شخص، ارتأى أن يظل مجهولاً حتى تلك اللحظة، عن سنوات القهر والتعذيب والحرمان والخيانة والخديعة، عن «الجلاد» يونس ماني، الذي كان قاتلاً منذ طفولته: «تخيلوا ذلك، قتل طفلة صغيرة، وضع مسامير صغيرة في كعكتها التي أكلتها ببساطة، لأنها كانت تحب أخاه ولا تحبه، وألصق التهمة بأخيه يوسف الصغير الذي كان يحب البنت والبنت تحبه!»، فكر أن من الأفضل التصرف بشكل آخر، خاصة وأنه ليس الوحيد الذي قرأ الجريدة. لقد سمع تعليقات البعض من زملائه في العمل، يسألونه، عما إذا كان هو ذاته، يعمل في

وظيفتين، وقد أخفى عليهم كل هذه السنوات، نشاطه الآخر، فكر، أن الأمور ما عادت تسير مثلما سارت من قبل، وهو ذاته، ما عاد يستوعب نفسه. وبقدر ما أثار دهشته الظهور المفاجئ لاسمه القديم، بقدر ما جعله يضطرب، فإذا ثبت أن ليس في الأمر دعابة أو مقلب من أحدهم، فإن من الصعب عليه منذ الآن أن يتصرّف وكأن الآخر الذي يحمل اسمه غير موجود، كما كان يفعل من قبل.

لقد مرت سنوات طويلة على سماع اسمه «يوسف» للمرة الأخيرة، عندما أخبرته أمه، بأن شخصاً زارهم ظهيرة ذلك اليوم يخبرهم بموت أخيه، وينصحهم بالتكتم على الأمر، لكنها لم تشأ تصديقه. هو الآخر لم يشأ تصديق الخبر، لأنه كان مقتنعاً تماماً من مغادرة أخيه البلاد. ولو لم يعثر على الجريدة بالصدفة قبل أيام، لما فكر في أخيه من جديد، ولما بدأت قصة ما حدث بين الأخوين تعيد ترتيب تسلسل أحداثها، وإن بشكل صعب يقترب من الفوضى، فما زال الشخص الآخر الذي يحمله يوسف في داخله، لا يريد تصديق ما يحدث، بأن أخاه على قيد الحياة، وأنه ما زال يحتفظ باسمه هو، اسم «يوسف» القديم أيضاً، ولا يريد التخلي عنه، وكأن القصة تبدأ من الأول، تدور بدورتها مرة أخرى، كما بدأت ذات يوم، حيث لا مكان للاثنين: على أحدهم أن يختفي، منذ موت تلك البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، وأنها إما الصدفة أو الوقاحة، التي جعلت أحدهم، يطلق على نفسه الاسم ذاته.

ولأن يوسف اعتاد في السنوات الأخيرة ألا يقدم على خطوة، قبل أن يحسب حساب كل شيء، فقد فكر أيضاً، في أن ربما من الأفضل له أن ينظر للأمر من زاوية أخرى، ويعتبر ما حدث مناسبة جيدة لحسم المسألة جذرياً وللأبد، والتخلص من عبء أثقل كاهله أكثر من عشر سنوات. لماذا لا يذهب إلى الآخر، صاحب الصوت ويقول له: «أنت

على حق، حان الوقت، بالفعل على القاتل تسديد ديون ضحاياه، وعليك أن تعرف بأنني لست يونس، وعلى كل واحد منا أن يسترجع نفسه»، لكنه، يعرف أيضاً، أن الأمر غير متعلق به وحده، فمن يضمن له إقناع الطرف الآخر، الشخص الثاني، حتى وإن كان أخاه ذاته، الذي لم يحمل اسمه وحسب، إنما حمل على كاهله كل تبعات الاسم حتى ذلك الحين؟ ولماذا على الآخر أن يحمل من جديد تبعات الماضي والحاضر للاسم الذي ما عاد يخصه منذ أكثر من عشر سنوات؟ ماذا لو رفض الآخر قبول عرضه، وأصر على اسمه، وعلى هويته، لأنه يعتقد فعلاً بأنه لم ينتحل شخصية أحد؟ بل ماذا لو كشف كل ما أخفاه يوسف عن نفسه كل تلك السنوات؟ ماذا لو فضحه أمام الناس، واعتبره هو المنتحل، فهو لديه «ما يكفي من الأدلة الثبوتية»، كما قال له في إحدى المكالمات التلفونية الأخيرة؟

لم يكن من السهل على يوسف أن يتخذ قراراً، وكلما فكر في حسم الأمر، تردد وسمع صوتاً يقول له، أن يفكر في تجاهل القضية. لكن صاحب الصوت، الذي كانت نبرته غريبة بالنسبة إليه، بدأ يزوره ويهجم عليه في الحلم، بقوة أكثر من ذي قبل، يستحوذ على لياليه جميعها، وبنبرات تصبح كل مرة أكثر إلحاحاً وجدية من ذي قبل، كأنها تعود لشخص يجرؤ كل ليلة على الاقتراب منه أكثر، شخص لا يصرخ فيه من جهة باب الدار أو الشباك، إنما يقف مباشرة عند رأسه في الفراش، يستحوذ على كل ساعات نومه، يطلب منه أن ينهض فوراً؛ ولم يترك أمامه المجال، إلا ليتيقّن، أكثر من أي وقت مضى، من أن ساعة الحسم دقت بالفعل، وأن من العبث أن يؤجلها مرة أخرى، كما كان يفعل دائماً، وأن السنوات العشر الأخيرة، سنوات النسيان، هي مجرد تمرينات يومية لهذا اللقاء الذي يجب أن يتم بين الاثنين: بينه

وبين شبح يحمل اسمه، يحمله على تذكر أخيه. وأن الاستمرار يعني انتحاراً له ولزوجته سراب، وهو كله يقين أنها رجعت إليه وسامحته على كل قصصه القديمة: على أحدنا أن يختفي. ليس هناك مكان لكلينا!

ذلك ما فكر فيه في الليلة الماضية، عندما تحوّل الصوت إلى دوي في رأسه، يفوق دوي انفجارات السيارات المفخخة الذي يسمعه يومياً في شوارع المدينة؛ دوي تشظى في رأسه إلى انفجارات أخرى بإيقاعات سريعة متتابعة، لم تتركه ينام إلا على دفعات صغيرة، متقطعة. يفزّ بذعر، فمه جاف، يتقلب على الفراش، يلاحقه صدى صوت، يضرب مع ضربات نبضه ويتكرر بعددها: «حان وقت قيام الساعة، وعلى القاتل تسديد ديون».

إذن، كانت ليلة أخرى، مليئة بالكوابيس، مثل الليالي السابقة، ليلة خالية من الكلام، إلا من تلك الجملة، التي تدعوه للنهوض، تتابعت بنفس متلاحق. ومثلما تتابع ذلك النداء الغريب، تتابع كابوس واحد أكثر من بقية الكوابيس؛ ربما خمس مرات أو ست، من الصعب عليه تحديد عدد المرات التي تكرر فيها، مثلما من الصعب عليه التكهن بعدد المرات التي تكررت فيها تلك الجملة. إذ، كما يحدث كل مرة، منذ أن بدأت تزوره الكوابيس، يختلط كل شيء أمام عينيه، حتى الصورة التي يحاول تشكيلها لصاحب الصوت، لشبيهه المفترض، تفقد نفسها، لا تثبت على قرار، تتخذ هيئات شخوص آخرين، تتبدل مئات المرات، لا يحكمها منطق، تشكل نفسها أمام عينيه حسب مزاجها، بفوضى محكمة، تتخذ هيئات عديدة، بعدد الأقنعة التي صنعها أخوه بيديه. يمكن أن تكون كل شيء، باستثناء وجه أخيه. ترى لماذا لا يحضر وجه أخيه أمامه، هل نسيه، أم لأنه - كما فعل في صباه عند موت البنت - لم يشأ الاعتقاد أن أخاه قاتل؟ أم لأنه كلما فكر فيه، ظهر وجهه ذاته أمامه، وجه القاتل كما يراه في المرآة، لأنه هو الذي سلّم البنت الكعكة

التي قتلتها؟ أليس ذلك ما يجعله يعتقد، أن ربما هناك أحداً بينهم، ويعرف ببراءته، يعرف أن أخاه هو القاتل، والآن يريد تصفية الحساب معه، دون أن يدري بأنه يعيش تحت اسم أخيه؟ من يثبت براءته؟ يتساءل يوسف مع نفسه، ويعرف أنها مفارقة كبيرة، أن يتهمه بالقتل من يعرف جيداً أنه بريء.

يحاول يوسف تخيل وجوه شخوص عرفهم، بعضهم لم يعد يراهم منذ الطفولة، منذ أيام الدراسة الابتدائية والبعض الآخر يعرفهم منذ أيام الدراسة في الجامعة، أو منذ أيام الخدمة العسكرية، البعض الآخر يعرفهم منذ زمن أقرب، زملاء في العمل، أو وجوه لمجهولين، عابرين يلتقي بهم يومياً، في الطريق لدائرة العمل، أو بعد انتهاء الدوام الرسمي والخروج من العمل. البعض الآخر يعرفهم، من الحانة السرية: حانة المدينة (لكنهم قليلون بعدد رواد الحانة التي أطلقوا عليها حانة المدينة)، بعضهم الآخر وجوه لممثلين رآهم في التلفزيون، أو رآهم على شاشة السينما، ممثلون أجانب ومحليين ما زالوا ملتصقين على شاشة ذاكرته، وجوه أخرى لسياسيين من مختلف الجنسيات، وجوه لتجار رآهم في السوق، بعضهم الآخر وجوه لأطباء عالجوه في كل هذه السنوات، وجوه مختلفة، بالمئات، وجوه ذكور في كل الأحوال، تأتي وتذهب، ثم تضيع سريعاً في عتمة الغرفة الصغيرة، وسط همهمات وزفرات زوجته سراب التي كم حاولت النوم بعمق إلى جانبه، وسط العرق الذي يبدأ بالتصبب من جسمه كله، ويسيح على الفراش، والذي لا يبقى في حدود الجزء الذي ينام عليه من الفراش، إنما يمتد إلى جهة سراب. ربما لهذا السبب قرر أن يترك كل ليلة آلة تسجيل تدور طوال الليل وحدها على الطاولة، في صالون البيت، ظناً منه أنها ستسجل جميع الأصوات الغريبة، رغم أنه اكتشف وبعد وقت قصير، عبث ما كان يقوم به. فهو لم يسمع غير شريط يحمل بعض الوشوشة، وأصوات غامضة،

لا تقول شيئاً، تكرر نفسها، تترك صدى يدوي بصوت مسموع يلتصق بأذنيه، يأتيه من عمق حلم ثقيل؛ يأتيه مثل ذكرى قديمة، أو مثل صور متقطعة لأحد أفلام الجريمة والتشويق، أفلام المطاردات بالأسود والأبيض، التي أدمن على مشاهدتها في صباه، وكلما حاول منح الصوت هيئة معينة، أو تشكيل صورة لصاحبه، تلاشى من أمام عينيه، ليصبح مثل وميض بعيد، يبعث صوراً متفتتة، تصبح كل مرة أكثر ابتعاداً، تختفي عند نقطة ما. دائماً يحدث قطع ما، يحدث شرخ في الوسط أو في النهاية، وكلما حاول تذكر ما حدث في تلك الثغرة، شعر بأنه مثل شخص يبذل جهداً استثنائياً لإعادة رواية قصة حلم رواها له شخص آخر، غيره هو يوسف ماني، الذي يفزّ كل مرة مذعوراً، يهرب من اسم يعتقد بأنه لا يعود له، شخص متهم بالقتل هذه المرة، كما حدث في فجر الليلة الماضية، وهذه المرة أكثر ذعراً من كل ما حدث له في المرات السابقة، لأن الصوت أضاف جملة جديدة للمرة الأولى، جملة تحمل النذير في داخلها: «حان وقت قيام الساعة، وعلى القاتل تسديد ديونه».

لم يعد يوسف يتذكر بالضبط، ما إذا كان التلفون قد رنّ بالفعل في ساعة متأخرة من الليل، وسمع تلك الجملة عبر السماعة مباشرة، أم أنه سمعها في الحلم وحسب. لكنه يعرف أنه سمعها قبل وقت قريب جداً، وهي تلح عليه وتتكرر، مثلما يتكرر الحلم الكابوس، ويختلط كل شيء أمامه، لدرجة أنه يصبح على يقين بأنه ليس هو الذي حلم بذلك الكابوس، إنما شخص آخر، وأن يوسف لم يكن غير صاحب الصوت الذي اتصل تلفونياً، والذي دعا ذلك الشخص للنهوض والانتهاء من الأمر، وأن التجاهل أو الوقاحة هي التي حملت هذا الشخص الآخر، الذي يعتقد أنه هو صاحب الحلم، على سؤاله عما يعنيه من جملته

الملحّة، وأنه لا يأخذ التحذير الذي أطلقه عليه طوال تلك الليلة، مأخذ الجد، وأن ما يشعر به، وما حدث في تلك الليلة، يؤكد له من جديد وبقوة، أن الأمر ما عاد لعبة، يلعبها، ربما ليس صاحب الصوت هو الشخص الوحيد الذي يعتقد بأنه ليس يوسف، وأن عليه التصرف بالفعل بسرعة، لتدارك الأمور، والبحث عن كل الأدلة التي تزيل كل التباس، وتوضيح ما حصل، وهو لا يحتاج إلا إلى جمع بعض البراهين البسيطة، الأدلة الدامغة، ليس لنفسه - لأنه متأكد مما تذهب إليه ظنونه - إنما للآخرين، لسراب قبل كل شيء، لكي تصدقه، ولا تذهب بظنونها بعيداً، وتصدق صاحب الصوت، وتعتقد أنه قاتل بالفعل، تنتظر ضحاياه ساعة الحسم، كما يتهمه صاحب الصوت، عليه أن يجعلها تصدقه، بأنه لم يقتل البنت أبداً، وأن هناك من يطارده في الأيام الأخيرة، وأن تكف عن اتهامه بالكذب والمبالغة، وأن القصة التي يدّعيها عن سبب تغييره الاسم هي قصة من نسيج خياله، نتيجة لأفلام الجريمة والتشويق والجاسوسية والمطاردات التي واظب على مشاهدتها، والتي راح يغذيها أكثر في السنوات الأخيرة، بمجلات الرسوم المتحركة القديمة التي تتحدث عن المغامرات، والتي لم يتوقف عن قراءتها، حتى عند دخوله المستشفى. عليه أن يصغي لما يقوله الآخرون، الذين يقترحون عليه الخروج من عزلته، مغادرة البيت وتمزيق أو حرق كل تلك المجلات التي تراكمت في الصالون، بعضها فوق بعض، والتي ليس من المستبعد أن تصل حتى سقف الغرفة في الأيام القادمة، إذا ما أهمل الأمر ولم ينتبه إلى نفسه. وأن يعاود الدوام في وظيفته، قبل أن يضيع أكثر، وينتهي للخراب، إذ يكفي ما سببه لسراب من عذاب وما ألحق بها من أضرار حتى الآن، وهي التي عليه أن يشكرها لتحمّلها له، وتقبّلها له، لأن زوجة غيرها، كانت تركته منذ زمن طويل، خاصة وأن ليس لديهما أطفالٌ؛ وأن حبها له، هو الذي جعلها تصغي لقصصه الغريبة، التي

تتحدث عن الأحلام الكوابيس التي تزوره وتريد إلحاق تهمة القتل به من جديد، والتي تؤكد ما ذهبت إليه ظنونه، منذ أن بدأ صاحب الصوت يزوره ويحذره من أنه سيدفع ثمن قتلاه، وذلك بالتأكيد لا يحدث له وحده، لأنه مريض في رأسه كما يدّعي الآخرون، إنما يحدث لجميع الناس، حتى من المرضى زملائه، لكنّ الآخرين يكتمون ذلك، وهو وحده الذي يجرؤ على الحديث عما حدث بصراحة، وهو يحتفظ بالعشرات من هذه القصص، قبل أن تظهر للعلن في السنوات الأخيرة، وتنتشر على الألسن، يتداولها الناس في المقاهي قبل أن تظهر لاحقاً على صفحات الجرائد. قصص لا تحصى: قصص اختلاط الشخوص والهويات المزورة وانتحال البعض لأسماء وسير شخصيات أخرى، وغيرها من القصص، التي تتحدث عن الانتحال؛ قصص أقرب للخيال من الواقع، قصص يختلط فيها الكذب مع الصدق، الوهم مع الحقيقة، الله مع الشيطان؛ قصص متنوعة، باستثناء قصة واحدة، قصة صاحب الصوت الذي يطالبه باسترجاع اسمه وشخصيته؛ قصص تثير بلا شك الالتباس عند من يسمعها، عند سراب مثلاً. فالقصة تختلف في كل مرة عن سياقها السابق، ويوسف، حتى عندما يروي القصة ذاتها، يرويها كل مرة بطريقة أخرى، وكأنه ينسى أنه تحدث بها قبل أيام قليلة، بل قبل ساعات؛ وإذا حدث وباغته القليل من الشك، في أن ما يرويه حدث فعلاً، فإنه يلجأ إلى حجته المحببة: الحلم. المهم هو أن تصدقه سراب. وكان من أجل ذلك يبذل جهداً استثنائياً، وخاصة في بداية تعارفهما، لأنه لم يشأ أن يقول لها إنه يحمل اسماً منتحلاً، وهو يفعل ذلك منذ أن غادر سجن الأحداث في صباه، لأنه يكره اسمه الذي ارتبط بقتل تلك البنت، وليس كما ظن حموه، والد سراب، عندما عرف بقصة الاسم المزور، بأنه فعل ذلك لأنه هارب من الجيش، ولم يشأ الالتحاق بخدمة الاحتياط في وحدته العسكرية، التي عرف بأنها انتقلت

من المحاويل إلى مدينة الفاو، ليتقاسم مع رفاقه الجنود هناك الخراب والقذارة والوحدة والخوف، حيث بدأت المناوشات الأولى وعلائم الحرب. ورغم شعوره بأنه لو كان حدّث سراب بهذه القصة، باعتبارها حجة تغيير الاسم، ما كانت اعترضت على رفضه الالتحاق بوحدته في الجبهة، وكانت بالتأكيد شجعته على ما فعل. لم يشك يوماً في أنها على عكس الآخرين، تصدق كل كلمة يقولها، إلا أنه لم يستطع رواية قصة انتحاله الاسم لها إلا بعد زمن طويل، واكتفى في البداية برواية قصة أخرى: قصة قتل أخيه للفتاة التي كان يحبها، كما كان يحلو له أن يقول ذلك.

كانت سراب تأخذ كلامه محمل الجد، وهذا ما جعلها تسأله في كل مرة عن بعض التفاصيل، بسبب فضولها لا غير، الأمر الذي كان يثير دهشته، ويحمله على طرد كل الشكوك من نفسه. هكذا بدل أن يفحص ما يقوله من جديد، راح يشعر بحيوية جديدة ليضخ دماً جديداً في القصة التي يرويها. يفاجئ نفسه أحياناً، بكل ما يخرج من فمه. وكان كلما شعر بوجود أذن تصغي له، زاد حماساً للذهاب بعيداً في القصة، مزوداً إياها بالتزويق ومضيفاً إليها الكثير من الرتوش - غير الضرورية - أحياناً، وكأنه كان يدافع عن نفسه أمام الشعور بالذنب، مرة بسبب أخيه، ومرة أخرى بسبب ذكرى قديمة، الشعور الذي يستحوذ عليه لاحقاً، بعد الانتهاء من رواية القصة، وعندما يكون وحيداً، في البيت، أو في الدائرة، عندما يجلس وحيداً، دون زملائه الآخرين، أو في المقهى، عندما يجلس على التخت وحيداً، يدخن النارجيلة، أو في الحانة السرية تلك: حانة المدينة (تلك القصة لا يصدقها أحد)، يجلس وحيداً أمام كأس مملوء أو نصف مملوء إلى جانب قنينة ربع عرق زحلاوي، وتبرز أمامه صورة فتاة صغيرة تمسك رقبتها بإحدى يديها،

وباليد الأخرى تؤشر إلى قطعة من الكعكة سقطت على الأرض، ظهرت مجموعة من المسامير فيها، مع صورة أخرى تلمع بالتوازي في رأسه، صورة فتاة صغيرة بعينين خضراوين وجدائل شقراء تلبس فانيلة زرقاء. فيتذكر تلك التلميذة الصغيرة، التي كانت تضحك، بينما يتردد بالتوازي مع ذلك صدى أغنية قديمة ظلت عالقة في ذاكرته من مشاهدة أحد أفلام الأسود والأبيض منذ زمن بعيد، منذ الفترة الأولى لتعلمه اللغة الإنكليزية: We never reached Georgia، وقبل أن يسمعها لاحقاً تدور على قرص مدمج أثناء مروره صدفة بالمجمع التجاري لشركات إنتاج وبيع الأقراص الموسيقية المدمجة في شارع الخيام. وكلما تذكر تلك الأغنية، تذكر تلك الفتاة. من غير المهم في أي مكان كان، حتى عندما يكون في الباص، في طريقه إلى البيت محشوراً في الزحام بين حشد من الناس، عليه أن يشم رائحة عرقهم النتنة وأنفاسهم التي تطلق زفيراً كريهاً؛ في كل تلك الأوقات، وعندما يصغي لصوته الداخلي، الصوت الآخر، الثاني أو الثالث، أو الرابع. . .، يستحوذ عليه شيء من الأسى الشفاف، يجعله يتكور على نفسه، وكأن برداً لسعه، يضع يديه في حضنه، أو يطبقهما على كتفيه، أو يمسك بهما رأسه، أو ينفش بهما شعره، ويقول لنفسه: «ربما لو صدقني أحد لانتهيت من القصة، أو على الأقل سراب، كيف أجعلها تصدق أن قصة البنت حدثت فعلاً، وأنني لم أكن القاتل؟»، وكأنه يريد أن يثبت بأن كل شيء بدأ بين الأخوين منذ ذلك الوقت، وأن ما يرويه ليس أضغاث أحلام أو أفلام، أو قصاصات قصة استلها من المجلات المصورة التي قرأها (كما يقولون له)، وأنه، وحتى وإن بدا للآخرين كمن يكرر رواية أخرى لغيره، فإنه لا ينقل عبرها، إلا صوته الخاص. أليست كل حياتنا وما يحدث لنا، هي تكرار ممل، خالٍ من التشويق في أغلب الأحيان؟ أليس وعي التكرار هذا، هو ما يجعل البعض ينتحر والبعض الآخر يلجأ لرواية

القصص؟ أليس من يروي قصة، ينتحر بطريقة أخرى، عندما يلغي نفسه، ليسلم نفسه لصوت يعتقد الآخرون بأنه صوت لشخص آخر، غيره، ولا يعلمون أنه الصوت الخاص به الذي اكتشفه، والذي لا يستطيع تقديم نفسه، إلا عبر صوت ثان؟ كلنا صدى لأصوات تحكي وتحكي.

في أغلب الأحيان، وهو في وحدته تلك، وخاصة في ساعات الصباح الأولى، عندما يستيقظ مذعوراً، في منتصف الليل أو في ساعات الفجر الأولى، يعي أكثر من أي وقت مضى، بأن ربما عليه التصرف بطريقة أخرى، وأن ما كان يقوله البعض لا يخلو من الحقيقة، فربما هو قاتل بالفعل، وبروايته القصص عن الآخرين، يريد أن يبعد القصة التي تروي جريمته وذنوبه، وأنه في كل قصة أخرى يرويها، رسم مخططاً خاصاً به، للهروب من ضحاياه، «حان وقت قيام الساعة، وعلى القاتل تسديد ديونه»، كما يقول الصوت. ماذا لو صدقته سراب، وطلبت منه التذكر جيداً، تذكر قصة ذاته، وينسى ولو لمرة واحدة قصة الأغنية، قصة الفتاة الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، وقصة أخيه، قصة مريم وبناتها الأربع، قصة أخيه وذنوبه؟ لماذا لا يلبي نداء الحواس، النداء الداخلي الخالص، ولو لمرة واحدة، من أجل نفسه، إن لم يكن من أجل سراب، أو من أجل ضحاياه المفترضين، وليس كما يظن أحياناً، من أجل أخيه، غريمه، لكي يتخلص من هذا العذاب الليلي؟ فهل هناك عذاب أشد من عدم القدرة على النوم، من البقاء يقظاً طوال الوقت؟

امتدت يده لتناول قدح من الماء استقر إلى جوار رأسه عند الكومودين الصغيرة، قرَّبه من فمه، فاكتشفه فارغاً، لم تبق فيه قطرة،

لأنه وكما يبدو أتى عليه الليلة الماضية. أرجع القدح إلى مكانه. فتح عينيه، ونهض ببطء. جلس على حافة الفراش، ونظر إلى ساعته ذات الأرقام الفسفورية التي اعتاد على وضعها هناك قريبة من رأسه. كانت عقاربها تلمع، تشير إلى الرابعة صباحاً. إذن، لم يبدأ الصباح بعمله، كما ظن للوهلة الأولى، وما زال الظلام يسيطر. لم يشأ الضغط على زر لمبة الكهرباء المجاورة للسرير، لكي لا يزعج سراب في نومها. وقف وتحرك على أطراف أصابعه، باتجاه الصالون، كان حذراً من إثارة أية جلبة. وما إن وصل هناك، حتى أوقد شمعة، كان يعرف أنه تركها الليلة الماضية على الطاولة الصغيرة، إلى جانب آلة التسجيل.

كان الصالون مفتوحاً على غرفة النوم، وكان بإمكانه وهو جالس هناك أن يرى عمق الغرفة، أن يرى فراش النوم، فراش الزوجية، أن يرى سراب في نومها، كما عرفها سابقاً، في أيام الحرب والمرض، كما في الأيام هذه، وقد أضاف ضوء الشمعة المتسرب إلى الغرفة، والمتوزع بصورة خافتة، متناثرة عليها، وبصورة خاصة على المكان الذي يعرف أنه المكان الذي استقر وجهها عليه، جانب من وجهها بالأحرى، كما أحبت دائماً أن تنام، لكي تشعر ببرودة مخدة النوم، لكي تشعر بأمان داخلي، تتوسل سلام مفقود. إنه أيضاً ضوء الشمعة الآن، الذي يمنحها أماناً أكثر، وهي ليست المرة الأولى التي يعتقد فيها، أن ضوء الشمعة لن يزعجها أبداً، على العكس، فهي لم تستيقظ ذات مرة، وتطلب منه إطفاءها، كلا، على العكس، فكما يبدو، أنها كانت تنام أكثر عمقاً على تراقص الضوء الخافت.

كم بودّه أن يجلبها إليه الآن، أو أن ينهض من مكانه، على الصوفا حيث يجلسا في الصالون، ليتوجه إليها، ويقبّلها، ويطالبها بالنهوض معه، والجلوس قبالته، أو إلى جواره، لكي يقول لها إن كل شيء انتهى بالفعل هذه المرة، خمسة وعشرون عاماً من الخديعة والكذب، من

الصعب عليّ نسيان تلك القصة، وعليّ التصرف بطريقة ما، يجب أن أنتهي من الموضوع قبل فوات الأوان؛ كم يتمنى ألا تقول له، «ولكنك لا تأتي بجديد. أنت تردد هذه الجملة منذ سنوات عديدة. وتقول: إنها نهاية العالم». يعرف أنه سيبتسم لها، وسيقول لها: «ليس صحيحاً ما تقولينه حبيبتي، لم أقل ذلك من قبل، إنها الليلة الفائتة فقط، إذ اتصل بي الصوت، زارني ليخبرني بشكل قاطع هذه المرة، عن قرب نهايتي، وأنه سيقتلني إن لم أنفذ ما يريد، إذ كما يبدو عليّ تسديد دين له، ولا أعرف ما إذا سأنجح أم لا، أرجو ألا أكون مطلوباً لأحد». حينها ستصمت بالتأكيد، وستصدقه، مثلما صدقت كل قصصه، على مدى كل هذه السنوات، بل منذ أن تعرفا على بعضهما.

الآن، في فجر أو عمق ليلة من الأسبوع الثاني من أبريل، يتذكر المرة الأولى التي جلسا فيها في هذا الصالون. وهناك على حائط الصالون، أمامه، عُلقت صورة كبيرة لهما، ضاحكين، يجلسان على الصوفا ذاتها التي يجلس عليها الآن، وقد أسندت رأسها إلى كتفه اليسرى. كانت أول صورة يأخذها بالكاميرا الأوتوماتيكية، التي أهداهما إياها والدها بمناسبة زواجهما، مثلما كانت المرة الأولى التي تطأ أقدامهم عتبة هذا البيت، الذي عثر عليه في وسط حي شعبي مكتظ، وأجره لهما والدها، خلف ساحة المتحف، قبل أن ينتقلا لاحقاً إلى بيت ثان في البتاوين. حدث ذلك في الوقت الذي لم يعد فيهِ يوسف قادراً على الاستمرار في لعبة التخفي معها. في الحقيقة لم يُخْفِ عليها أمر تزويره أوراقه الثبوتية آنذاك، وهروبه من الجيش، ليس لخوفه من أنها لن تصدقه، إنما أكثر لأنه لم يشأ زجها في الموضوع، لم يرغب في إثارة قلقها على الإطلاق. ولكن كما في كل لعبة تخفّي، مثلما يحدث في لعب تخفّي الأطفال، لا بد أن يظهر الطفل ذات يوم، أن ينتقل من

منطقة الظل إلى الضوء. قرر يوسف فجأة، عندما عرف بأن والد سراب حدس بالموضوع، أن يبوح لها بأنه تزوجها أصلاً باسم آخر، بأنه ليس هارون والي، إنما يوسف ماني.

كان يجب أن يتم كل شيء بصورة شبه خفية، زواجهما، تأجير البيت، رغم أنهما ذاتيهما لم يصرحا بذلك علناً، لكن العم عاصم، والد سراب، الذي خبر العمل السياسي السري منذ الأربعينات، وكان ماهراً فيه كما ادعى فخوراً أمامهما أكثر من مرة، قال لهما إنه يعرف الصعوبات التي يمران بهما، وخاصة بما يتعلق بـ «هارون»، كما ناداه، وأن عليهما ألا يقلقا، لأنه سيرتب لهما كل شيء، وأن يتركا كل شيء له. لذلك، عندما أبديا دهشتهما من اختياره بيتاً لهما في حي شعبي مكتظ، مثل منطقة المتحف، أجابهما: من أجل أن يتخفى المرء، عليه ألا يتخفى، وهو يعطيهم مثالاً ما فعله هو، في الأربعينات مثلاً، عندما كان خياطاً لمؤسس الحزب الشيوعي، فهد، وخياطاً للسياسي القريب من الإنكليز والذي أصبح لاحقاً رئيساً للحكومة، قبل أن يقتله العسكر ومعه العائلة المالكة في الانقلاب المشهور في 14 تموز 1958، نوري السعيد في الوقت نفسه، وأن معظم الشخصيات السياسية الحكومية كانت تخيط الملابس عنده، قبل أن يغلق محله، ويتحول إلى سائق قطار، ثم إلى الجنون، يجلس يومياً عند مدخل المحطة العالمية القديمة.

حدث ذلك في يوم ربيعي وبالضبط في 21 من شهر مارس (كان يوسف معروفاً بشغفه بالتواريخ المضبوطة، عادة تعلمها من جده، مفتش التمور العام المشهور في مدينة البصرة، الذي واظب على حمل دفتر صغير في جيب سترته، يكتب فيه كل التواريخ التي يعتقد بأهميتها)، وهو ما يزال يتذكر ذلك التاريخ ليس بسبب شغفه بحفظ التواريخ بصورة

دقيقة فقط، إنما لأنه قرر في ذلك الوقت، مع سراب، الاحتفال بهذا اليوم كل سنة. كانت مناسبة تعرفهما على بعض للمرة الأولى: 21 مارس 1979، في آخر حفلة لعيد النوروز، قبل أن تمنع الحكومة الأكراد من الاحتفال به مطلقاً، وفي مقهى حديقة «السنتر» البريطاني ببغداد، كان هو قد هرب قبل فترة قريبة من وحدته العسكرية، وجاء مع شلة من الأصدقاء من أكاديمية الفنون الجميلة، لم يعرفوا قصة هروبه. وكثيراً ما ذكّرته سراب بذلك اليوم، وبتلك اللحظة التي رأى فيها أحدهما الآخر: ثمة فتى يتقدم، بعينين واسعتين وفم عريض وأنف بارز وجسد ضامر يقترب مني، ويقول لي، عندما سمع باسمي: « منذ طفولتي وأنا أردد اسمك: سراب»، ثم ليضيف بمرح: «فهل تدعينني إذن، لشرب كوب من الشاي»؟ في ذلك اليوم، استل يوسف وجهها من بين وجوه شلة الأصدقاء التي تجمعت هناك في الحديقة. كانت سراب تقف في الحقيقة، في مكان بعيد عنه، ولكنه لا يتذكر، متى وكيف التفت إلى ذلك الاتجاه، حيث وقفت، لكنه يعرف السبب الذي جعله ينظر إليها، إذ ما إن سمع اسمها يُنطق فجأة، وأنها هي الأخرى تلبس فانيلة زرقاء، حتى بدأ يتصرف وكأنه على يقين تماماً، أنها البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، التي افتقدها منذ أيام المدرسة الأولى، إذن لم تمت كما كان يظن. كل شيء كان يشير إلى أنها هي، وما زاد قناعته، هو أنها هي الأخرى حركت رأسها باتجاهه أيضاً، وكأنها تعرفه، أو تتذكره، قبل أن تلتقي نظراتهما، ويبتسمان لبعضهما، ويرفعان قدحي العصير، اللذين ظلا يمسكان بهما، عالياً، إشارة لضرب الأنخاب.

«إنها تلك اللحظات، التي تصدر فيها حركة منا، لتغيير كل المسارات، مجرد حركة واحدة»، كما يقول لنفسه بقناعة، ويلحقها بجملة أخرى، استعارها من أحد ما عاد يتذكره: «ليست هناك حقيقة

غير الصدفة». إنها لمفارقة أيضاً، أننا وفي أغلب الأحيان، ننسى هذه الحركة، وربما يعود ذلك، لأننا لم نخطط لتلك الحركة في تلك اللحظة، لأننا نتصرف بصورة تلقائية، لذلك يصعب تفسير لماذا قمنا بهذه الحركة أو تلك، لأننا فقط عندما نتذكر نمنح الأشياء روحاً وتفسيراً، لأننا ننفح في الذكريات الصور، والصور في النهاية عبارة عن قصص وحسب، والناس في تصرفهم اليومي يمكن أن يتذكروا كل شيء، باستثناء ما قاموا به بحركة تلقائية، لأنهم عندما يفعلون ذلك، كأنهم يقومون بتنفيذه لشخصية أخرى، لأنا أخرى. كلنا بهذا الشكل أو ذاك، ممثلين لأنات أخرى، أما الذاكرة فيأتي عملها لاحقاً، تنسى أو تعمل على نسيان كل ما فعله المرء بوعي.

غريبة هي الذاكرة، تنتقي الصور التي تريدها، فهذه الصورة، صورة الفتى الذي يتقدم باتجاه سراب، التي جلست في ذلك النهار الجميل، في مقهى حديقة «السنتر» البريطاني، هي أكثر الصور التي ظلت ملتصقة ليس في ذاكرتها فقط، إنما في ذاكرته أيضاً، وعندما يتذكرها، أو عندما يتحدثان عنها، تبدو له مثل حقيقة ملموسة، وكأنها تحدث الآن، الآن في لحظة تذكرها، أو لحظة روايتها، وفي مرات عديدة قال لها: «تلك هي أكثر القصص حقيقية». ولكن، لماذا هذه الصورة بالذات؟ هل لأنه تحرك حينها بوعي منه باتجاهها، لأنها جسدت صورة قديمة مفقودة عنده؟ أم أنه يتذكرها لأنها تعويض عن خسارات الصور الأخرى التي نُسيت، أو أزيحت للظل عمداً، أو هي بالنسبة إليه، وفي تذكره لها، محاولة منه، لنسيان الكابوس الذي بدأ يزوره في الليالي الماضية، منذ تلقّى المكالمة التلفونية، ويُرجع إليه صورة البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، وهي تلوح بإحدى يديها، بينما مسكت بيدها الأخرى رقبتها التي غصت بالكعكة المحشوة بالمسامير؟

كثيراً ما تساءل يوسف مع نفسه: ما هو النسيان؟ يقولون «إنه الوجه الآخر، للذاكرة»، ولكن هل يقدم له هذا الجواب العزاء؟ لماذا نصرّ على تذكّر هذه الصورة، ولماذا نشطب على تلك؟ ومن يقول إن الصورة التي نختارها ونكرر روايتها مرات عديدة، مصرين على روايتها، في مناسبة أو أخرى، قد حدثت لنا بالفعل؟ وما الذي يجعلنا نرويها بهذا الصدق؟ ولماذا نعيد تكرار القصة، عندما نكتشف في بعض المرات أننا استبدلناها بقصة أخرى، وأننا نروي قصة حدثت لغيرنا، وأننا نستبدل بهذه الصورة أنفسنا مع آخرين، نحل محلهم؟ هل هي رغبة كل واحد منا، في أن يحلّ محل شخصية أخرى؟ هل هي رغبة مستبطنة عند البشرية جمعاء، أن يكونوا ممثلين؟ بل هل نحسد الممثلين على قيامهم باستبدال أنفسهم يومياً؟ وأكثر من ذلك: لماذا يبدأ، حتى أولئك الناس الذين نروي قصة نادرة عنهم، بالشعور بالمتعة، رغم معرفتهم أننا نكذب في تلك اللحظة، هل لأن ما نرويه لم يحدث لهم مطلقاً؟ ولماذا يطالبنا هؤلاء، وقد غمرتهم السعادة، بتكرار ما نقوله. وحتى وإن حملت نبرة صوتهم شيئاً من الشك، فإنهم يريدون أن يقولوا عبر ذلك، «حدثنا أكثر، حدثنا أكثر»؟ وألا يشعر من يروي القصة بالمتعة ذاتها، إذ وهو يروي ويروي، يكتشف وفي كل مرة، كلما شعر بأنه يسحر سامعيه، أن رغبته في القص قد ازدادت، ومن غير المهم أنه يكذب. ولكن هل يشعر فعلاً بأنه يكذب؟ أكثر من ذلك: كيف له أن يشعر بذلك وقد وضع نفسه في محل شخص آخر؟ الشخص الذي يروي القصة، والشخص الذي يتحرك في داخل القصة، يتحركان بالتوازي، يتسابقان، ويتحايلان على بعضهما، وهما يعرفان - ربما - أنهما يخدعان نفسيهما، إن لم ينصبا بهذا الشكل الشرك لبعضهما، وأن تلك اللعبة يمكن أن تستمر وتدور إلى ما لا نهاية، لأن القصص من هذا النوع، لا تملك بداية ونهاية، يُمكن أن تبدأ عند أية نقطة، وما يُعتقد أنه

نهايتها، هو شرك جديد للذهاب بالقصة من جديد. القصص تدور وتدور، ويخطئ من يظن، أن «ألف ليلة وليلة» انتهت عند الليلة الواحدة بعد الألف، لأنه سيكتشف سريعاً أن الصور التي تنتجها القصص تتوالد. صورة تلد صورة، وقصة تلد قصة، هوية تلد هوية، وانتحال يلد انتحالاً، كذبة تلد كذبة، وذاكرة تلد ذاكرة.

عجيبة هي الذاكرة، يقول يوسف لنفسه، فهي عندما تتذكر، لا تعرف بأنها تتوالد من جديد، أنها تعمل حسب منطقها ذاته، حسب مزاج فوضوي في أكثر الأحيان. والإصرار أو الخيبة، الحزن أو اليأس، الحنين أو الفقدان، المرارة أو الجرح، هو ما يجعل المرء يصر على التذكر، تذكر هذه الصورة قبل غيرها. القصص ترسم لنا الصور؛ الكلمات صور تتحول إلى كائنات، صور تفتح لنفسها ممرات في الهواء، تتوزع هناك، وتغلفنا عن طريق الأصوات التي ترويها. الكلمات صور تضخ الأوكسجين لنا إن شاءت، وإن شاءت حجبه عنا فإنها ستفعل ذلك، ستقتلنا؛ ويوسف يعرف ذلك، مثلما يعرف أنه كلما زادت خسارات الإنسان، وكلما شعر بفقدان أكثر، شعر بحاجته إلى أوكسجين الصور.

هل كانت سراب خائبة لهذا الحد، لأنه قال لها لاحقاً، بأنها تلك البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء؟ هل تشعر بالاختناق معه، عندما تستعيد تلك الصورة، الصورة الأولى له، وهو يتقدم منها في حديقة «السنتر» البريطاني، لمقاومة اليأس الذي انتهيا إليه؟ لكنه، ولكي يزيل كل التباس مع نفسه، كان يعرف بأنها، وهي تتحدث عن لحظة لقائهما الأولى، تشعر بفرحة غامرة. ربما أخفت مرارة لم تبح بها له يوماً، لكنه سمعها من آخرين، كان يجب أن تظهر على وجهها. أليست الوجوه هي الأخرى حكايات تروي نفسها؟

وماذا عنه هو، أية صور كان يتذكرها، أو من الأفضل القول، يصر على تذكرها؟

الآن، وهو يحاول استعادة شريط الصور ذاك، في تلك اللحظة التي عرف فيها، اقتراب نهاية العالم، وأنه أصبح تحت أنظار مطارديه، مهدداً بالقتل، كما قيل بالتلفون ولاحقاً في الحلم، لا تعبر أمام عينيه، صورة واحدة، كما كانت تفعل سراب، إنما يحاول تذكّر صوراً عديدة، ربما لكي يعثر على صورة تتناسب مع صاحب الصوت، ولا يريد أن يصدق بأنها من الممكن أن تكون صورة أخيه، التي جاهد في محوها من ذاكرته. ربما فقط، التعب أو اليأس، الهروب أو اللامبالاة، الخوف أو الألم، الرغبة في البقاء على قيد الحياة أو السعادة، هي ما تجعله يتوقف عن النبش في ألبوم الذاكرة الذي جمع فيه كل هذه السنوات ملايين الصور، ربما هي الخيبة أو المرارة، الرغبة في الراحة أو فقدان الصبر، الرغبة في الحب أو السلوى، الرغبة في النوم أو تذكر حلم شفاف جميل، هي التي تجعله يشعر برغبة قوية في تمزيق كل صفحات هذا الألبوم، والإبقاء على صورة واحدة. ولكن من أين يأتي هذا الشلل، الذي يستحوذ عليه في أغلب الأحيان، من أين يأتي هذا الألم الذي يحمل جبالاً من الخيبات، والذي يُثقل عليه ويُثقل؟ هل لأنه يفشل في تحقيق تلك الرغبة، أن يطرد كل الصور الباقية، ويُبقي – كما تفعل سراب – صورة واحدة، صورة البنت التي دفع إليها بيده كعكة الموت. حتى صورة أخيه وهو يؤشر إليه بأصابعه، وينادي: هو القاتل، خذوه، لا يريد تذكرها. ورغم أنه يعرف أن يونس هو الذي وضع المسامير في الكعكة، فإنه لم يشأ الاعتقاد بأن أخاه قاتل. تلك كانت لعبته منذ الطفولة أيضاً، كان يعتقد بأنه بمجرد أن يمحو صورة أخيه من ألبوم صوره، حتى يكف أن يكون قاتلاً، مثلما اعتقد أنه بمجرد أن يغير اسمه

وينتحل اسماً جديداً، ينسى تهمة القتل. كان يعرف، بأنه منذ تلك اللحظة، على أحدهما أن يختفي. صحيح أنه لم يصرح بذلك علناً، إلا أن كل ما قام به في ذلك الوقت، كل الأدوار التي وافق على لعبها باسم أخيه، كان تسير بهذا الاتجاه: باتجاه اختفاء أحدهما، حتى ظن بأنه نجح في ذلك. لم يقنع نفسه بذلك فقط، إنما اقتنع به كل المحيطين به: وفي مقدمتهم سراب، التي كان ما يزال بالنسبة لها في ذلك الوقت ليس يوسف ماني، إنما: هارون والي. وكان عليها أن تتعلم لاحقاً، لكن بعد فوات الأوان، البدء من جديد وتعلم العيش معه تحت اسمه القديم.

لماذا صدّقت سراب قصصه في البداية إذن، ووافقت على «هارون» ثم «يونس» وعلى كل الأسماء المنتحلة الأخرى، وهو يعرف أنها لم تسخر منه يوماً؟ هل هي يائسة من وضعه إلى هذا الحد؟ هل هي مثل الآخرين، زملائه في المكتب، أو مثل زبائن الحانة السرية: حانة المدينة، الذين شعر بأنهم سخروا منه، ولم يكونوا صادقين معه، كما كان صادقاً في روايته القصص لهم، مثلهم مثل كل أولئك الذين رسموا له مصيراً واحداً: مستشفى الأمراض العصبية؟

كم بوده أن يوقظها الآن، ويطلب إليها مساعدته، فهي الوحيدة التي تستطيع أن تلغي أو تؤكد ظنونه. الوحيدة القادرة على منحه الأوكسجين، إكسير الحياة، أو سحب الهواء منه، خنقه، أو على الأقل نفيه من هذا البيت، حيث يجلس، وإلى الأبد. كم بوده أن تتحدث معه بصراحة، ولو لمرة أخيرة، أن تطمئنه، وتؤكد ظنونه، بأنه بالفعل يوسف ماني الذي يعيش معها، صاحب اليدين النظيفتين، وليس كما ظن الأطباء حتى الآن، أو كما يظن صاحب الصوت اليوم. من المستحيل أن شخصاً مثله، يصلح أن يكون قاتلاً؛ كم يتمنى أن

تحتضنه، وتقول له: «أحبك، لأنك يوسف ماني بالذات»، بينما تمسح دموعه، التي تشق طريقها على خديه للمرة الألف، وتقول له: «أكره هارون ويونس وكل تلك الأسماء التي لا تصلح لك».

كم بودّه أن يقول لها إنه يقبل منها ما تشاء، حتى وإن شككت في كلامه، وصدقت صاحب الصوت، وقالت له: «أكرهك». نعم، سيقبل كلامها، ويقول لها، لكني قمت بكل هذه الأفعال وارتكبت العديد من الحماقات من أجلك، لأنني أحبك، ولم أشأ فقدانك، مثلما فقدت البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء. وأنت تعرفين، في بلاد مثل بلادنا، بلاد المنتصرين والمسحوقين دائماً، ليس هناك مكان، بين بين، فإما أن يكون المرء قتيلاً أو قاتلاً، وسيرضى بتصنيفها له، بأي شكل من الأشكال: القاتل أو القتيل. سيرضى بكل ما تقترحه هي، فهو لم يعد لديه غيرها، هي، هي الاستثناء الوحيد في العالم. إنه يريد أن ينتهي من الأمر، اليوم وللأبد، والبلاد كما يبدو جميعها تفعل، لأن ساعة الحسم أزفّت، وهو على يقين، أكثر من أي وقت مضى، «أن نهاية العالم اقتربت في كل الأحوال» وأن عليه التفاهم مع الشخص الآخر، أو الذهاب للبحث عن ضحاياه المفترضين، وجمع كل الأدلة التي تدمغ براءته. يريد أن يقول لها كل تلك الأشياء، مثلما يريد أن يقول لها الجملة الأخرى أيضاً، ربما الجملة الأخيرة قبل أن يتحول إلى قتيل بالفعل؛ الجملة التي لم يبح لها بها منذ زمن طويل؛ الجملة التي يمكن أن تنقذ المرء أو تقوده إلى هلاكه؛ الجملة التي يمكن أن تسبب سقوط إمبراطوريات، أو تعيد لها الحياة؛ الجملة التي لا يمكن قولها إلا مرة واحدة؛ الجملة التي يمكن أن تسبب لأحدهم الانتحار أو تجعله أكثر البشر سعادة على الأرض؛ تلك الجملة التي يطيب للكثيرين سماعها حتى وإن عرفوا أنها ستقودهم للخراب؛ الجملة التي مهما كررناها، فإنها تظل تنويعاً على المرّة الأولى

التي نطقنا بها للأبد: «أحبك»، وإن لم تقتنع، فسيضيف لها جملة لم يقلها لها سابقاً، جملة خاصة بها فقط: «سراب، لا أحبك فقط؛ أنت خيط الحياة الأخير».

لبرهة لمس نبضه بارتعاش، وراح يعد دقاته: 100 ضربة في الدقيقة. نهض من مكانه، وحمل الشمعة بيده، وتوجّه إلى غرفة النوم، ولكنه بدل أن يسير باتجاه فراش الزوجية، خطا بهدوء باتجاه دولاب الملابس، الذي استقر في زاوية الغرفة. وضع الشمعة على الأرض، فتح الدولاب، استبدل ملابسه، ثم أخرج حقيبة صغيرة، حفظ بها أشياء كانت منسية حتى تلك اللحظة، حقيبة رمادية صغيرة لم يستخدمها منذ تسريحه من الخدمة العسكرية، منذ قرابة أربعة وعشرين عاماً، كان اشتراها في سنجار، أيام خدمته العسكرية، عندما كان أحد جنود كتيبة الاستمكان التي كانت تتنقل آنذاك في شمال البلاد، حسب تنقّل المسلحين الأكراد؛ وضع في الحقيبة، أقل ما يحتاج إليه: منشفة صغيرة، قميص وبنطلون، زوجان من الجوارب ولباسان داخليان، والقرص المدمج الذي إشتراه في المجمع التجاري مباشرة، بعد سماعه الأغنية تلك: We never reached Georgia، رغم عدم إمتلاكها جهاز يمكنه من سماع القرص. كان ذهابه وحيداً، والبحث عن غريمه، هو أهم شيء بالنسبة إليه، فربما سيكف الصوت عن زيارته، ربما سيرتاح منه، وإذا حدث، وطارده إلى هناك، حيثما سيذهب، فلا ضير، فمن الأفضل لهما أن يلتقيا، وأن يحسما القضية التي بينهما، بعد أن ظلت عالقة كل هذه السنوات، أن يحسمانها مثل باقي الرجال (كما يحلو للصوت أن يقوله)، ذلك ما فكر فيه يوسف قبل أن يقرر مغادرة البيت.

رفع الشمعة من الأرض ورجع إلى الصالون، ثم أرجع الشمعة إلى مكانها على الطاولة الصغيرة. نزع الصورة من الحائط ووضعها في

الحقيبة. أخرج قلم الباركر من جيبه، القلم الذي أهدته إياه سراب بمناسبة مرور عام على زواجهما، فكّر أن يخبرها بما عزم عليه، بطريقة دبلوماسية، لا تثير الرعب عندها، وألا يخبرها أين هو ذاهب، وألا يقول لها بأنه مهدد بالقتل، فهي ستعتقد أنها هلوسة جديدة من هلوساته. كتب على ورقة صغيرة كانت موجودة على الطاولة «إنها نهاية العالم في كل الأحوال، ومن الضروري أن أذهب للبحث عن البراهين التي تثبت براءتي. أن أفعل ذلك وحيداً، هو أمر غير قابل للنقاش. أرجوك، لا تبحثي عني، ولا تكوني حيث تعرفين أين أنا». أطفأ الشمعة. سار باتجاه الباب، دون أن يلتفت ولو مرة واحدة للخلف. فعل كل شيء بهدوء، حتى عندما أغلق الباب خلفه، وخرج إلى الشارع.

كانت ساعة متأخرة من الليل، ولم يكن هناك أحد غيره في الشارع. كانت ساعة مليئة بالتوجس، عندما بدأت قدما يوسف تضربان الأسفلت، تاركاً خلفه، وكما يعتقد للأبد، البيت الذي قضى فيه سنوات طويلة، ما عاد يتذكر عددها، وحيث قص فيه مئات القصص على سراب، التي كانت تصغي لها بهدوء واهتمام، المكان الذي قضى أخيه الفصل الأهم من حياته، والذي تركه لها وحدها، بعد أن أخذ منه، كل ما له علاقة به، ووضعه في الحقيبة الرمادية، التي بدت له متماسكة وصلبة، بكل ما تحويه: ذكريات وبقايا اللحظات الأكثر أهمية في حياته، أيام كان جندياً، الحرارة والبرد، الحياة والموت، الأمكنة المختلفة، السجون والحياة العسكرية، بغداد واكتشاف سراب، البصرة وأربيل، الجنوب والشمال، البلاد كلها، عندما كانت ما تزال سماوات فضية مليئة بالعيون. لكن هذه الحقيبة، الصغيرة، الحيوية، المتحركة، وهذا ما عرفه يوسف عند اقتراب ساعة الفجر أولاً، لا تحتوي على ماضي حياته فقط، إنما ستساعده في العثور على حياته المستقبلية، على كل ما يحتاج إليه في رحلته لاكتشاف نفسه، وتقديم البراهين: كتبه

القليلة المفضلة التي لم يقدر على رميها أو بيعها كل هذه السنوات، تخطيطاته التي نفذها لبعض الوجوه خارج عمله من وحي أقوال الآخرين، صور قديمة، صابون، ملابس، رسائل قليلة، وعلى أسطوانته اليتيمة طبعاً: We never reached Georgia. إنها، هذه الحقيبة، ستصبح منذ اليوم بمثابة البيت بالنسبة إليه، إرثه الذي لن يتنازل عنه حتى ينتهي من المهمة التي وضعها على عاتقه: الذهاب بعيداً، وتسديد الدَّين الذي يعتقد بأنه علق بذمته. أن يبدأ هناك من النقطة الأولى التي بدأ فيها بتغيير حياته، من المكان الذي هرب منه، والذي أصبح بعد كل هذه السنوات، مثل ذكرى قديمة. من بيتهم الذي غادره منذ سنوات. أن يذهب إلى محل صديقه ومزوِّر الهويات، جوزيف كرملي، أو جوزيف ك، كما يحلو له أن يطلق على نفسه، والذي لا يعرف ماذا حلّ به. أن يزور بيت أهل سراب، حيث سكنا في بداية زواجهما. أن يذهب إلى دائرة الطب الشرعي أو مكتب سجل المفقودين ويبحث عن جثة أخيه، وفي حالة عدم عثوره على أي أثر له، سيسأل عن اسمه هو: يوسف ماني. ربما سيقوده أثره إليهم، أن يذهب إلى الحانة السرية: حانة المدينة، ويبوح لهم، لشركائه في موائد اليأس المناوبين ليلياً، ومنذ دهر طويل، بكل ما لم يحكه لهم حتى الآن، من القصص، التي ربما نسوها مثله. سيبحث عن صديقه الراوي هناك، هارون والي، الذي منحه اسمه في بداية زواجه بسراب، ويقول له: «خذ، ألا تقول بأنك تريد كتابة قصة عن الناس هنا؟» نعم، عليه أن يتصرف، وكأنه يقوم بزيارة تفقدية، مثل شخص سيموت غداً، وعليه ألا يتراجع خطوة واحدة، ألا يرجع إلى البيت الذي تركه من جديد. عليه الذهاب بعيداً فقط، وإذا حلّ الليل، عليه أن يبحث عن فندق، أو أن ينام في الشارع. المهم: الهروب بعيداً عن عيون مطارديه.

الفصل الثاني

في البحث عن الغريم: نزهة عبر مدينة الاشباح... بغداد

كانت تلك هي المرة الأولى التي يخرج فيها إلى الشارع وما زال الظلام يفرش سجادته الحالكة اللون على المدينة، على الشوارع والبيوت والأشياء. المرة الأولى منذ سنوات عديدة، يجرؤ فيها على السير وحيداً في الشارع، في الساعات المتأخرة من الليل، التي تشبه ساعات منع التجول التي عاشتها المدينة حتى وقت قريب، يسير وحده، وكأنه خلف كل الأسماء المنتحلة وراءه، هرَبَ اسمه القديم: يوسف ماني، الذي لم يعتقد يوماً أنه سيعود له من جديد. كم كرهه منذ موت البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء. لكنه هذه المرة وكأنه يتبناه من جديد، من أجل سراب، لكي لا تعيش بالخديعة بعد الآن، حتى يقول لها عندما يلتقيان مرة أخرى: ها نحن نبدأ من جديد، هذه المرة بلا إرث ولا ماضٍ.

كان يسير وحده، وكأنه غير ذاهب للقاء غريمه، إنما للقاء شخص معيّن، شخص يعرفه، يستطيع تخيله الآن، أمام عينيه، يوسف ماني الآخر، الذي فقده منذ خمسة وثلاثين عاماً، ربما سيناديه عند عطفة الشارع، أو يأتيه من الجهة المعاكسة، أو يجده جالساً على العشب، عند الفلكة التي اقترب منها، عند ساحة المتحف، أو يتمشى هناك في الجهة الأخرى من الشارع، في الاتجاه الموازي لاتجاهه، مثل صديق قديم

له، ينتظر عودته منذ سنوات، أو إنسان غريب يلتقي به للمرة الأولى، ويتعرف عليه، إنسان مختلف عن كل هؤلاء البشر المحيطين به، يحلم بصداقته منذ زمن طويل، يصبح صديقه بعد حديث قصير، ويقول له: انسَ ما حدث بيننا، فقد ألحق كل واحد منا بالآخر ما يكفي من الكوارث للآخر، انسَ الماضي الذي دمّرَنا، إنس هؤلاء الناس جميعاً، ودعنا نذهب سوية، مثل عاشقين يكتشف أحدهما الآخر للمرة الأولى، وسيروي لشبيهه، يوسف، ما جرى له، ربما سيعرف منه، أنه مثله، ما عاد قادراً على التمثيل والكذب، كل شيء تغير، واليأس تغلغل في العظام منذ سنوات طويلة، ويطالب الآن بضريبته، يصرخ فيه، ويعرف بأن لا مفر أمامه من السير باتجاه آخر، غير الاتجاه الذي سار عليه حتى الآن.

يعرف يوسف الآن، أنه على حافة اكتشاف رهيب، مثل شخص يخرج من الهاوية، من سنوات الوحدة، من العيش بعيداً عن كل ما كان يحدث حوله، مثلما يعرف أن عليه لكي يشكّل يوسف ماني الجديد، الذي نسيهُ في غابة هذا العمر الطويل، أن ينفض عنه غبار الحروب والدمار والوحدة الذي غطاه طوال هذه السنوات، يغير حياته، ويعيد ترتيب عالمه، حجراً على حجر من جديد، خطوة بعد خطوة، على الطريق الخَرِب، الطريق المليء بالحفر والبرك، الطريق الذي يشبه ساحة معركة. صحيح أنها انتهت، لكنها لم تُحسم لحد الآن. الطريق، التي يسير عليها يوسف للمرة الأولى، بوعي، ويعرف أنه ذاهب إلى هدف واحد معين، وأنه يستطيع تخيل الآخر، نسخته الأخرى المفقودة منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاماً، منذ أن دخل في دوامة الانتحال، هرباً من تهمة لم يبعد مسؤوليته عنها، رغم أنه لم يكن المسؤول الأصلي عنها؛ يستطيع تقاسم ابتسامته المطبوعة على الوجه، تقاسم ضحكته الخائفة بعض الشيء، والتي يريد عن طريقها التعبير عن قلقه مما سيأتي، من

المجهول، عن قبوله كل تلك الخسارات، التي ألحقته به الحياة، وقراره بالكف عن رواية القصص في المستقبل، لأنه يريد إلقاء القبض على نفسه. ربما سيقول له الآخر، عندما يلتقي به، بعد كل هذه السنوات، «من يدفع الثمن لمن؟»، وسيجيبه يوسف، رغم أنه غير متأكد من حجم الفجيعة التي جرت للآخر، وأن الألم والمعاناة والخسران، أمور يصعب المقارنة بينها، «عندك الحق، وهذا هو السبب الذي يجعلني أُلبي نداءك. علينا الانتهاء من القضية، كل واحد منا يسترجع نفسه».

حاول يوسف تذكّر كل ما جرى خلال هذه السنوات، وهو يعرف بأن التذكر يخفي «استراتيجية من الأكاذيب»، لأن معظم الأشياء التي يتذكرها الآن، كان يمكن أن تجري بطريقة أخرى، لو رواها شخص آخر، وأن ما يستله الآن من أرشيف الذاكرة، يبدو له أنه لا يعود إليه، لا يخصه، وكأن شخصاً آخر يرويه، شخصاً وقحاً في داخله يأخذ ما يريده من أرشيف لا يخص أحداً معيناً، أرشيف سائب عبث فيه اللصوص أو فتش فيه أحد عمداً عن ضالة له، أرشيف بإمكان أي شخص آخر، قاص يملك مهارة القص وقدرة على الكذب أن يغرف منه ما يشاء، راوية صبور وسِراني، كذاب وصاحب نفس طويل، أن يتحدث حتى عن محتوياته المفقودة والتي يُفترض أنها كانت هناك، وأنها اختفت فجأة.

ما زالت الخطوات السبع والأربعين التي قطعها يوسف من طريقه، الذي بدأه للتو، لا تكفي لكي يتذكر كل شيء. ما زال يثير فيه الاضطراب علّة النسيان. الذي يعيه الآن وهو يحاول التذكر نيابة عن شخص آخر، تذكر كل شيء، الأشياء التي لم يعرفها فقط منها، من الطفلة القتيلة، الطفلة الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، ومن الآخرين لاحقاً، من الأموات والأحياء، المتروكين في العراء والمدفونين، القتلة والمقتولين، الجلادين

والسجناء، المقيمين والمنفيين، المحاربين والمسالمين، الصاحين والسكارى، الحمقى والفطنين، النائمين والحالمين، المرتاحين والمتعبين، الجنود والنساء، إنما منه نفسه أيضاً، الذي يكتشف وبعد كل هذه السنوات حجم النسيان وحجم الأذى الذي يمكن أن يلحقه المرء بنفسه، من سراب التي تركها هناك في البيت وحدها، رغم معرفته بأن نهاية العالم التي اقتربت، ومن الأشياء التي هرب منها إليها، الأشياء التي ما زالت بينه وبينها مسافة طويلة عليه أن يقطعها قبل الوصول إليها، مهما كلف الأمر.

القليل من التنفس والراحة هما ما يحتاج إليهما قبل كل شيء، لكي يرتب الأرشيف الخاص به، لكي يقول لنفسه، هذا يعود لي، وذلك يعود له، هذا ليوسف ماني القديم وذاك ليوسف ماني الجديد، لكي يعرف: من يفكر بالنيابة عن من؟ اليوم، وهو يخطو عبر الشارع الفارغ يعرف، أنه يتذكر، لأن من حقه أيضاً أن يخترع الذكريات التي امتلكها ذات يوم، التي لم يعرف بها من قبل، والتي ربما، لم يروها لأحد من قبل، حتى لسراب، وهو يجعل منها الآن، عندما يرويها ذكريات مشتركة، رغم أنه ترك سراب هناك في البيت، نائمة، إلا أنه يعرف أنه سيعود سريعاً إليها، بعد أن ينتهي من خصمه، الذي بدأ يُثقل عليه، عندها يستطيع أن ينام بصورة جيدة، وهو حريص على عودته، لأنه لا يريد أن يعيش وحيداً، وهو منذ أن رأى سراب في مقهى حديقة «السنتر» البريطاني، في ذلك اليوم الربيعي، حدس أنه ومنذ تلك اللحظة، لم يعد وحده، إنما هو منذ الآن، لديه شريك، عثر عليه بعد سنوات بحث طويلة، شريك سيغير إيقاع حياته من أجله، سيتقاسم معه مخدة النوم.

يتذكر يوسف، وقد قطع بسرعة مسافة لا بأس منها، أنه في ذلك الوقت أيضاً، كان يعرف أن عليه أن يوضح العديد من الأشياء، أن يقدم نفسه بطريقة جيدة، أن يزيل الكثير من الالتباسات، ألا يجعلها تكتشف

بأنه شخص آخر، أن ينسى الشخص الذي كان عليه، حتى لحظة التعرف على سراب، أن يخرج من صمته، لأن من يريد الاحتفاظ بحبه، عليه أن يروي القصص، لكي ينقذ نفسه: «في بلد المنتصرين والمسحوقين دائماً، ليس هناك مكان بين بين؛ إما أن يكون المرء قتيلاً أو قاتلاً»، ووحدها القصص تستطيع أن تنقذ المرء من المأزق، كما في وضعه: أن تنقذه مثلاً من ذكرى قصة البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، البنت التي كانت هي الأخرى تحمل اسم سراب، حتى وإن كان بصورة مؤقتة.

يوسف الكتوم الذي كان حتى ذلك اليوم يخاف أن يبوح بسره، بدأ يروي ويروي، وقد استحوذت عليه رغبة قوية في القص، باستثناء أن يروي قصة البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، كما حدثت فعلاً. يروي مثل عاشق لا يريد فقدان الحب الذي عثر عليه، أو لا يصدق أصلاً، أنه عثر عليه، وأنه بعد ذلك اليوم لن يكون وحيداً يواجه مصيره وهواجسه. ومثله مثل معظم العشاق لم يعرف يوسف، إلا بصورة متأخرة، أنه كلما روى قصص غيره، نصب شركاً لنفسه. منذ اليوم الأول، عندما سألته سراب عن اسمه، وأجابها، مباشرة: «منذ اليوم سأنسى الشخص الذي كنته حتى هذه اللحظة، وسأكون بالنسبة إليك هارون والي»، عرف أنه أضاع فرصة أن يبدأ فعلاً في ذلك الوقت من جديد، أن يعود إلى نفسه، إلى اسمه الذي اعتقد أنه نجح في إلغائه، وأن ينفّذ أخيراً ما عزم عليه، ولم ينجح من قبل: الهروب من البيت، وترك كل شيء خلفه، أمه، خالته، مريم زوجة أخيه وبناتها الأربع. لكنه بدل ذلك استمر على ما كان عليه: هارون والي. هكذا نمت تلك اللعبة الخطرة التي بدأ بها قبل تعرّفه على سراب أصلاً، أن يكون شخصين. لم يعتقد يوماً أنه سيلعب القصة ذاتها

مع سراب. على العكس، كان متعباً من لعب الدورين، بعد أن كان يسهر في الليل وينام في النهار، يخرج ويدخل البيت بشكل سري، يستبدل ملابسه وصوته وتصرفه حسب الشخصية المفترضة. لم يكن أمراً يسيراً بالنسبة إليه، كان منهكاً، ووجد بالتعرف على سراب فرصة للخروج من المأزق.

لم يعتقد حتى تلك اللحظة بأنه سينطق باسم «هارون» من جديد، وقد خرجت الكلمة منه سريعة، مفاجئة، لم يفكر في أنه بدأ منذ تلك اللحظة يشكل شخصية أخرى، وأنه بهذه الصورة وضع الحجر الأساسي لقصة أخرى، غير تلك القصة التي ظنتها سراب، غير تلك القصة التي كان يمكن أن تأخذ مجرى آخر، والتي ستختلف بالتأكيد عما حدث لاحقاً، بسبب كل ما جلبته معها من قصص أخرى موازية: قصص كل تلك الأسماء المنتحلة والحقيقية، القبيحة والجميلة، المثيرة للشؤم وللفأل الحسن، المثيرة للخوف وللراحة، المثيرة للخدر وللطمأنينة، المثيرة للضغينة وللثقة، البسيطة والمعقدة، الشريرة والطيبة، المقدسة والمُهَمَّشة، الأسماء القديمة والحديثة؛ وأكثر من ذلك الأسماء التي تشير للأموات أو للأحياء، للقتلى أو المفقودين، للجلادين أو الضحايا، للمنفيين أو المقيمين، للمهزومين أو المنتصرين؛ لكل تلك الأسماء التي ارتبطت باسم يوسف أو دارت حوله. ومن غير المهم، إن كان يوسف المنتحل أم الحقيقي، يوسف الذي يروي القصة، أم يوسف الذي عرفته سراب، فبالنسبة لسراب، ليس هناك غير يوسف واحد: الشاب الذي رأته للمرة الأولى في مقهى حديقة «السنتر» البريطاني، «فتى يتقدم بعينين واسعتين وفم عريض وأنف بارز وجسد ضامر ويقول: «منذ طفولتي وأنا أردد أسمك: سراب»، الشاب الذي سيضيف بمرح: «فهل تدعينني إذن، لشرب كوب من الشاي؟»»». لأنها، وهذا ما كررته مئات المرات ليوسف، كلما تحدثنا عن تلك اللحظة، كان يمكن أن تخمن كل شيء،

باستثناء أن يكون الاسم الذي قاله لها منتحلاً، وهي لا تملك تصوراً محدداً، يفسر لها، لماذا ينتحل الناس أسماء بعضهم البعض؟ ربما بدا لها الأمر نوعاً من الطرفة، ألم يقدم الفتى الضامر بالعينين الواسعتين نفسه في ذلك اليوم بهذه الطريقة، عندما أكد أمامها، بطريقة درامية لا تخلو من التمثيل، أن اسمه «هارون»، وكأنه يدعي هذا الاسم، كأنه يوحي بانتحاله له. وكل ما تحفظه ذاكرتها بهذا الشأن هو قصص أبيها، التي كان يرويها، قبل أن ينتهي أو ينهوه إلى سائق قطارات، يقود نفسه بنفسه إلى مستشفى الشماعية.

كان أبوها تحدث في البيت، في بعض المناسبات عن بعض زبائنه في سنوات الأربعينات والخمسينات، وحتى سقوط النظام الملكي في 14 يوليو 1958، كيف أن العديد من هؤلاء كشفوا لاحقاً، بعد هذا التاريخ، عن أسماء جديدة، وأنه شخصياً لم يكن من السهل عليه أن يبدأ بالتعامل من جديد معهم ويخاطبهم بأسمائهم الجديدة: «وكأنني شخص مولود من جديد»، كان تعليق الأب. لكن تلك السنوات وما حدث فيها، كما كانت تُعلق سراب أمام يوسف، بدت بالنسبة إليها، بعيدة، وهي لا تستطيع أن تبدأ معها، لأنها لا تملك صورة عنها، والمرء عندما يروي متذكراً شيئاً، فإنه في الحقيقة لا يتذكر ما حدث، بسبب الذكريات التي ما زال يحتفظ بها عنه، أو القصص التي رويت عنه، إنما بسبب الصور التي ظلت مطبوعة في ذاكرته. وهو الأب، الذي كان يزود العائلة بالصور، التي يعتقد بأنها علمته الكثير، ولاحقاً راح يفتخر بأن خبرة تلك السنوات بالذات، هي التي جعلته يساعد يوسف وسراب، رغم أن سراب، كما عرف يوسف لاحقاً، لم تعرف بالقصة إلا في وقت متأخر، وليس من يوسف، إنما سمعتها وهي غارقة بالبكاء، من أبيها، في لقائها الأخير معه، عندما سمعت بدخوله مستشفى المجانين، وزارته هناك، في الشماعية. ولم يكتف أبوها برواية

ما يعرفه عن يوسف، وما أخفاه عن ابنته كل هذه السنوات، إنما راح يؤكد لها بحماس، صحة ما قام ويقوم به يوسف، وأنه بهذه الطريقة فقط، يستطيع الإنسان أن يُري العالم الوجه الذي يستحقه، ومن لا يفعل ذلك، سيقضون عليه عاجلاً أم آجلاً، مثلما فعلوا معه، ولكن ليس عليها أن تقلق، فالقضية قضية وقت، وسيريهم جميعاً من هو؟ وأضاف لها أبوها، الذي ظل محافظاً على نبرة صوته الخطابية، وكأنه لا يلاحظ الدموع التي انهمرت على خديها، أنه كان فرحاً كل هذه السنوات بيوسف، وأنه كان أكثر حماساً من يوسف ذاته للذهاب بالشوط بعيداً.

يتذكر يوسف، كيف أن سراب رجعت حزينة ذلك اليوم، وحدثته بصوت منكسر، وقد استحوذ عليها شيء من التردد، عما حدث لأبيها، وعن الحديث الذي جرى بينهما. كان صوتها يحمل نبرة متهدجة اختلط معها الحزن، بينما ما زالت آثار البكاء بائنة عند حافة عينيها المحمرتين، على حاجبيها المتورمين، وعبثاً حاول يوسف تهدئتها. كانت مجهدة أيضاً، وليست عندها رغبة في الحديث، بحيث إنها دفعت يوسف الذي أراد أن يحتضنها مواسياً. كان وقع الصدمة عليها قوياً. فهي لم تصدق أن أباها يتحدث بهذه الطريقة، وربما أحزنها جداً أن أباها ويوسف يعرفان عن بعضهما أكثر مما تعرف هي عن الاثنين. كان على يوسف أن يبذل جهداً استثنائياً، لكي يجعلها تنتظر لحظات أخرى، وتسمع ما سيحكيه لها.

يتذكر يوسف، أنها ظلت تستمع بعد إلحاحه عليها بالبقاء، لكنه يملك شعوراً أنها كانت غائبة، وأنها لم تصغ بدقة وانتباه لكل ما حكاه لها. وكانت علامات وجهها تقول إنها تنتظر أن ينتهي بسرعة من الحكاية، لكي تركن مع نفسها، وتدخل إلى غرفتها في ذلك اليوم، وتستبدل ملابسها، وتلبس الملابس السوداء، ملابس أمها المتوفية منذ سنوات عديدة، لتلازم غرفتها، وتظل لا تغادر البيت مدة أربعين يوماً.

في الحقيقة لم يُبدِ يوسف حينها دهشته، إنما قال لها إن حال العم عاصم كانت تثير قلقه منذ زمن طويل، لكنه لم يشأ فتح الموضوع معها، وإنه سبق لأبيها أن تحدث معه في الموضوع ذاته الذي تحدث به مع سراب في ذلك اليوم، ثم حكى لها أنه كان بوده منذ أيام تعرّفهما الأولى أن يطلب من أبيها أن يساعده في الحصول على هوية باسم منتحل جديد، وعندما تحدث معه ذات يوم عن الموضوع، سأله أبوها عن السبب. طبعاً كان من الممكن إخفاء القصة عنه، لكنه لا يعرف لماذا فكر في أنه لن يكذب على العم عاصم هذه المرة، وأن من الأفضل له أن يخبره بأنه يفعل ذلك هرباً من أخيه. لم يندهش العم عاصم عند سماعه القصة، وكأنه كان يعرف تفاصيلها، كأنه يعرف الأخوين، قال له: لقد صدق حدسي بأنك شخص آخر. لا يعرف يوسف من أين حصل الأب على معلوماته، خاصة وأنه أوحى بحديثه، بأنه كان يعرف كل شيء عنه، حتى أنه قال له أن ليس عليه أن يقلق، وليترك الأمر له، سيفكر في الموضوع، وسيرتب كل شيء له إذا وجد ضرورة لذلك، ثم أضاف: بشكل عام لا يجد ضغينة بما حدث، على العكس، هو الآخر كان بوده، استبدال اسمه منذ زمن بعيد، وهو يعتقد أن الناس يجب أن يفعلوا ذلك، قبل حدوث الخطر، عليهم أن يستبدلوا أسماء بعضهم لبعض، ربما تلك هي الطريقة الوحيدة ليس لتفادي الخطر ذاته وحسب، إنما لمنع وقوع أي خطر، إنه لا يريد أن يقول إن هذا النوع من الممارسات هو أحد أشكال «المقاومة بالحيلة»، كما يحلو للبعض أن يفسر، إنما هو محاولة لفهم الناس بعضها البعض، ولو أصبح هو حاكماً للبلاد لمدة يوم واحد على الأقل، لأصدر فرماناً جمهورياً يُلزم فيه سكان الجمهورية ودون استثناء، نساءً ورجالاً، أطفالاً ويافعين، شباناً وشيوخاً، عرباً وأكراداً، تركمان وكلدانيين، آشوريين وتل كيفيين، غجر ويزيديين، شيعة وسنّة، صابئة وشبك، ملحدين

ومؤمنين، قوادين وقحبات، مخبرين وسجناء، قتلة ومقتولين، مرضى وأصحاء، مجانين وأسوياء، نعم كل ما يخطر على البال من أحزاب وطوائف وملل وأديان وقوميات وأعمار وأجناس ومهن ووظائف وأقدار وأحوال، أن يحضروا يومياً إلى مكتب لدائرة تُنشأ لهذا الغرض، بل سيبني قلعة كبيرة ليحفظ فيها السجلات الخاصة بهذا الغرض: استبدال الأسماء والهويات للناس، والجنس والعرق والوظيفة بمحض إرادتهم، لأن الجميع سيعرف وبهذه الطريقة فقط، بأنهم جميعاً متساوون بالحقوق، وأنهم عندما يسيؤون لبعضهم، سيحذرون كثيراً قبل أن يقدموا على أية خطوة، لأنهم يعرفون بأن الدور سيأتي عليهم. وعندما قاطعه يوسف متسائلاً: وماذا عن الزوجات والأزواج؟ هل سيُستبدلون هم الآخرون؟ وماذا عن الفردية، ألا ننهي بهذه الصورة، كل شيء له علاقة بالفردية؟ وأخبرها يوسف كيف أن أباها أجابه: بما يتعلق بالزوجات، فلا أظن أنهن سيمانعن من القيام بهذه التجربة، أولاً لأن النساء وفي هذه البلاد بالذات، أكثر رغبة في المغامرة وأكثر شجاعة، وينظرن إلى الأمر باعتباره روتيناً يدخل ضمن العادات الاجتماعية الجديدة، ولكن المشكلة هي في الأزواج، لأن ليست هناك أنانية أشد من أنانية الرجال في هذه البلاد، إنهم يفعلون ما لا يقولون، وأننا جميعاً - دون استثناء - أصحاب وجهين، ولكن من الخطأ الاعتقاد أن الوجهين يختلفان بصورة راديكالية، لأن الوجه الأول الذي نملكه، هو الوجه الشرير المعلن، أما الوجه الثاني، الوجه المخفي، فهو الوجه الأكثر شراً. أما بما يتعلق بالفردية، فأعتقد أن الأمر على العكس، فقط بهذه الصورة تثبت الفردية، لأنه عندما يتصرف أحدهم على أساس أنه شخص آخر، يكتشف نفسه أيضاً عن طريق اكتشاف الآخر، ويعرف أنه موجود فقط عن طريق وجود الآخر، وعليه ألا يترك كل شيء للصدفة، إنما عليه أن يفعل كل ما في وسعه، أن يساعد الآخر على البقاء. ولسوء

الحظ، الناس تلجأ لهذا الحل، فقط عندما تشعر بالخطر، دون أن يدروا أنهم بهذا الشكل لا يتجنبون الوقوع في الخطر، إنما يقعون أكثر في الخطر، وأنهم يسيرون إلى هاوية، لا يعرفون عقباها. ثم سأله: هل تتذكر مسعود العمارتلي؟ وهل تعرف كيف يختلف عن نوري السعيد؟، حسناً سأقول لك كيف، لأنني عرفت الاثنين:

«الأول كان يشعر بأنه امرأة، وكانت عنده رغبة في الغناء، وكان يسمع صوته، ويعرف الأنثوية التي فيه، ومن كان يغامر في السنوات الأولى من القرن العشرين، بالظهور علناً والغناء بصوت أنثوي، وهو يعرف أنه لم يختر ذلك بنفسه، فالرجل يملك هرمونات أنثوية قوية، سيفضحه صوته بالتأكيد، خاصة وأنه صاحب، أو أنها صاحبة صوت جميل، سيفضحه بسبب النبرة النسائية التي فيه، ما العمل وقوانين العشيرة، الشرف والعفة وغيرها من الأشياء تمنع كل ما له علاقة بشخص مسعود؟ ما العمل ومسعود يعرف أنه صاحب صوت جميل، والرغبة في الغناء تلح عليه، وقد ملّ الهروب إلى الحقول والغناء هناك بعيداً لكي لا يراه أحد، أيضاً ربما عرف أنه على حق بما يفعل، خاصة وأنه طور نوعاً من الغناء، نوعاً من الميلودي الخاص به، وأن ليس من حق أحد مهما كان، أن يسلبه هذا الحق، هكذا لجأ إلى حيلة فذة: قرر تبديل ملابسه الفلاحية، وهاجر إلى المدينة، لبس أولاً ملابس النساء، قدم نفسه لفترة قصيرة على أساس أنه امرأة، ليقوم بعد مدة قصيرة بنزع ملابس النساء، واستبدالها بملابس الرجال، وبملابس أو زي الشيوخ الأرستقراطيين بالذات، وراح يغني في المقاهي وفي الحفلات، بحجة أنه امرأة تحولت إلى رجل، لكي يفرض أنثويته بشكل آخر، وربما لكي يفرض جنسيته المثلية التي يسميها الآخرون شذوذاً جنسياً، وهي كلمة حديثة جاءت مع الترجمات الخاطئة لكلمة هومو سكسيواليتي، إذا كانت عنده هذه الميول. لا أحد يدري.

تمعّن في القصة الثانية، قصة السياسي نوري السعيد: فعندما قام الضباط بجريمتهم الشنيعة وقتلوا العائلة المالكة وراحت الناس بصورة غوغائية تطارد بقايا العهد البائد، فرّ آخر رئيس وزراء في العهد الملكي، نوري السعيد، خائفاً من غضب الناس عليه، حتى قبضوا عليه في ناحية بدرة وجصان التابعة لمدينة الكوت، عند الحدود الإيرانية، كان متنكراً بزي امرأة. تخيل، هو الذكر الذي كان يحمل المسدس بصورة شرسة، ولافتة للنظر، يخفيه في جيب البنطلون ويجعله يبرز من طرف سترته، والذي كان يصرّ حتى عند دخوله إلى محل الخياطة على حمل المسدس، يلبس ملابس النساء، : الشيلة والعباءة. الاثنان عرفتهما، لأنهما كانا زبونين عندي، ولم يخيطا ملابسهما في محل آخر». تذكر يوسف، أن العم عاصم كان يتحدث معه وهو ينظر إلى التلفزيون، الذي كان ينقل فيلماً عن الرسم العالمي الحديث، أدار رأسه وتطلع إليه فجأة. كانا يجلسان في صالون البيت، رغم أن الوقت صيف، وكان على الطاولة صحون من المازة وقنينة من العرق الزحلاوي، أتى العم عاصم على أكثر من نصفها، في تلك الليلة الحارة. «هل تريد أن نسميك بيكاسو، خاصة وأنت ترسم؟»، وقبل أن يجيب يوسف بشيء، أو أن يسأله، ما الذي يعينه، راح العم عاصم يتحدث، ولا يتوقف إلا لبرهة قصيرة، عندما يحتسي قدحه:

«بيكاسو هذا، كما تعرف، ليس اسمه الحقيقي، هو انتحله وبصورة علانية، حتى تبناه. الآن حتى الفرنسيين يظنون أنه فرنسي، وحتى النفر القليل منهم، الذين يعرفون ذلك، يعتقدون أنه كتالوني الأصل، لأنه قَدِم من برشلونة إلى فرنسا، ولا يدرون أنه أصلاً من الأندلس، من مدينة ملقا، وأنه لجأ في تلك السنوات إلى برشلونة، لأنها كانت في الحقيقة العاصمة الثقافية لأسبانيا، وعندما اشتدت قبضة الديكتاتورية هناك، لجأ إلى باريس. ولكن بغض النظر عن كل هذا، إذا

تطلعت بوجه بيكاسو، وبالذات أنفه، ألا تعتقد أنه يشبه أنف شخص قريب لك، أو شخص يمكن أن تلتقي به في الشارع، أنفك مثلاً. لو كنت أنت تتحدث الفرنسية أو الإسبانية، ولو كان هو يتحدث العربية، لكان من الجائز استبدال هويتيكما».

ما زال يوسف يتذكر كيف أن العم عاصم فاجأه بحديثه، الذي لم يكن مهيئاً له، ولا يدري ما إذا كان يوحي بأنه يعرف قصته، أم أنه يعرف كل شيء عنه مسبقاً، بحكم العرف السائد الذي يحتم على والد العروس أن يسأل عن عريس المستقبل لابنته، وهو بالتأكيد سأل عنه، ليتوصل لهذه النتيجة، أو أن يوسف بسلوكه في ذلك المساء، فعل كل ما يوحي بأنه خائف، بأنه مطارد من السلطة ومحاصر، ويحتاج إلى وسيلة لإنقاذ جلده، لمنفذ، ابتداءً من إصراره على الجلوس في صالون البيت رغم حرارة الجو، واقتراح العم عاصم بنقل التلفزيون إلى حديقة الدار، وكأنه يخاف من الجلوس في مكان مفتوح، نوع من غريزة الخوف عند المُطارَدين، الذين يبحثون عن مكان ضيق، أو كأنه يخاف أن يسمع أحد صوته ويعرف بوجوده هنا، وانتهاءً بتعليقاته المقتضبة، العابرة، عن بيكاسو وشيوعيته. ولكن مهما ذهبت ظنونه بعيداً في تفسيراتها، فإن يوسف يعرف أن العم عاصم، الرجل العجوز، بارع في تفسير الصور. كل حياته، وليس ذكرياته وحدها، مجموعة من الصور، إنما حاضره أيضاً، وهو الذي نقل لسراب الجملة التالية، التي وصلت إلى مسامع يوسف في تلك الليلة أيضاً: «الناس لا يتذكرون بسبب وجود بعض الصور، بل أنهم يتذكرون الصور فقط». وهو يستطيع أن يقرأ كل صورة. الوجوه صور، ووجه يوسف فيه أكثر من «أحد عشر كوكباً والشمس والقمر»، كما قال له في تلك الليلة، مستعيراً تلك الجملة من سورة يوسف في القرآن.

في تلك الليلة وفي الليالي التالية، حاول العم عاصم التعامل مع نسيبه بودّ، وكأنه يصر على منحه الانطباع، أنه ليس بالضرورة يعرف عنه شيئاً، لكنه، وذلك هو الأمر الرئيس، عليه ألا يقلق، لأن «الحياة عبارة عن جرعات مؤجلة من السعادة»، تلك الحكمة التي يحلو للعم عاصم ترديدها دائماً، والتي أضافت جرعة من الودية للعلاقة بين يوسف وحميه، لتنشأ بينهما علاقة ودية، حتى ذلك اليوم الذي فاجأه فيه، عندما أخبره بأنه يعرف شخصاً يجهز الناس بهويات مزورة، ثم أخرج ورقة من جيبه، وقال بلغته الفصحى التي أدمن عليها: «جوزيف كرملي، أو جوزيف ك. كما يطلق على نفسه، كما يقول حباً بكاتب تشيكي، يدّعي أنه توأم له؛ هذا هو عنوانه، الأمر متروك لك، إذا أردتَ أن أصاحبك، فسأذهب معك، وإذا فضلت الذهاب وحدك، فافعل». تردد يوسف قليلاً قبل أن يأخذ الورقة منه، لكنه لم ينس أنه قال جملة، ربما لم تحمل أي معنى، إلا أنها يقيناً حَوَت الكثير من السخرية، مثلما حملت معها النذير لكل ما حدث لاحقاً: «من يتحمل ذنب من؟».

ما زال يوسف يشعر بسخرية مُرّة كلما تذكر تلك اللحظة، وما حدث بعدها، كيف أنه ذهب بالفعل إلى جوزيف كرملي، ليرتبط معه بصداقة تعمقت لاحقاً، رغم أن ما حدث له بعد حصوله على الهوية المزورة كان ضرباً من العبث، لا غير. إذ بعد شهرين من تغييره لهويته، وبينما كان يجلس في باص لنقل الركاب، في شارع الرشيد، صعد فجأة رجال الانضباط العسكري يفتشون الهويات، أو يبحثون عن شخص هارب. أية مفارقة، أن يلقوا القبض عليه ، بصفته هارباً، لكن ليس بصفته الهارب «يوسف كريم»، كما كان اسمه في الهوية المزورة، إنما بصفته الهارب: «هارون والي». إنها لمفارقة بالفعل، كيف يثبت لهم أنهم على خطأ، أنه ليس «هارون والي»، لأنه يعرف «هارون والي» جيداً، وهو صديقه الراوي الذي هرب إلى خارج البلاد، وأن يقنعهم

بصحة الاسم المنتحل الجديد: «يوسف كريم». سحقوا هويته ببساطيلهم، وضربوه، حتى كسروا له سنا، وجروه يصرخون فيه. كان عليه وعلى مدى سنوات طويلة، أن يلعب من جديد دور «هارون والي»، أن يدور من مكان إلى آخر، أن يدخل ويخرج من البيت متخفياً، تحت هذا الاسم، حتى تسريحه من الجيش. ليدخل بعدها نفسه، وسراب معه، في دوامة الأسماء المنتحلة. لم يعد يتذكر عدد الأسماء التي حملها، حتى نسي اسمه. نصف عمره تقريباً، قضاه بهذا الشكل، وهو لا يريد أن يقضي النصف الثاني مع هذا الشخص، الذي ما عاد يتذكر اسمه، الشخص الذي بدأ يثقل عليه، كم بودّه أن يسترجع نفسه.

«لماذا تعير أهمية للأوراق، متى تقرر الأوراق مصير إنسان؟». تذكر تلك الجملة التي قالها له العم ذات مرة. أين يجد العم عاصم الآن، ليقول له: نعم، الأوراق هي التي تقرر مصير شخص، وإنه حاول وعلى مدى كل هذه السنوات، أن يركن إلى ما قاله العم عاصم. وها هو يحدث ما كان يخاف منه كل هذه السنوات، أن تستيقظ الذاكرة مرة واحدة، ويشعر بعبث ما فعل، لأن الشعور بتأنيب الضمير أقوى من كل شيء، أقوى من الذنب أو الإثم ذاته، مثلما الشعور بالألم أقوى من الألم ذاته؛ «من يتحمل ذنب من؟»، تلك الجملة التي حملها معه، منذ جلسته تلك مع العم عاصم، وهما يشاهدان التلفزيون، في البيت الذي كان يضم سراب مع أبيها، في حي البلديات، تلك الجملة التي ربما نسيها فترة من الزمن، لكنها كانت تختفي هناك في داخله، وتظهر له، أحياناً، وبصورة متواصلة في السنة الأخيرة، وبأكثر قوة وبصورة ملحّة منذ الليلة الماضية.

«من يتحمل ذنب من؟»، يسأل نفسه وبإلحاح، رغم قراره الواعي بانتحال اسم آخر، ربما أقلقه انتحال اسم آخر، وحمله هوية أخرى،

لكن ما أقلقه أكثر، هو شعوره بأن هناك شخصاً آخر يتحرك في العالم، يحمل اسمه، شخصاً لا يعتقد بأنه قادر على تحمّل مسؤولية حمل اسمه، شخصاً ليس من السهل عليه، أن ينجح بامتحان الحياة هذا، ويتصرف بيدين نظيفتين، مثل اليدين اللتين امتلكهما يوسف إلى حين ما حدث بينه وبين أخيه. كيف يمكن ليدين كانتا نظيفتين قبل الآن أن تتحولا إلى يدين قذرتين؟ وهل في قدرة يدين قذرتين أن تتحولا إلى يدين نظيفتين؟ حتى إذا شاءتا، هل تستطيعان الحفاظ على نظافتهما كل هذا الوقت؟ خاصة، وأن الناس هنا بارعون بخلق الهواء الملوث، وأنهم سيواجهونه مع ماضيه، وإذا أنكر هذا الماضي، فسيواجهونه بالوثائق، بالاسم الذي يحمله، وسيقولون له: هل هناك إنسان بلا ماضٍ؟ تلك هي المعضلة، التي ليس من السهل حلها، «آه أيها الماضي ماذا فعلت بحياتي؟»، يمكن تخيل الجملة، وكيف يرددها الملايين، في كل مكان في العالم، في الشرق والغرب، في الجنوب والشمال؛ دائماً هناك ماضٍ، وتلك هي العقبة، فمن ينتحل اسماً جديداً، ينتحل ماضياً معه، وليست القضية سهلة، كما ظنها العم عاصم، ومن لا يؤمن بالماضي، لا يؤمن بشيء اسمه الوثائق. ومن يحمل وثيقة ما في جيبه، تقول إنه فلان ابن فلان، وُلد في كذا تاريخ وفي كذا مكان، في كذا بلاد، عليه أن يحفر على الأوراق ذاتها، الجملة التالية: «من يتحمل ذنب من؟». قل لي ما هو اسمك، وأقول لك أي تاريخ تحمل، أي تاريخ تركته أو تريد تركه وراءك.

الفصل الثالث

في زيارة عنبر الجثث: هل أنا مطارد بالفعل؟ وأين جثتي الراقدة هناك؟

عندما وصل إلى باب المعظم، لم يدخل المقهى الذي كان يفتح أبوابه للتو في الساحة، كما كان قرر في طريقه، وقد شعر برغبة قوية تلح عليه، بشرب كوب من الشاي صباحاً، لكنه عندما شعر أن هناك شخصين يطاردانه، منذ خروجه من البيت، قرر متابعة طريقه، بعد أن إستبدل حمل الحقيبة من يد إلى أخرى. عندما رأى تجمع رتل من السيارات العسكرية أمام المقهى، ونزول ضابطين يلبسان نظارات شمسية وخوذ واقية للرأس، فضل أن يترك المكان بسرعة. فبغضّ النظر عن احتمال حدوث ما هو مفاجئ، انفجار قنبلة أو هجوم مباغت أو تبادل إطلاق نار، فإنه يكره منظر العسكريين، بصرف النظر عن جنسيتهم وسحناتهم، سواء كانوا محليين أو أجانب، لذلك حاول كل جهده، منذ مغادرته البيت وحتى الآن، السير عبر أزقة خلفية، لتفادي رؤيتهم. فكر يوسف في الالتفاف حول الرتل، لكي يتأكد من هواجسه، بأنه مطادر بالفعل. كان بودّه أن يلتفت لهما، لكي يتأكد من ملامحهما، لكنه خاف أن يستفزهما بتلك الحركة، فربما كانا مسلّحين. من لا يملك سلاحاً في هذه الأيام، باستثنائه؟ من الأفضل له أن يسير قدماً، ألا يلتفت. ليكن ما يكون، قال يوسف لنفسه، وقرر التوجه مباشرة نحو مدينة الطب، لكي يراجع دائرة الطب العدلي، ويتأكد هذه المرة بالفعل من وجود اسم

أخيه، الذي كما عرف، أو قيل لهم، سُلمت جثته قبل أكثر من عشر سنوات هناك.

كانت فكرة مراجعة عنبر الأموات، فكرة قديمة أصلاً، وكان قد أجّلها أكثر من مرة، لدرجة أنها تحولت إلى واحدة من الأفكار التي بدت له بعيدة حتى ذلك الحين. ربما بدت له هذه الفكرة قبل ساعتين أو ثلاث، عندما غادر البيت، ضرباً من الحماقة والعبث، فحتى وإن صحّ وعثر على الاسم في السجلات (هذا إذا كانت ما زالت هناك سجلات)، هناك، فمن يضمن أنه سيقنع صاحب الصوت. لكنه فكر فجأة، أن عليه أن يفعل ذلك، على الأقل، لكي يقنع نفسه بأن ما قام به كان صحيحاً، فهو لم يسرق اسم أو شخصية أخيه، لأنه كان ميتاً في كل الأحوال. لكن ماذا سيحدث لو عرف بأن أخاه مات بسببه؟ اعتقلوه مثلاً لأنه حمل اسمه ليس إلا، مثلما هو الآن مطارد بالتأكيد بسبب حمله لاسم أخيه؟ أرعبته الفكرة، وجعلته يسرع بخطواته، وكأنه يهرب من شخص يريد إقناعه بالفكرة الجديدة.

عند نهاية ساحة باب المعظم وقبل صعود جسر 17 تموز، دخل يوسف مدينة الطب، دون أن يلتفت ويتأكد ما إذا كان ما يزال ملاحقاً من أحد. سار باتجاه مستقيم باتجاه دائرة الطب العدلي، ماراً ببائع الورود وباعة القناني وباعة الشاي وأصحاب الحوانيت أو الطاولات الصغيرة التي عرضوا فوقها بضاعتهم، حلويات وقناني عصير وأدوات ومستحضرات تجميل وصابون وأدوات حلاقة، وشامبو وسجائر، كل الماركات المزورة، وعند جوانب الممر المشجر قليلاً، تكاثر باعة الماء إلى جانب تدافع شباب يجرون مولّدات كهرباء متوسطة الحجم، وكان الجميع يعرضون بضاعتهم بأصوات عالية، باستثناء مجموعة صغيرة من الصبيان، جلسوا عند زاوية بعيدة، يمسكون بأيديهم قطعاً صغيرة من الكرتون، وكأنهم ينتظرون شيئاً ما.

أثار المنظر دهشة يوسف، لم تطأ قدماه المكان، ربما منذ أكثر من عشرين عاماً، وحتى في ذلك الحين، لم يدخل المكان، إنما رآه من الجهة الأخرى، عند مغادرته سجن مديرية الاستخبارات في بناية وزارة الدفاع المواجهة للمستشفى. في ذلك الوقت، يتذكر واجهة المستشفى النظيفة، ولون طلائها الأخضر. لقد تغيرت البناية تماماً. تحولت إلى بازار صغير، يكتظ بالزبائن، ومن الصعب أن يُعرف ما إذا كان الناس المتجمعين هناك، جاءوا من أجل التسوق أم من أجل مراجعة مدينة الطب. ورغم اختلاف المكان عما كان عليه في الماضي، إذ لم يكن البازار آنذاك بهذا الحجم، وكان أكثر تنظيماً، طغى عليه وجود القرويين والقرويات بصورة خاصة الذين افترشوا الأرض، يدخنون سجائرهم هناك، إلا أن يوسف لم ينس المكان. قادته خطواته بصورة أوتوماتيكية، وكأنه يعرف المبنى منذ زمن طويل. تذكر فجأة أنه سبق له أن عمل هنا أيضاً، لأسبوع واحد أو أسبوعين، لشهر أو لشهرين، بل ربما لسنة أو لسنتين؟ لكنه لم يعد يتذكر العام بالضبط، رغم ميزته بتسجيل التواريخ. وكل ما يتذكره أن ذلك حدث في سنوات الحرب (لكن أية حرب؟ البلاد تعيش الحروب منذ تأسيسها!)، في ذلك الوقت الذي كثرت فيه تنقلاته، في الدوائر الحكومية، وفي الحقيقة، كانت تلك أكثر الوظائف رعباً بالنسبة إليه، ربما كان ذلك السبب الذي جعله لا يريد تذكر تاريخ عمله. الآن، يفاجئ نفسه بأن تلك هي الذكرى الوحيدة التي نجح حتى الآن في محوها من ذاكرته (على الأقل هذا ما يتذكره).

دفع يوسف الباب الدائري لمدخل البناية الداخلية من مدينة الطب، وعندما وصل الممر الذي يؤدي إلى مكاتب الموظفين، توقف في المكان، وكأن صاعقة سقطت عليه. كان مشهداً غير معقول، فقد تزاحم الناس في الممر، وتصاعد لغطهم. شق يوسف طريقه بصعوبة وسط هذا الحشد، وفاجأ نفسه بأنه يتحرك وكأنه موظف يعمل هنا، يعرف المكان

جيداً، يدخل إلى غرفة الموظف المسؤول عن سجلات قيد الموتى دون أن يسأل أحداً. كان الآخرون يتركونه يمر بينهم أيضاً بسهولة، وكأنهم رأوا فيه موظفاً يعمل في مدينة الطب، أو كأنهم اعتادوا منظره هناك.

كانوا جميعهم من الرجال، ومن الصعب تصور أن تكون امرأة بينهم. كل شيء يشير إلى أنهم كانوا هنا، مسمرين في ذلك المكان، منذ القدم، «قبل أن توجد مدينة الطب أصلاً»، أو - كما علق يوسف ساخراً في داخله - منذ أيام وليال. وما يؤيد ظنونه، هو رؤيته لمظهرهم: وجوههم المتعبة، المغبرة والهرمة؛ ملابسهم الرثة؛ أقدام معظمهم الحافية، والمشققة، أيديهم المتسخة، وبالإضافة إلى رائحة أجسادهم النتنة من كثرة العرق والقذارة. في تزاحمهم هناك، كانوا وكأنهم يقاتلون البؤس والقذارة والوحدة.

لبرهة لاحظ يوسف أنهم، كما يبدو، يتناوبون في وقفتهم هناك، وكأنهم اتفقوا على ذلك منذ زمن طويل: مجموعة منهم تقف (أولئك الذين كانوا في المقدمة، قريبين من باب الموظف)، مجموعة تنام (استلقوا متمددين في وسط الممر)، مجموعة خلفها تجلس تماماً (تستند إلى الحائط)، مجموعة تجلس متربعة (هؤلاء أيضاً يستندون إلى الحائط). المجموعة الأخيرة كانت الأقرب ليوسف. نظر إليهم، فسمع صوتاً يناديه. كان صوت الرجل الأخير المتربع هناك.

«تفضل، اجلس»، قال له الرجل بصوت ضعيف ومبحوح.

تطلع يوسف إلى الرجل. كان في الحقيقة شاباً في أواسط العشرينات من سنه، وكان وجهه شاحباً، ورغم شعره الطويل، استطاع يوسف أن يرى أُذنيه المقطوعتين.

«هل جئت بالوقت معك، هنا يمكن أن تظل منتظراً أياماً طويلة، وليس كما يحدث عندنا في مستشفى الشماعية».

سمعه يوسف، بينما جلس متربعاً إلى جانبه.

«هل عندك السيجارة نفسها التي تدخنها دائماً؟»

اعتذر يوسف منه بهزة من رأسه، وحاول تجاهل كلامه، لأنه كان يتحدث وكأنهما يعرفان بعضهما من قبل.

«أحسن لك. التدخين يضر بالصحة، وعلى المرء المحافظة على صحته في هذه الأيام».

لا يدري يوسف ما إذا كان الشاب يمزح أم لا. لكن الرجل الشاحب الوجه، الضخم الهيئة، الذي كان متربعاً إلى جانبه، والذي يحمل وشماً غريباً على جبهته، كأنه بقايا حرق سيجارة أو ما شابه، تدخّل في الحديث.

«هذا ما قلته دائماً لجنود وحدتي. لا تدخنوا. العدو سيستدل على مواقعنا، عن طريق نيران أعقاب سجائركم. لكنهم حمقى، لم يسمعوني. ماتوا جميعاً في المعركة. بولة في شط! أعتقد كان في الأمر خيانة».

فرد عليه الشاب:

«أرجوك، انسَ موضوع الخيانة، الموضوع الآن أخطر من كل شيء، أنت مشكلتك معروفة، منذ دخولك مستشفى الأمراض العصبية، وأنت لا تريد أن تنسى».

فأجاب الرجل الضخم الهيئة باستنكار:

«كل كلامك يتضمن مشكلة عويصة، تقول بأن مشكلتي أنني لا أنسى، لكن فكر مع نفسك، خاصة وأننا قادمان من المستشفى نفسه: حتى ينسى الإنسان شيئاً، عليه في المرة الأولى أن يتذكر هذا الشيء، أن يفكر فيه، والقضية، مثل البيضة من الدجاجة أو الدجاجة من البيضة، قضية أصعب على قائد عسكري لا يقبل بالهزيمة مثلي»، ثم بدأ

يبكي مثل طفل، وأمسك يوسف من ذراعه، يتوسله أن ينظر إليه، فيما أشار بحنكه إلى كتفيه، ليرى يوسف نجمتين وتاجاً على كتافيات قميصه العسكري المتهرئ، ويضيف:

«رغم أننا على ما أعتقد نعرف بعضنا منذ زمن طويل، أقدم لك نفسي، العقيد مطلك عبدالله كريدي الجبوري، قائد السرية الأولى في الفرقة الثانية للمشاة».

ليقف بوضع الاستعداد، ثم ليعود ويجلس في مكانه السابق من جديد. حدث كل شيء بسرعة، وكأنهم على خشبة مسرح حيّ، وسط جلبة المراجعين. لبرهة فكر يوسف، ماذا لو كان هذان الاثنان هما اللذان يطاردانه منذ خروجه حتى الآن؟ طريقتهم بالحديث معه، مناداته وكأنهما يعرفانه منذ زمن طويل؛ ثم تركيزهما الحديث على موضوع النسيان؟ من أين يعرفان أنه هو الآخر يصر على النسيان؟ شعر يوسف بنفسه، كمن حوصر، لا يعرف ماذا يفعل، هل ينسحب من المكان، أم ينتظر لحظات أخرى، لكي يعرف حقيقة ما يجري، لأن ما رآه حتى الآن، لا يمنحه صورة معينة، لتكوين انطباع سريع، حتى أنه لم يلاحظ خروج صوته الذي تساءل بنبرة من الشك:

«إنها دائرة الطب العدلي، أليس كذلك؟»

فأجابه الرجل الذي قال إنه عقيد:

«نعم، لذلك أنا هنا، من أجل حماية الجثث الموجودة هنا».

وقال، وهو يسير، لحشد الناس هناك:

«وهؤلاء هم جنودي، جنود السرية الأولى من الفرقة الثانية للمشاة. ونحن هنا، لأن الحرب لم تنته بالنسبة إلينا. فمثلما بدأت بالنسبة لنا بوقت مبكر، قبل ستة عشر يوماً من موعدها الرسمي، لم تنته بالنسبة لنا بسقوط حبيبتنا العاصمة، ومن الجائز أن تستمر بالنسبة لنا سنوات أخرى. ونحن منذ ذلك اليوم، منذ أن طلبت منا القيادة الحكيمة

الانسحاب من جبهتنا في كركوك، والتحرك صوب بغداد، ونحن نقاتل، نبحث عن العدو الذي لم نلتق به حتى اليوم، رغم فقدان العديد من صفوفنا. تحركنا تحت غطاء عاصفة رملية ونجحنا في الوصول أولاً إلى شمال شرقي حبيبتنا العاصمة، وتصور، بخسائر محدودة فقط، رغم الغارات الجوية التي تعرضنا لها، وجعلتنا نشعر بالقوة الفعلية، القوة النارية الهائلة للقوات المهاجمة. وأسفر ذلك الهجوم الذي تعرضت له وحدتي المتكونة من 4000 جندي إلى مقتل 800 عسكري. ولكن ما تبقى من القوات صمد وتمكن من صد هجوم قوات مشاة العدو، قبل ثلاثة أيام من سقوط حبيبتنا العاصمة. كان العدو وما يزال خائفاً من مواجهة قواتي المتمركزة عند كل الجهات، والالتحام معها، إلا أن الدعم الجوي الذي تتمتع به القوات المعادية شجعها على الاشتباك معنا. وفي اليومين الأخيرين من المعركة سقط ما يقارب الألفين من جنودي. ثم جاءنا أمر من القيادة بتوجه قواتنا مرة أخرى إلى قاعدتها في شمال البلاد. لماذا؟ لا أحد يدري باستثناء الله والقائد، الأول خلقنا ومشى، والثاني ورّطنا وبقي! قال ارجعوا، قلنا إنّا لله وإنا إليه راجعون، ورجعنا، لكننا تعرضنا في الطريق للهجوم مرة أخرى. فرّ ما يزيد على نصف القوات المتبقية وتخلى الفارون عن زيهم العسكري وارتدوا ملابسهم المدنية وتوجهوا إلى منازلهم لحماية أعراضهم ونسائهم وبناتهم. أما بالنسبة لي، فللأسف، فقد سيطر عليّ الإحساس الغريزي بالبقاء على قيد الحياة، ومحو قواعد الانضباط العسكري لديّ».

توقف الرجل الضخم قليلاً، وقد خنقته العبرة.

فقال له الشاب مواسياً:

«سأجعلك تنسى كل شيء، عليك أن تصبر فقط. أعدك أن تنسى ان أحدهم قام بتعذيبك ذات يوم، أن تنسى أنك ستقتل أحدهم ذات يوم».

مسح الرجل مخاطه بكم قميصه، وأكمل جون أن يعير اللاإنتباه لما قاله الجندي الشاب، رفيقه:

«عندما سقطت حبيبتنا العاصمة، العاصمة الجميلة، فلذة كبدنا، أصبنا بالصدمة. المعركة انتهت إذن، قلت لنفسي. لم نعرف ما يمكن أن نفعله، ولا يستطيع الشخص أن يحكم ما إذا كان الأمر إيجابياً أم سلبياً، ثم طلبت من جنودي الأبطال والضباط الصناديد، التوجه إلى بيوتهم، والمحافظة على شرفهم هناك، وألا يتركوا نساءهم وحيدات بعد اليوم ليس من المهم أن تضيع البلاد، لكن من العار أن تضيع الفروج، وكل شيء يهون أمام الشرف، فقد قال الرسول (ص): الشرف، ثم الشرف، ثم الشرف، مثلما قال الصحابي عثمان بن أبي عفان، (رض). الفروج، ثم الفروج، ثم الفروج. ما زلت أتذكر ذلك اليوم ويصيبني الخزي، عندما طلبت من سائق عسكري من أهل الجنوب أن يوصلني إلى بيتي في الحويجة. ماذا سيقول عني هذا الشروكي؟ جبان؟ وبمجرد أن وصلت إلى منزلي، خلعت الزيّ العسكري وتوجهت إلى غرفة نومي، وبقيت في المنزل لمدة سبعة أيام، إذ سيطر عليّ شعور بالصدمة إزاء كل ما حدث».

سكت، وأحنى رأسه، وكأنه يشعر بالعار فعلاً. والشاب المقطوع الأذنين، يربت على كتفه، ويقول له:

«سأجعلك تنسى، لا تقلق. انسَ قصة تعذيبك».

يرفع الرجل الضخم رأسه قليلاً، ويلمس يد الشاب برقة.

«شكراً يا علي، أنت جندي مطيع. أعرف».

ثم التفت إلى يوسف:

«دائماً مطيع. سبع. رغم أنه شروكي. تصور أسبوع وأنا في غرفة النوم، كلما اشتهيت امرأتي، انتصبت أمامي صورته، قبل أن ينتصب

ذَكَري، فأفشل، أفكر ماذا سيقول عني، وماذا سيحدث؟ لكن ما إن غادرت البيت، حتى وجدته على جلسته التي تركته فيها، في سيارة الجيب عند باب البيت. سبعة أيام ينتظرني ليقول لي: لنذهب إلى بغداد ونقاتل العدو. وكما ترى، نحن هنا. جمعنا قواتنا. والبقية سنجدهم في عنابر الجثث. سنسجل المتطوعين منهم. ماذا عنك؟ فكما يبدو أنك مقدم على فعل خطير؟ لا تقل لي إنك تفكر في الهروب من الجيش؟».

وقبل أن يتفوه يوسف بكلمة واحدة، علّق الشاب المقطوع الأذنين:

«اتركه سيادة العقيد الآن، كل شيء بالدور. سيأتي دوره، وسيعرف القصة. ولكن، عندما يعرف من هو الجلاد ومن هو الضحية، يكون الوقت قد تأخر، وسيتحول إلى مقيم دائم هنا، في عنبر الجثث!»

ثم أكمل كلامه، وكأن حديث الرجل الضخم لا يخصه:

«الكل هنا يريدون التأكد من أسماء موتاهم، بعضهم، ومنذ سنوات، مشكلتهم ليس أنهم لا يعرفون مصير موتاهم، إنما أنهم لا يريدون أن ينسوا، وأنا هنا في الحقيقة، من أجل تشجيع الجميع على النسيان. سأجمع أسماء الموتى أولاً، وسنقود أنا والعقيد الجيش هذه المرة في آخر حرب مقدسة: أم المعارك ضد النسيان».

ثم التفت فجأة يميناً ويساراً، وأخرج صندوقاً صغيراً. قرّب الصندوق أمام عينيّ يوسف، فتحه وأغلقه بسرعة، حتى رأى يوسف بالكاد جهازاً صغيراً يشبه راديو الترانزستور، وإلى جانبيه قطعتين جافتين تشبهان قطعتي جلد حذاء يابس. استمر الشاب يداعب بيديه الصندوق، بينما راح يتكلم وعيناه تحدقان في البعيد:

«أعتقد أن العقيد صالح لمس لب القضية. لاعب كرة القدم، الذي أخطأ في ضربة الجزاء، لن ينسى طوال حياته توجيهه للضربة باتجاه العارضة، وسيظل طوال حياته يتذكر العارضة، والرجل الوحيد،

المتروك في بيته، لن ينسى الكلمات التي أطلقها لسانه والتي جعلت الزوجة تهجره وتغادر البيت، رغم أن هذه أمور صغيرة قياساً لمشاكل أكبر: الجندي الهارب المقطوع الأذنين، سيظل يتذكر أذنيه، ويكفي أن تُغتصب فتاة مرة واحدة حتى تظل طوال حياتها تتذكر ذلك، أما الطفل الذي رأى بؤبؤ عيني قاتل أبيه، فسيواجهه لون هذا البؤبؤ، أينما ذهب، والضحية التي خضعت للتعذيب، لن تنسى كلمات التوسل التي تفوهت بها أمام الجلاد. هؤلاء جميعاً يقولون دائماً: أتذكر الأشياء التي أريد نسيانها وأنسى الأشياء التي أريد تذكرها».

فعلق العقيد، مستهزئاً:

«العقيد الذي فرّ جنوده، لن ينسى أشكالهم. أفكر باللي ناسيني وانسى اللي فاكرني، يعيش اللواء الركن محمد عبد الوهاب، زعيم الطرب االعربي وقائد قواتنا البطلة في معركتنا التي لم تحدث. والبشرية غير قابلة للإنقاذ».

لكن الشاب كما يبدو، لم يعر لكلامه اهتماماً، إذ تابع حديثه، بينما ظل يداعب صندوقه.

فسأل يوسف:

«هل تريد حضرتك أن تنسى أيضاً، تنسى ما ألحقته من إثم بالآخرين؟»

فتدخّل الرجل الضخم الهيئة:

«هذه المرة أنت على خطأ، يا ولدي. إنه بحاجة للتذكير. حضرة الأخ كما يبدو على وجهه، نسي ما فيه الكفاية. حان الوقت لجعله يتذكر».

فعلق الشاب، ولم يعرف يوسف ما إذا جاء كلامه تعليقاً على كلام العقيد، أم تكملة لجملته السابقة:

«الحل عندي. سأنقذك من الموت عن طريق هذا الجهاز الصغير، الذي أعمل عليه منذ سنوات طويلة، وبشكل سري، سأساعد الناس على حل المشكلة. هذا الجهاز سيقوم بمحو ذلك الجزء من الذاكرة الذي يحتوي على كل الذكريات التعيسة، يفرغ الكيس العصبي هناك، الجرارة العصبية من محتوياتها، ثم يرميها في الزبالة، في القمامة، في الحياة».

فقاطعه الرجل الضخم الهيئة:

«وماذا إذا حدث العكس ومحوت الجزء الذي يحتوي على الجيد من الذكريات، ذكرياتنا السعيدة، كما فعلت القوات الغازية، عندما استخدمت أجهزة الليزر وجعلت ليس جنودي فقط وأفراد جيشنا الباسل، إنما عموم الشعب، ينسون كل الذكريات السعيدة التي ملكناها حتى 9 أبريل 2003، جعلت الجنود لا يستدلون طريقهم الذي جاءوا منه، لكي يؤمنوا طريق هروبهم؟»

فاستنكر الشاب بانزعاج:

«وهل تتهمني بالخيانة؟ كيف أفعل ذلك؟ أنا أريد سعادة شعبي. ومقتنع بالقضية».

ثم التفت إلى يوسف، وكأنه يطلب النجدة منه:

«في الحقيقة، أنا مهنتي أصلاً، مضمد بيطري، ازرق إبر للحيوانات، وأعرف هذا من خبرتي مع الحيوانات. ومية بالمية راح تنجح العملية. وإذا نجحت العملية بعزل الذكريات الحلوة عن الذكريات المرة، الذكريات المخزونة هناك، أجعل كل البشرية تنام سعيدة. لأن عن هذا الطريق تتحول صفحة الذكريات بالمخ إلى صفحة بيضاء، فارغة، للأبد. وكلما دخلت فيها ذكريات تعيسة جديدة، تتعرض لصدمة كهربائية من هذا الجهاز، كل ثانية، صدمة كهربائية، صدمات غير قوية،

حتى يسترخي الواحد وينام، دون مشاكل، لأن مع انتهاء الذكريات ينتهي الألم».

ثم التفت إلى يوسف:

«ألا تتفق معي، لا ذكريات. لا ألم».

ثم التفت إلى الرجل الضخم البنية، وقال له، وهو يمد يده إليه ليساعده على النهوض:

«تفضل عقيد صالح، لنقنع أخانا لكي يأتي وينضم إلينا في المعركة».

نهض الرجل الضخم من مكانه. في تلك اللحظة رأى يوسف أنه هو الآخر، يحمل صندوقاً معه، كان أخفاه عند طرف دشداشته، وشده إليها بحبل صغير، لكنه صندوق أكبر حجماً من صندوق يوسف. ثم رأى يوسف بصورة خاطفة الكلمات التي خُطت على الصندوق، «صندوق الآذان المقطوعة وملحقاتها».

وقبل أن يغادرا، نظر الرجل الضخم الهيئة:

«لو كنا يابانيين لفعلنا كما فعلوا بعد اندحارهم في نهاية الحرب العالمية الثانية، وانتحرنا. ولكننا مسلمين. ديننا والقائد لا يسمحان لنا بذلك. لذلك نضطر لقطع آذان المنهزمين. لكن لا تقلق. سننتصر ومعركتنا مستمرة. والأذن عبء علينا، في مسيرتنا الخالدة في معركتنا المقدسة».

التفت الشاب فجأة إلى يوسف، وخاطبه:

«أنصحك بالذهاب، لأنك يمكن أن تقف هنا سنوات، ثم إذا كانت هناك جثة مجهولة، إما يرمونها في القمامة، أو يبلغون ذوي الميت، وتذكر أن ما تستطيع أن تهرب منه سيلاحقك ما دمت على قيد الحياة».

لم يفهم يوسف ماذا يعني، لكنه سمعه يكمل وكأنه تذكر شيئاً، بينما راح يجر زميله:

«تذكر كلامي: عليك قبل أن تتذكر، أن تنسى أولاً، مثلما عليك قبل أن تنسى، أن تتذكر أولاً. ولا يحل المشكلة أحد، لأن الله تركنا وهاجر للصين، كما نفدت منا حبوب عراق مجاناً، ولا أحد يتحمل الأسبرين، وإذا كنت في حاجة لنا، تجدنا في الحانة، في حانة. . . .تعرف اسمها، وستكون فرصتك الأخيرة لكي. . .».

ولم يأت الشاب على نهاية الجملة، لأن الرجل الذي معه نادى بصوت أعلى:

«منو عنده ذكريات للبيع؟»

تذكر جملة شبيهة، كانت تُردد في الأزقة، عندما كان يدور باعة القناني، ينادون ربات البيوت ما إذا كان عندهن زجاجات للبيع. كانوا يبيعونها لاحقاً في المستشفيات، لكي يستخدمها المراجعون في تعبئة الأدوية هناك.

فكر يوسف، انه يتذكر هذين الوجهين بطريقة ما؟ لكن أين رآهما من قبل، وهما يقولان إنهما قادمان من مستشفى الأمراض العصبية؟ هل يمكن أن يكون هذان الرجلان هما مَن يتبع خطواته طوال هذا الوقت؟ هل هما اللذان يطاردناه؟ عن أية حانة يتحدثان؟ ولماذا يذكران قصة التعذيب، قصة الجلاد والضحية؟ رآهما يختفيان في الممر، وكأنهما تنازلا عن الوجود هناك، وكأنهما يمحوان نفسيهما، وكأنهما يلقنانه الدرس الأول لهذا اليوم: لا ذكريات، لا ألم، لينساهما أيضاً. ولكن ماذا عن ذكريات الحشد الذي ما زال يقف هناك؟ ماذا عن ذكرياته هو ذاته؟ متى يستطيع الإنسان أن يقول لنفسه: ها أنا أتذكر. ومتى يستطيع أن يقول لنفسه بالمقابل: ها أنا أنسى. وهو الآن، في لحظة وقوفه في

ممر عنبر الجثث، في مدينة الطب، في مدينة بغداد، هل يتذكر، أم ينسى؛ هل ينسى أنه يتذكر، أم يتذكر أنه ينسى؟ وهل يتذكر أو ينسى بصفته يوسف، أم بصفته، الآخر الذي صُنع منه يوسف؟ وماذا عن الجثة التي يُفترض أنها ترقد هناك، هل هي جثة أخيه، أم جثته، أم جثة لشخص ثالث: اسمه يوسف؟ وإذا كانت جثة يوسف، أين جثته، فكيف يمكن أن يكون ميتاً، وهو يشعر بثقله، وهو واقف هناك؟ لكن الثقل لا يقول شيئاً، أليس ثقل الجثث يفوق كل تصور؟ ولكن، لكي يكون الإنسان، ميتاً بالفعل، عليه أن يكون فاقداً لكل حس. وهو لا يعتقد بأنه فقد حواسه، ما زال يسمع ويشم ويرى ويتذوق ويلمس. ولكن ماذا يسمع، ماذا يشم، ماذا يرى، ماذا يتذوق، وماذا يلمس؟ إذ كلما تطلع حوله، وراجع ما عاشه وفعله كل هذه السنوات الماضية، وحتى هذه اللحظات، يصل إلى قناعة لا يستطيع الحياد عنها، بأنه لا يسمع غير أصوات الموتى، لا يشم غير رائحة الجثث واللحم المحترق والهواء الملوث بغاز الايتان وغاز الخردل، ولا يتذوق غير طعم مر يفوق الموت بمرارته، ولا يلمس غير أجساد محتضرة، جثث تسد عليه الطريق، ليس اليوم هنا فقط، في دائرة الطب العدلي، في مدينة الطب، في بغداد، ولكن قبل ذلك، في كل الدوائر الرسمية التي عمل فيها، في بغداد أو في مدن أخرى. كانت الوحدة تطارده، ولم يشعر يوماً بالموت بعيداً عنه، على العكس، كان يقترب مع بداية كل نهار جديد، كلما خرج رجال الشرطة السرية لاعتقال ضحاياهم، من دون سبب وبلا رحمة، إنما كانوا يعتقلون يوسف ويقتلونه. هناك كان وحيداً، يقف بمواجهة الموت، وهنا أيضاً. هناك، كلما رأى موظفاً جديداً، يجلس قبالته في الغرفة، يبدأ يمرن نفسه على نسيانه، وقبل أن يتعرف عليه. لعبة لتجنب الموت. والآن، ماذا يفعل؟ يسير للموت بنفسه. تلك هي القضية، فلكي يكون المرء شخصاً آخر، عليه أن يستنفد كل قواه، حتى

الموت. فقط عندما يتأكد من موت الآخر، من رؤية الجثة المُفترضة، جثة يوسف، يمكن ليوسف أن يقول لنفسه، ها أنا تحولت، أصبحت أنا، كما أريد.

صحا يوسف فجأة، من شبه إغفاءة، عندما سمع لغطاً وجلبة مفاجئة. تطلع حوله، فرأى رجلاً، وضع نظارات داكنة اللون، حاول عبثاً أن يبدو أنيقاً. جاء الرجل من جهة مدخل الممر، يحمل في إحدى يديه مجموعة من الملفات، وفي اليد الأخرى كيساً بلاستيكياً، ارتسمت عليه الدعاية المعروفة، لسجائر مارلبورو. رأى الرجل الضخم والشاب الشاحب، يهرولان هما الآخران ، لكن بخطوات بعيدة بعض الشيء عن الموظف. بدا الموظف مستعجلاً، وكأنه يهرب من ثلاثة صبية التصقوا به تقريباً. اثنان منهما من الأطفال الذين جلسوا في ممر مدينة الطب، أمام قطع من الكارتون، والثالث من أصحاب الجينيراتور. رأى يوسف الصبيين يندفعان، أحدهما أمام الموظف، والثاني خلفه، بينما راحا يحركان قطعتي الكارتون بأيديهم مثل مروحة، أما الثالث فراح يدفع الماكنة المتوسطة الحجم، والتي بدت له ثقيلة، لدرجة تعثره بها، وانحرافها عنه، حتى لامست قدمي يوسف. كان على يوسف التصرف في تلك اللحظة، أن يعرض مساعدته على الصبي ويدفع معه العربة، بيده التي لا تحمل الحقيبة، حتى يدخل معه. ويشق طريقه بسهولة، وسط حشد جمهور المراجعين، وصياحهم، والذين بدوا، وكأنهم صحوا جميعهم من نوم عميق، وراحوا يهرولون خلف الموظف، الذي سار سريعاً وكأنه يركض، أو يهرب، وهو يدفع أيديهم التي امتدت نحوه، تطالب بالنجدة، قبل أن يصل إلى نهاية الممر، ويقف أمام باب ضخم.

رأى بالكاد، من وسط الحشد، الموظف يفتح تلك البوابة الضخمة، فسمع الشاب المقطوع الأذن من جديد، قبل أن يضيع وسط الحشد مرة أخرى، يقول:

«عنبر الموتى». ثم ركض مع زميله باتجاه البوابة.

طلب الموظف من الناس أن يدخلوا، ثم غادر المكان، ودخل إلى غرفته المجاورة للبوابة.

يحتاج المرء إلى لحظات صدفة من هذا النوع لكي يشكل مجرى يومه، ومسار قصة حياته التي يشكلها يومياً. قال يوسف لنفسه. الحياة، سلسلة من المصادفات وحسب. فحتى لحظة قريبة، لم يعتقد أنه سيجد نفسه في الغرفة، أمام الموظف.

جلس الموظف. كان رجلاً كبيراً في السن. ووقف الصبيان، أحدهما إلى اليمين والثاني إلى اليسار، يحركان قطعتي الكارتون. بينما شغل الصبي الآخر نفسه، بتهيئة تشغيل جهاز الجينيراتور. التفت الموظف إلى يوسف، وسأله:

«تفضل، فكما يبدو على وجهك أنت تأتي للمرة الأولى».

تطلع يوسف بكيس النايلون الذي وضعه الرجل على الطاولة، وفكر أن يسأل بطريقة معقولة، لا تثير الشبهات، وتجعل من يستمع إليه، يظنه مجنوناً. حاول جمع قواه، وقال:

«جئت أسأل عن جثة مجهولة سُلمت إليكم».

سأل يوسف بصوت مرتبك، دون أن يترك الحقيبة تستقر على الأرض. حرك الموظف نظارتيه قليلاً، إلى الأعلى ثم إلى الأسفل، وبدا مضحكاً بعض الشيء، إذ ربما، فكر في حينه، أنه يمثل في أحد الأفلام البوليسية. وقال بنبرة لا تخلو من السخرية:

«جثة مجهولة؟ وكأننا نستلم يومياً جثثاً معروفة. ماذا تعتقد يا أستاذ، لماذا يأتي كل هؤلاء الناس؟»

ثم وقف وبدا وكأنه ينتظر الحديث منذ زمن طويل، وكأنه يلقي خطبة أو يملي كلاماً على أحد، بينما راح يسير في الغرفة ذهاباً وإياباً:

«كل واحد يضع الكلمة بفم الثاني. مثل الفيروس، كل شيء يعدي، الحياة تعدي والموت يعدي، الذكريات تعدي والنسيان يعدي. الفرح يعدي والحزن يعدي. كل شيء يعدي. حتى الإرهاب، والقتل، جارك يقتل، تقول لنفسك لماذا لا أقتل أنا، جارك يموت، تقول، لماذا لا أموت أنا أيضاً. والمشكلة في هذه البلاد، لا يقول جارك مثلاً: أفرح، أو أعرَس، كلا، في هذه البلاد، هناك دائماً جيران جاهزون لكل النكبات. وهكذا دواليك، جاري يا جاري، أو يا جارة الوادي، أو كما أوصى نبي هذه الأمة التعيسة، بسابع جار. هلم جرا، كما يحلو أن يقول فطاحل هذه الأمة. كل شيء هلم جرا، وكل شيء يعدي. وربما ذلك هو ما يجعل حشد البشر هؤلاء، يأتون إلى هنا، أفواجاً كبيرة، يدخلون ويخرجون كما يشاؤون، يقلبون الأوراق، ويعاينون الجثث. ولا يكتفون بجثة واحدة، يعاينون كل الجثث، وكأنهم لا يبحثون عن جثث أقربائهم، إنما عن جثث العشيرة كلها. ويعودون في اليوم التالي، يعاودون عملهم من جديد، يدورون في صالات الجثث، مثل لاعبي القمار، فقط الخاسرون يعودون للعب ثانية، يدورون حول طاولة الروليت، تجمعهم مائدة يأس واحدة، ولكن هنا في دائرة الطب العدلي لا يأتي إلا الخسران، وإذا كان الفائزون لا يعودون إلى صالات القمار، أو إذا عادوا، فمن أجل التبختر هناك مثل الطواويس، والتبجح بأنهم فازوا، فهنا، لا يريد حتى من يجد ما يبحث عنه، أن يصدق ما عثر عليه، الجميع خاسرون. وحتى عندما يعثرون على جثة المفقود، يدعون أن ملامح الميت تختلف عن الملامح التي يعرفونها عنه، ولا يدرون أن الموتى لا يشبهون الأحياء، مثلما لا يشبه الأحياء الموتى. وربما يُعتبر أولئك الذين يعودون كل يوم، أكثر حظاً، لأنهم بهذه الطريقة يؤجلون أحزانهم، يأملون أن يعود الغائب، أو يجد الضائع نفسه، أو أن يحيا الميت. كل شيء يعدي. الذكريات تعدي والنسيان يعدي، حتى أن

نصف هؤلاء قادمون من مستشفى المجانين، وأقول لك، إذا استمر الوضع على هذه الحال، فسأنتهي أنا الآخر إلى مستشفى المجانين، إلى الشماعية. لأن المشكلة هي، ما عاد أحد يدري في هذه البلاد، هل الأحياء يبحثون عن الموتى، أم الموتى يبحثون عن الأحياء؟ أو، ربما من الأفضل التساؤل: من هم الموتى، ومن هم الأحياء؟»

ثم مد يده في الكيس، وأخرج منه جسماً أسود، عرف يوسف أنه جهاز تلفون، نقال.

«البيع والشراء أيضاً يعدي. قبل سنوات كان نصف هذا الشعب يبيعون البقصم. هل رأيت البقصم في حياتك، اليوم يبيعون صحون الستالايت والموز والتلفونات النقالة؟»

سكت لبرهة، ثم أكمل:

«قبل أن تقول لي بأنك بائعاً جوالاً، كما تدل الحقيبة التي تحملها معك، والتي كما يبدو حريصاً ألا تهدها من يدك، لما تحويه من بضاعة ثمينة. هل تريد شراء جهاز تلفون نقال، بعده بالكاغد؟ فرصة ثمينة لا تضيعها»

هكذا سأل الرجل، وهو يعرض التلفون من مكانه.

بدا يوسف في تلك اللحظة حائراً بالفعل، ولا يعرف ماذا يجيب، لكنه تذكر فجأة، أن يسأل الرجل:

«منذ متى وعندنا شبكة التلفون النقال؟»

رمى الرجل التلفون على المنضدة. ثم تطلع إلى يوسف من خلف نظارتيه، وقال بنفاد صبر:

«هل أنت من أهل الكهف؟ أين كنت كل هذه الفترة؟»

فأجاب يوسف، وكأنه متأكد من جوابه، بل وكأنه على يقين مما يقوله:

«كنت أبحث عن جثة قريب لي طوال كل هذه الفترة، إذا سمينا هذا الوقت بالفترة».

«أنت الآخر أصابتك العدوى. ما هي درجة القرابة؟»

سأل الرجل بذات النبرة.

«من الدرجة الأولى»

«وما هو اسمه؟»

سأل الرجل، ثم نهض وتوجه إلى دولاب قريب، وكأنه لا يهمه سماع جواب على سؤاله، أو كأن الاسم لا يعنيه أبداً. حمل سجلاً كبيراً، نفخ من عليه الغبار، وعلق:

«هذا السجل القديم الوحيد، السجلات الجديدة، في عنبر الجثث عند الباقين».

وضع السجل على الطاولة، وسأل مرة أخرى:

«ماذا قلت كان اسمه؟»».

«يوسف؟» علق الرجل، «هناك الآلاف من يوسف، أريد الاسم الكامل».

وراح يقلب الأوراق بسرعة. ثم توقفت يده فجأة، في وسط إحدى الصفحات. رفع بصره، وأبقى على يده هناك.

«هل قلت يوسف؟ هنا في السجل، تعال أنظر».

اقترب يوسف من السجل، انحنى ليتأكد من كلام الموظف، بينما لم تترك يده الحقيبة. فقرأ أسمه هناك، في وسط الصفحة، مع ملاحظة صغيرة، مكتوبة بالقلم الأحمر:

«الجثة نُقلت مباشرة للمقبرة».

فسأله يوسف بشيء من الارتباك:

«لا أدري ما إذا كانت جثة من أبحث عنه. يوسف ماني. أنت تعرف هناك الآلاف من هذا الاسم».

«أنت الآخر لا تريد أن تصدق، وتريد أن تعود مثلهم، ألم أقل لك، كل شيء يعدي. حتى أنت، ولا ينفع، انك تبدو مثقفاً مختلفاً عن الباقين»

قال الرجل ليوسف، ثم التفت للصبيين، وصاح بهما:

«لماذا توقفتما عن تحريك الكارتون؟»

فأجابه الشاب، الذي كان حتى تلك اللحظة منهمكاً بتشغيل المولدة الكهربائية:

«الكهرباء جاهزة، شغل المروحة».

نهض الموظف، وضغط على الزر الكهربائي. فبدأت المروحة بالعمل. عاين يوسف هذه المرة بدقة، ثم ضرب على رأسه بحافة كفه، وقال، وكأنه تذكر شيئاً مفاجئاً:

«تذكرت، قبل أسبوع، جاء شخص يشبه حضرتك تماماً، واضح عليه أنه من أصحاب النفوذ في الحكم الجديد، جلب جثة، حرر شهادة الوفاة بسرعة، وقال إنه سيذهب بنفسه لدفنها في المقبرة. مقبرة أبي غريب. ثم أتذكر أنه قال، المسكين، يتيم، ليس لديه غير خالة تسكن وحيدة في الكاظمية، ستموت من الحزن، عندما أعلمها بالخبر».

صفن يوسف طويلاً. وقبل أن يتفوه بشيء، قال له الموظف:

« غريب، كما يبدو أنت الآخر لا تريد أن تصدق، أنك عثرت على الجثة، وتريد أن تعود مثلهم، لأن عندك صورة في رأسك، صورة للموتى لا تختلف عن الصور الأخرى. ألم اقل لك، كل شيء يعدي. حتى أنت، قلت لنفسي، لا يمكن أن تكون مثلهم، وتبدو مثقفاً مختلفاً عن الباقين القادمين من الشماعية. لكن سامحني أقول لك، وأطلب

منك، أن تأخذ الحذر، لأن كل شيء يعدي، حتى الجنون. فيروس، يعني، فيروس محلي قاتل، أقوى من كل أسلحة الدمار الشامل».

ثم وكأنه تذكر شيئاً فجأة، سأل:

«قل لي، هم لقوها، لو بعدهم، أقصد أسلحة الدمار الشامل؟»

لم يجبه يوسف. لم يقل شيئاً، إنما انسل من المكان ببطء، وسمع تعليقات لا يدري ما إذا كانت لها علاقة به، أم بالصبيين، اللذين كما يبدو، انتهت مهمتهما، بعد تشغيل الجينيراتور، واللذين خرجا وراءه.

قبل أن يدفع يوسف باب البناية ويغادر الممر، سمع الصبيين يقولان له، بصوت لاهث، وكأنهما كانا يركضان للحاق بيوسف:

«عمو، لا تصدق قصة المقبرة. هذا الكلام يقوله للجميع».

وقبل أن يسألهما، رآهما يتوجهان للناس، يسألونهم عما إذا كانوا بحاجة إلى الهواء.

فكر يوسف، إذن، كان الرجل على حق: كل شيء قابل لنقل العدوى، مثل الهواء، الذي ينتقل عبر تحريك الصبيين لقطعتي الكارتون. ومن يروي يفعل الشيء ذاته، ينقل عدوى ما يرويه لمستمعيه، حتى يصبح من الممكن جداً أن نقتنع بكل شيء، بأن هناك عذراً وسبباً معقولاً لكل شيء، خاصة إذا روى المرء، بطريقة مصحوبة بشعور يثير الحماس وراءه أو بطريقة مصحوبة بشعور يثير الحزن، من أجل جلب التضامن، كما فعل الرجل الضخم الهيئة والشاب الشاحب. كم عدد القصص التي يسمعها المرء يومياً، وخاصة إذا منحها المرء أذناً صاغية، كما فعل يوسف؛ كم عدد القصص التي نرويها يومياً؟ الهواء معبأ بالقصص. وعلى المرء ترتيب هذه القصص وحسب، مثل شخص يرتب الكتب على مدرج المكتبة: كتاباً فوق كتاب، كتاباً إلى جانب كتاب؛ وقصة إلى جانب قصة. أية قصة على المرء تصديقها، وأية قصة

عليه إهمالها؟ وماذا عن القصص التي رواها ويرويها يوسف؟ سنوات طويلة، كان هو الذي يروي القصص، ويستبدل الأسماء: أسماءه والأسماء الأخرى. والآن، أو ربما منذ أن بدأ الصوت يزوره، ويحذره من قيام الساعة، يسأل يوسف نفسه عما إذا كان ما رواه، أو ما أراد أن يرويه، ولم يستطع أن يرويه، كان حقيقة لم يملكها في أغلب الأحيان، حقيقة اعتقد بأنه يملكها لحظة القص فقط، أو أنه حاول إقناع المستمع بأن كل ما يرويه هو حقيقة جرت بالفعل، لأنه هو ذاته، يروي بتلك القناعة التي تختفي وراء شعوره بالحماس للذهاب بقناعته قدماً، رغم أن الهواء الذي تحمله القصة التي يرويها، هواء تختلط فيه الـ«نعم»، مع الـ«لا»، مع الـ«ربما».

يعرف يوسف أن ليس هناك شخص يرتكب شيئاً، يعتقد بأنه يقوم بممارسة غير عادلة، وعلى الأقل ليس في لحظة ارتكابه للفعل، والشيء نفسه يحدث مع رواية قصة ما، وتصويره كما لو كان أمراً غريباً أو واجباً، ما دام الأمر لم يُكتشف، أو ما دام لا أحد يعرف هل حدث أم لا. هل كان كل ما رواه يوسف في سنوات حياته الست والأربعين، تزويراً، وهل ما رواه الرجل الضخم الجثة والشاب النحيف تزويراً أيضاً؟ ومن أجل أن يزوّر المرء، عليه أن يملك شيئاً أصلياً، أساساً يعتمد عليه. جوزيف كرملي، أو جوزيف ك، كان يدعي العكس، يقول إنه لا يطلق على الأوراق الثبوتية التي يصنعها «الأوراق المزورة»، إنما على العكس، يعتبر أوراقه أصلية، والأوراق التي تمنحها الدولة مزورة، هكذا قال له، عندما جاء إليه للمرة الأولى من طرف العم عاصم، يسأله عن عمل هوية جديدة له.

إذن التزوير أو الحقيقة، الصدق أو الكذب، الاكتشاف أو الاختراع، النكران أو الاعتراف، العفو أو العقاب، الذاكرة أو النسيان، هي أمور لها علاقة بالمكان الذي يجلس عليه المرء، ومن أية زاوية ينظر

إلى الأشياء. مثلما يفعل الناس هنا، في مدينة الطب، في دائرة الطب العدلي. كل واحد منهم يروي القصة التي تناسبه.

عندما وجد نفسه مرة أخرى في الشارع، وفي يده الحقيبة، توقف لحظة ليفكر في الأمر، خاصة وأنه ظن في طريق خروجه بأنه سيستأجر سيارة تاكسي ويذهب إلى مقبرة أبي غريب، إلا أنه وجد هذه الفكرة سخيفة، فمن العبث أن يذهب إلى هناك، خاصة وأنه سمع بالقصص التي تدور عن القبور التي اكتُشفت هناك. مئات القبور، وآلاف الموتى، الذين لا يحملون أسماء. الجميع يسألون حفار القبور هناك عن أبنائهم، رغم أنهم يعرفون بأن القبور تحمل أرقاماً وحسب، ليس هناك سجلات. هل عليه أن يفعل مثلهم، ومن يضمن أن الرجل سيعرف أين دُفنت جثة أخيه؟ فكر في تأجيل الفكرة، والذهاب بدل ذلك باتجاه شارع الرشيد والبحث عن محل جوزيف كرملي أوجوزيف ك (هذا إذا كان ما يزال هناك)، ليطلب منه استعادة هويته القديمة التي تركها هناك في آخر زيارة له، قبل سنوات، أو أن يطلب منه عمل هوية جديدة له، باسم جديد، لم لا؟ باسم جديد وينتهي من القضية تماماً، أو يذهب مباشرة إلى بيتهم القديم، ويستفسر من خالته ما إذا كانت في حوزتها شهادة وفاة تخص أخيه. ولأنه لم يحسم الأمر بسهولة، وضع الحقيبة على الأرض لبرهة قصيرة، ثم أخرج قطعة معدنية ورماها، ليعرف أين يذهب أولاً. لكن عندما سقطت القطعة على الأرض، لم يرفعها، لأنه في اللحظة التي بدأ فيها بالانحناء ليرفع قطعة المعدن من الأرض، رأى عند الجهة الأخرى من الشارع، حيث يجب أن تكون بوابة وزارة الدفاع الضخمة، امرأة عجوزاً تلبس حجاباً على رأسها، وقفت هناك، لا يدل وجهها على أنها شحاذة، تتكلم بصوت عال، ليس مع المارة، لكن مع نفسها وحسب. كان بودّه عبور الشارع والتأكد مما إذا كانت العجوز موجودة فعلاً، أم أنه يتخيل وجودها، لكنه أيقن استحالة فعل ذلك،

بسبب الحواجز التي وضعها الجيش على رصيف الشارع، والتي تمنع الوصول إلى هناك، حيث جلس بعض الجنود في دباباتهم مهيئين للرمي. وقفت مجنزرات عديدة هناك، توزعت في أماكن مختلفة، بينما ظلت عيناه تريان العجوز تقف هناك. منذ سنوات طويلة لم تطأ رجله هذا المكان، ولا يدري ما إذا كانت بناية وزارة الدفاع ما تزال على حالها أم انتقلت إلى مكان آخر.

رفع يوسف الحقيبة وسار ببطء باتجاه الجسر. كل شيء يعدي، قال لنفسه، النسيان والذكريات. هل يمكن أن تكون العجوز قد حصلت على استثناء يسمح لها بالوقوف هناك؟ ربما لأنها لم تملك مكاناً آخر تقف عنده أو تلجأ إليه؟ هل من الممكن أن تكون ظلت محافظة على وقفتها تلك طوال هذه السنوات. قبل عشرين عاماً وثلاثة أشهر، رآها تقف عند المكان ذاته. في ذلك الوقت، في صباح يوم الأربعاء، 2 فبراير 1984، جاء من الجهة المعاكسة، من جهة الشواكة. صحيح أنه كان يحمل اسماً آخر، لكن ذلك لم يعفه من التعرض للمخاطر. في ذلك اليوم نزل الجسر مع ستة جنود آخرين. «العظماء السبعة»، كما أطلقوا هم لاحقاً على أنفسهم، أو «خفر قاعة»، كما أطلق عليهم في الكتيبة، لأن ضابط أمن الكتيبة، الذي فشل في إقناعهم بالدخول إلى الحزب الحاكم، حرم عليهم التدرب على السلاح أو حمله مثل بقية جنود الكتيبة، كما منعهم من القيام بواجب حراسة المنشآت العسكرية، فقط: حراسة قاعات النوم، وخاصة بما يتعلق به، لأن الملف الذي جاء باسم «هارون والي»، صديقه الروائي الهارب من مديرية أمن مدينته، يقول إنه «معارض خطير». كان وقت الغذاء، وكانوا أكلوا للتو في مطعم عند ساحة الشهداء، وكان يقودهم عريف نحيف، عريف دحام، قال لهم «اشبعوا»، وكأنه عرف أنهم سيجوعون هناك، عندما تُغلق عليهم أبواب سجن مديرية الاستخبارات العامة. وقفت العجوز هناك،

ليس بعيداً عن بوابة مبنى وزارة الدفاع، وعندما دخلوا، ظل يوسف يلتفت للوراء، ينظر للعجوز، مثلما يفعل الآن، لكن الفارق أنه يسير الآن إلى الجهة المعاكسة.

كل شيء يعدي، حتى الذكريات. الآن يتذكر يوسف، لم تكن العجوز في ذلك اليوم الشتوي البارد، تقف وحدها. كانت هناك طفلة صغيرة إلى جانبها، أمسكت الطفلة بيدها، ومالت بجذعها إلى اليمين، لكي تلاحقهم بنظراتها. لم ينتبه لها في البداية، لكنه فجأة تعرف عليها، إنها البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء. وعندما أراد أن يتأكد من ظنونه، كانت البوابة الضخمة لوزارة الدفاع قد أُغلقت وراءهم، ومن هناك رأى البنت التي لبست بلوزة متهرئة، زرقاء اللون، تقف منحنية تتطلع به، وكأنها تريد تذكيره بها، كأنها تقول له كلمة الوداع من جديد. في تلك اللحظة شعر بحرارة الدموع تبلل وجنتيه.

ستة أسابيع، في داخل الزنزانة، وفي كل يوم، في التعذيب، أو قبل النوم الذي لا يختلف عن التعذيب كثيراً، واظبت نظرات البنت على زيارته. حاول مرات عديدة إعادة تشكيل الوجه، وكان يسرح ويسرح، بعيداً، بعيداً، عن زملائه الستة، المعتقلين مثله، عن الزنزانة الصغيرة التي كانت مساحتها لا تزيد على 20 متراً مربعاً، ونزلائها الستين. يشكل وجه الفتاة، فيتذكر وجه البنت الصغيرة ذات الجدائل الشقراء والعينين الخضراوين والفانيلة الزرقاء، التي ماتت وهي صغيرة، البنت التي قدم لها بيديه كعكة الموت. ستة أسابيع، وصورة البنت الصغيرة، ملتصقة بذاكرته، والتي بدونها ربما ما كان يستطيع تحمّل التعذيب اليومي وقذارة السجن وصراخ المعتقلين وبكائهم. ولا شتائم الجلادين، خاصة عندما يكونون مخمورين. ولا صوت دفوف وطبول ودبكات الفرقة القومية للرقص الشعبي، التي كانت تصلهم، قادمة من قاعة الشعب المجاورة،

عبر نافذة صغيرة في أعلى الجدار، قريباً من السقف. ولا صوت المؤذن، القادم من جامع وزارة الدفاع الصغير، الذي شكل جزءاً من معتقل سجن الاستخبارات العسكرية وأخفاه من الخارج، وهو يعلن خمس مرات في اليوم: «الله أكبر، أشهد أن لا الله إلا الله».

وجه البنت الذي كان يصاحبه كل يوم، ويجعله أكثر يأساً، وكأنهم لا يعذبونه بما فيه الكفاية، أو كأنه يقول لهم، لا ضير، ها أنا أسدد الثَّمَن. لكن ذلك لا يوقف غضبه في بعض الأحيان، عندما تستحوذ عليه فكرة أنهم بهذا الشكل يعذبون البنت أكثر، فها هي تصرخ فيهم، وتقول لهم إنه بريء، لم يقتلني، ولم يؤذ أحداً، ها هو يراها كيف تضع نفسها في مكانه. وإذا قال لنفسه، إنه يهذي، لأن من غير الممكن أن يلقوا القبض أو يعذبوا أطفالاً، فإنه توقّف عن تأنيب نفسه، عندما رآهم يرمون خمسة أطفال صغار في ليلة باردة، عبر بوابة السجن الصغيرة. كانت أعمارهم على التوالي: 7، 8، 9، 11، 13، رموهم مثل نفايات، وقالوا: «الويل لمن يقدّم لهم بطانيات أو أي غطاء آخر للنوم». كانوا ينامون على الأرض المرصوصة بالفرشي البارد. في تلك الليلة، لم ينم يوسف تماماً، وعند الفجر، عندما أيقظهم حراس المعتقل، رأى يوسف الصبي الذي كان ملقى إلى جانبه، يفرك عينيه، يفتحهما، كان الأصغر بين إخوته، وكأنه رأى نفسه عندما كان طفلاً. قال يوسف لنفسه، كل الحيوات متشابهة، وذلك ما يراه مكتوباً على وجوه الأطفال. وعندما سأله الطفل بصوت متهدج: «راح يبدأ التعذيب عمو؟»، أشاح يوسف وجهه. لم يشأ أن يراه الطفل يبكي، وعرف أنهما متشابهان، كما أنهما يشبهان البنت التي وقفت في الخارج. كل الحيوات متشابهة، ويعوزنا أن نقرأ وجوه الأطفال وحسب. لم يعرف عن الطفل لاحقاً، لأنهم أطلقوا سراحه ومعه زملاؤه في اليوم ذاته، بعد أن قرروا نقلهم إلى شمال البلاد، إلى كردستان، كل واحد منهم إلى

وجهة مختلفة، وبما يتعلق به أخبروه أن يتسلم أمر نقله من وحدته العسكرية في قضاء المحاويل إلى قضاء سنجار. قالوا له، ضابط الإستخبارات وهو يقهقه بصوت عال، لا يخلو من التهكم: «من الأفضل لك أن تموت على أيدي الأكراد، أصدقائك في الشمال، على أن نخسر عليك بعض الطلقات».

الآن يتذكر يوسف، أنه بعد ستة أسابيع، عندما خرج إلى الشارع، لم يجد البنت صاحبة البلوزة المتهرئة الزرقاء اللون، إنما رأى العجوز تقف وحدها، تتكلم بصوت عال، ليس مع المارة، لكن مع نفسها، وهي تشير بإصبعها إلى الناحية الأخرى، حيث بوابة مدينة الطب، تهذي: «بنيتي مريضة هناك، ما عندها أحد، كل أفراد عائلتها ماتوا بقصف الطائرات، ساعدوني». أراد أن يسألها عن البنت الصغيرة، لكنه خاف أن يثير بسؤاله الشبهات عند حرس البوابة فيعتقلونه من جديد. لأن الجملة الأخيرة التي سمعوها هناك، «عليكم السير بشكل طبيعي، وألا يجرؤ أحدكم ويظهر أمام البوابة ثانية». ذلك ما قاله له زملاؤه الستة أيضاً، عندما أصبحوا خارج البوابة: «علينا الاختفاء بسرعة من هذا المكان، وسنلتقي غداً عصراً، في المعسكر». ثم تفرقوا. وبعد كل هذه السنوات، يمر يوسف ببوابة وزارة الدفاع، ولا يجرؤ على العبور من جهة مدينة الطب إلى هذه الجهة.

تساءل يوسف مع نفسه، عما إذا كانت البنت الصغيرة موجودة فعلاً، أم أنه اخترع صورتها، بل وألبسها بلوزة أو فانيلة زرقاء. إنه يخشى أن يكون اخترع صورة العجوز أيضاً، ولكن هل يُعقل أنه اخترع ذكرى التعذيب أيضاً؟ لماذا لم يتحدث عن التعذيب حتى مع نفسه؟ منذ أن غادر سجن الاستخبارات، ولم يتفوه بكلمة واحدة، بل عندما يُسأل، يجيب: «لم يحصل شيء»، رغم أنه كان يعرف أن ليس هناك من يصدقه. فعندما عاد للكتيبة، وذهب إلى قلم الكتيبة لاستلام راتبه،

وكتاب نقله إلى شمال البلاد، وجد نفسه مشطوباً من قائمة الرواتب مع زملائه الستة. وعندما سأل نائب العريف، المسؤول عن الحسابات، أجابه هذا ضاحكاً وبصدق: «من كان يعتقد أنكم ستخرجون أحياءً. حتى الآن لم يرجع أحد حياً، أو بكامل قواه العقلية من سجن الاستخبارات». بالفعل لم يظن أحد بأنهم سيعودون أحياء. وفي يوم عودتهم، عندما رآهم زملاؤهم، جنود الكتيبة، أخذوهم بالأحضان، وقالوا لهم: «الحمد لله على السلامة». لم يصدق أحد عودتهم سالمين، حتى ضابط أمن الكتيبة ذاته، النقيب شاكر عبود علي، السمين، أرسل بطلبهم، وسألهم بشكل منفصل بأدب وبصوت منخفض على غير عادته: «ما الذي جرى لكم في سجن الاستخبارات؟»، فأجابه: «لا شيء، سألونا بأدب، مثلما تسأل حضرتك، وبعد التحقيق ثبت لهم أننا أبرياء». صمت النقيب «برميل الخراء» (كما أطلقوا عليه)، غير مصدق، وتركه وهو في حيرة من أمره. «لم يحصل شيء»، تلك الجملة التي كررها في الكتيبة، كلما سأله أحد. تلك الجملة التي راح يكررها أيضاً مع نفسه، حتى اعتقد بالفعل، بأنه لم يحصل شيء.

يتذكر يوسف ذلك الشعور الذي استحوذ عليه حينها، والذي كان يقول له إن عليه أن يطرد كل ما علق في ذاكرته من سجن الاستخبارات، أن ينتهي من القصة، لكي يستطيع البقاء فعلاً على قيد الحياة، يتحرك دون خوف. لم يكن الأمر بهذه السهولة، فقد ظل في البداية ولزمن طويل، يشعر برعب من فتح الأبواب وإغلاقها، فهو منذ أن دخل الزنزانة، عرف أن للباب وظيفة أخرى: الباب كمدخل للحياة أو للموت. الباب هو الذي يقرر مصير الإنسان. ففي الزنزانة، كان عندما يُفتح الباب، يتوقع أسوأ الأشياء. عادة، كانوا يأخذونه إلى باب آخر يُفتح، فيجد نفسه في غرفة للتعذيب. وكان يجفل عندما ينظر إلى الوراء، إلى الباب الحديدي الذي أُغلق عليه. ولا حاجة لكي يقوموا

بتعذيبه، كان الباب ذاته أحد أشكال التعذيب. واستمرّ هذا حتى عندما عمل في الدوائر الحكومية، لأن طريقتهم في فتح الأبواب ظلت مطبوعة في ذهنه؛ نعم إن لهم طريقة خاصة بفتح الأبواب، فهم لا يفتحونها كما جرت العادة، إنما يدفعونها، بأيديهم الغليظة، أو ببساطيلهم، يُبعدون عن المرء كل شعور بالألفة مع المكان، وكأنهم يقولون له إنك لست في بيت أهلك أو في بيت صديق. إنك في السجن، عندهم. لكل باب مفتاح، ولكل مفتاح شرطي، ولكل شرطي مهمة، ولكل مهمة أثر في جسده، في روحه. وفي الزنزانة، عرف يوسف أن الألم الجسدي ليس هو الذي يسبب الانهيار، وطاقة التحمل لا علاقة لها بقوة الجسد، فمن غير المعقول أن الشخص الأول الذي انهار ساعتها، كان الجندي المكلف، خريج الأدب الفرنسي، المفتول العضلات، الشيوعي السليط اللسان وزميله منذ أيام الدراسة في الجامعة، والذي لم يشحب لون وجهه فقط، إنما لم يتوقف هذيانه، وقدم لهم منذ اليوم الأول قائمة بأسماء رفاقه. إنها الروح التي تقاوم. الروح التي تتحول إلى شخص آخر. ويتذكر يوسف، ما زاد يقينه بمقاومتهم، ليس لأنه لم يكن لديه أصلاً ما يقوله، فهو لم يكن في تنظيم معين حتى يقدم قائمة بالأسماء، كما يفعل البعض تحت ضغط التعذيب، أو لأنه لم يكن مستعداً لتقديم اعتراف وهمي، مثلما فعل آخرون للتخلص من التعذيب، إنما لأنه ومنذ أول جلسة تعذيب، تحوّل إلى كتلة عارية ممزقة من اللحم الآدمي، لا تفرق بين الغيبوبة والموت، لم يعد معهم في زنزانة التعذيب، إنما كان هناك مع البنت الصغيرة، التي رآها وهم يدخلون مبنى وزارة الدفاع، التي اختلطت صورتها مع صورة أقدم، تلك الصورة البعيدة للبنت الصغيرة ذات العينين الخضراويين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، التي دفع لها بيديه كعكة الموت. هكذا تحمّل يوسف كل وجبات التعذيب: يرمونه للأرض، ويدوسون عليه بأحذيتهم المدببة، ثم

يضربونه بالهراوات. لم يكن مسموحاً له البقاء على الأرض. وغالباً، وقبل أن يقع على الأرض، يتلقاه أحدهم بضربة ترفعه عن الأرض. وكان كل مرة يفكر: لن ينقذه من الضرب غير الموت. كان يتخيل نفسه ميتاً، والبنت الصغيرة، تقف عند رأسه، حائرة لا تعرف ماذا تفعل. يتخيلها، تهمس في أذنه، أن ينسى. «لننس»، هذا ما قالوه لبعضهم، في 16 مارس 1984، عندما وقفوا عند تقاطع ساحة باب المعظم، بعد إطلاق سراحهم، وكأن كل واحد منهم قرر أن يشكل منذ ذلك اليوم الحياة الخاصة به.

سار على جسر 17 تموز. الآن فقط يبدأ عمل الذاكرة، ولكن بالصورة المعاكسة. إنها مفارقة بالفعل، أن يسير بالضبط، على الطريق ذاته، الذي جاء منه مع ستة جنود آخرين، وعريف، حاول أن يكون ودوداً. من الغريب أن يشعر يوسف بأنه لم يختلف في الحالتين، حتى المحيط لا يختلف بالنسبة إليه، أو ربما يكون قد تغير بالفعل، مثلما هو جائز تغيره شخصياً، لكنه لا يلاحظ ذلك، لأنه يصغي لصوته الداخلي فقط، مشغول بالخراب الذي انتشر هناك، وليس فيما يحيطه، خارجه. كيف له أن يلاحظ التغيير، وهو الذي ارتبط عنده كل شيء بالتعاسة. حيث يكون البشر تكون التعاسة، حيث تكون الأماكن تنتشر التعاسة. ليست تلك هي المرة الأولى التي يشعر فيها أن التعاسة تحوّله إلى جثة وتحوّل الأماكن المحيطة به إلى تابوت.

في ذلك الوقت، شعر أيضاً بأنه جثة. ومنذ أن صعدت رجلاه باص الريم الصغير، عند بوابة معسكر المحاويل، لم يكن هو وحده جثة، إنما رفاقه أيضاً، وغالباً ما تطلع إلى وجوههم في الطريق إلى بغداد، وتساءل مع نفسه: ليس من الحكمة ألا يعرفوا بأنهم ومنذ تسلم قرار اعتقالهم، لا يعرفون بأنهم مجرد جثث، ولا حاجة لهم إلى النظر في المرآة، عليهم أن ينظروا فقط إلى بعضهم البعض، تلك هي خطوط

وجوههم محفورة بعمق، وكأنها منحوتة منذ زمن طويل، ولن ينفعهم أن يحاولوا بين الفينة والأخرى التغطية على اضطرابهم، أن يتصرفوا كما لو أن شيئاً لم يحدث، أن يصفروا أو يرددوا بعض الأغاني، أن يضحكوا وكأنهم ذاهبون في نزهة، وليس إلى زنزانات معتقل مديرية الاستخبارات العامة في وزارة الدفاع، بينما بدا عريف دحام في جلسته مضحكاً أكثر. حاول أن يكون أنيقاً، لبس بدلة النزول العسكرية النظيفة، وهو مستمتع جداً: النزول إلى بغداد بهذه المهمة. صحيح أنها مهمة خطرة، وخاصة إذا هرب أحدهم، لأنه سيُعتقل في محله، لحين إلقاء القبض على الآخر. لكن دحام، يعرف في حالتهم، أنهم ليسوا جنوداً عاديين، إنهم خريجو جامعات، أكثر طاعة من كل الجنود الآخرين، ويذهبون، للمعتقل دون إثارة أية مشكلة. لماذا لم يصرخوا آنذاك؟ هل كانوا وحدهم ذاهبين إلى المعتقل، أم كان هناك جنود آخرون مثلهم، فعلوا الشيء ذاته الذي فعلوه. الآن يعرف يوسف، كيف يمكن أن يعمل الإرهاب، كيف يصنع لغة غير اللغة العلنية.

كل شيء يعدي، الكلام يعدي، والصمت يعدي. الصمت، لأنهم في ذلك اليوم، كانوا يتكلمون ويتكلمون، كثيراً، وكأنهم يدفعون ثقل الكلام الآخر الذي يضغط في داخلهم. تحدثوا عن كل شيء، باستثناء الكلام عما سيحدث لهم لاحقاً، بعد اعتقالهم. لم يتكلموا فقط، إنما رووا النكات لبعضهم، أو سخروا بود من بعضهم. بل حتى عيونهم، بدت ليوسف غريبة في ذلك اليوم، تنظر إلى الأشياء، بصورة مختلفة، بفضول أكثر، وكأنهم يكتشفون العالم للمرة الأولى، يولدون من جديد. حتى الطعام تذوقوه بطعم آخر. هل هو الخوف من فقدان العالم، يجعل الحواس تستيقظ كلها مرة واحدة؟ الحيوات متشابهة إذن، نقرأها على وجوه الأطفال، وعلى وجوه الموتى. ويوسف في الحالتين، كان ميتاً: آنذاك في طريقه إلى معتقل سجن الاستخبارات،

والآن في طريقه للبحث عن جثة ليس متأكداً من وجودها.

عندما عبر يوسف جسر 17 تموز، الذي سيُطلق عليه منذ الآن تسمية خاصة به: جسر مدينة الطب، راح يتطلع بالأشياء، بالبنايات، بالأسواق، بوجوه الناس، وكأنه يراهم للمرة الأولى، وتذكر بأنه فكر في ذلك، قبل دقائق أيضاً، عندما توقف قليلاً في منتصف الجسر، عند الحاجز، وتطلع في النهر، وفي المدينة. كم بدت له المدينة طيعة، مستسلمة، مفتوحة، تتشكل من جديد، مثله هو، حتى النهر، يبعث صوتاً آخر، وكأن هناك عند منبعه، أو عند الأراضي التي يمر بها، كان من يخنق صوته.

سار يوسف عبر الشوارع، وهو يقول لنفسه: ها أنا أنظر إلى الأشياء، إلى الناس، مثلما كنت أفعل في ذلك اليوم، قبل أكثر من عشرين عاماً. ولكنه يعرف الفارق الآن. صحيح أنه في الحالتين، يلبي نداء شخص غريب: في الماضي، كانوا، هم، هذا النظام الغامض الذي مثّله عريف دحام، واليوم النظام الغامض الجديد، الذي يمثّله صاحب الصوت. غير أنه يملك هذه المرة على الأقل، حرية الدفاع عن نفسه، حرية الخروج من التابوت، أو على الأقل يستطيع أن يسير بالاتجاه المعاكس، لكنه في الحالتين كان بعيداً عن المكان: آنذاك بعيداً عن العسس والمطاردين وسيارات الشرطة ورجال الانضباط العسكري، كل جيش الرجال ذاك من أصحاب الوجوه الصارمة والشوارب الغليظة؛ اليوم الأمر ذاته، يسير بعيداً عن المكان الذي يحيط به، بعيداً عن مطارديه، عن أرتال الجيش الأجنبي والشرطة المحلية، عن قوافل السيارات العسكرية الجديدة ومصفحات الهمفري الأميركية، التي سدت منافذ ومخارج أكثر من شارع وساحة، لا يرى منظر الجنود ببدلاتهم التي لم ير مثلها من قبل، ينطقون أحياناً كلمات محلية موحدة بلهجة عراقية مكسرة، لا يرى وجوههم ذات الملامح المختلفة، لكنها تشترك

بعلامة واحدة: الخوف، فيعتقد يوسف مع نفسه، أنهم هم الآخرين خائفون مثله، فيسير قدماً، غير عابئ بأحد. يسير وكأنه يترك الآخرين الذين يمر بهم، هناك في وقفتهم أو في تحركهم محصنين بأسلحتهم، أما هو فيسير محصناً بصورة البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، فيشعر بنبضه يعلو ويهبط؛ يشعر بأنه يعيش.

كان يوسف مرتاحاً لذلك الشعور، الذي سرى في جسده كله، وتغلغل في مساماته، وشعر بأنه يستعيد بالفعل، تدريجياً، ما فقده حتى الآن، كل تلك السنوات المفقودة سيستعيدها شيئاً فشيئاً، منهم جميعاً، كل تلك الحزمة من السنوات التي تشكلت دائماً من المصادفات والأوامر، والتي كان ينظر إليها بلا مبالاة، أو ينفذ تعليماتها مثل واجب، وكأنه كله تحوّل إلى جسد، لا روح فيه، جسد يقوم بواجباته فقط؛ وعندما يشكل هذه الحزمة من جديد، ويصفي حساباته مع الآخر، مع الآخرين، ويخرج من عزلته مثل مريض كان يعيش بين أربعة جدران، يغادر مستشفاه وينظر للأشياء بنظرة جديدة لا تشبع، سيعود لسراب، يقول لها: «ها هو أنا كما أحببت أن أكون ولم أستطع حتى الآن».

بعد أن سار خطوات طويلة، وقطع شوارع عديدة، رئيسية وجانبية، بعد أن رأى الكثير من الناس، بعد أن رمى نفسه بين زحمة الناس، عرف أنه يسجل كل صغيرة في طريقه، وأنه يحمل كل ما يمر به محمل الجد، وأنه يريد أن يستعيد كل ما لم يره في سنوات حياته السابقة، يفعل ذلك بحماس، وكأنه مقبل على معركة حاسمة، يتفحص ساحة القتال. كان يشعر بأنه بالفعل شخص آخر. في تلك اللحظة عرف أن ما ينقصه الآن، هو أن يسترجع نفسه تدريجياً: أن يكف عن كونه يوسف القديم!

الفصل الرابع

في صناعة الأسماء: متاهة تزدحم بالأقنعة والمرايا

بعد أن أنجز النهار ساعات طويلة من عمله، وبدأت الشمس تبعث أشعة أكثر قوة، تنعكس في برك المياه التي تجمعت في ساحة كراج العلاوي المكشوف، فكر يوسف في تلك اللحظة بالمرة الأخيرة التي جاء فيها إلى كراج العلاوي، في 18 آب 1988، يوم تسريحه من الجيش. في ذلك اليوم وصل حوالى الساعة الثانية ظهراً، وللمرة الأولى بعد سنتين نزل من الباص، يلبس الملابس المدنية، غير مصدق أنه ودّع الجيش وراءه إلى الأبد. حتى الآن، في المرات السابقة (خمس مرات حدث ذلك)، لم يسمحوا له بالتمتع بتسريحه لوقت طويل، إذ كثيراً ما كانوا يُرجعونه من جديد، بغض النظر عن المكان الذي كانت فيه وحدته. وفي المرة الأخيرة، لم تدم سسعادة تسرحه من الجيش أكثر من ساعة تقريباً (الوقت الذي يحتاج إليه الباص لقطع الطريق من معسكره إلى العاصمة، بغداد). في الثلاث مرات الأولى رأى رجال الانضباط العسكري يقفون عند باب الباص، ويطلبون من الركاب عرض هويتهم، وفي المرتين اللاحقتين، وقفوا عند باب الكراج، ينادون متسائلين عن الشخص المدعو «هارون والي»، كما كان اسمه آنذاك، وفي كل هذه المرات، كانوا يقولون إن عليه ألا يقلق، وإنه أمر روتيني، وإن هناك خطأ إدارياً حدث في قلم كتيبته، إذ في الحقيقة بقي في ذمته يوم واحد

للخدمة، ولأن قلم الكتيبة مغلق الآن، بسبب انتهاء الدوام، فهم مضطرون لأخذه معهم، إلى الحارثية، إلى سجن الانضباط العسكري، القريب من متنزه الزوراء، وسيشحنونه فجراً، إلى كتيبته.

الأسماء هي مجرد مصادفة. لكن عندما تتحول الصدفة إلى قدر أو قانون، يتحوّل الأمر إلى معضلة بالنسبة ليوسف. هكذا، كلما تسلم كتاب تسريحه، ودخل إلى غرفة آمر الكتيبة، حتى يبدأ الضباط الجالسون هناك بالسخرية منه، ويقترحون عليه اقتراحات مضحكة لقضاء يومه الأخير. لم يفعل ذلك الضباط فقط، إنما زملاؤه الجنود أيضاً، وهؤلاء كانوا يقترحون اقتراحات لا تقل غرابة لقضاء اليوم الأخير، بقتل العريف دحام مثلاً، عريف القلم، المسؤول عن سجلات قيد الجنود، أو ما يطُلقون عليه، الكنية. ولكن في ذلك اليوم، ولدهشته، لم يأتوا وراءه، فقد تسرح، وكفى، رغم التوجس والخوف اللذين سيطرا عليه، أثناء مغادرة الباص الصغير، الكوستر، من أنهم سيقفون له هذه المرة عند زاوية الشارع، أو سينتظرون لينقضوا عليه، ما إن يدخل إحدى المقاهي، وأن ذلك ممكن أن يحدث في أية لحظة. ربما لأنهم كانوا مشغولين بنهاية الحرب.

قبل أن يصعد يوسف إلى أحد الباصات، اشترى من أحد الباعة الجوالين سندويج بيض. كان جائعاً، لم يأكل منذ ظهيرة أمس، في العشاء فقد الرغبة في الأكل، بعد تلقّيه مكالمة تلفونية أخرى. تذكر أنه عبثاً، طلب من صاحب الصوت أن يسأله من هو، من أرسله، ولماذا اختاره هو من بين الألوف الذين يحملون اسم «يونس» ربما، لكن أياً كان ما يقوله، ضاع في زحمة صياح صاحب الصوت، الذي صرخ به بصوت ثقب سماعة التلفون، أن عليه أن يجيب فقط، فمن غير المسموح له أن يطرح أي سؤال، وأن أيامه معدودة «حان وقت قيام الساعة، وعلى القاتل تسديد ديونه»، الأمر الذي أغضب يوسف أيضاً،

وجعله يغلق السماعة بعصبية. تذكر أنه سحب فيشة التلفون أيضاً، لم يشأ سماع صوت التلفون الذي يجلب الشؤم، يكره صوته، ومنذ أن ربطوا الخط في البيت، لم يحمل التلفون خبراً ساراً، وكان يتساءل، ما الذي جعله يوافق على فكرة التلفون، التي كانت هي فكرة سراب أصلاً، رغم أنها لاحقاً، كفت عن الرد على التلفون، وكانت تتعمد تركه يرنّ دقائق طويلة، لا تلمس السماعة، وتطلب منه الذهاب لرفع السماعة، فهي الأخرى، تعتقد أن الجهاز الأسود العتيق الضخم، يجلس مثل حشرة ضخمة هنا، يبثّ كل مرة سمومه عبر رنينه، الذي كان عياطاً كريهاً بالنسبة إليها. فكر، ربما ستُرجع سراب الفيشة إلى مكانها، عندما تستيقظ ولن تجده، ستلجأ بالتأكيد للتلفون، هذه المرة.

بدأت الباصات الصغيرة تملأ ساحة الكراج تدريجياً، بينما بدأت أفواج الناس بالدخول للكراج، وبسرعة بدأت حركة غير عادية، وصخب. إذن بدأ النهار بعمله اليومي، وهذا يعني بالنسبة ليوسف، بداية يوم جديد، من العذابات والحزن، يوم جديد من الصراع مع نفسه، مع يوسف. لماذا لا يكون هذا الـ«يا ولد»، أو الـ«أبو فلان»، كما ناداه سائق الكوستر الذاهب إلى الكاظمية عندما رآه يقترب منه؟ سيساعده ذلك على إلغاء ملف القضية كلها، صحيح أننا نحمل أسماءنا صدفة، وأن كل الأسماء صدفة، لكن كل اسم هو قدر وقانون، كل اسم رمز لشيء مبهم، حقيقة يواجهها البشر يومياً، هل يمكن تخيل الأمر: ملايين البشر، ملايين الأسماء، تُنادى يومياً في كل زوايا الكرة الأرضية، والعالم يفعل ذلك يومياً، بدون توقف، يومياً تُكتب وتُقال ملايين الأسماء، في المحادثات، في المعاملات، في البيانات، في التعليقات، في القصص، في الهذر، في الغيبة والنميمة، في الشتم أو في المديح، في الاعترافات الخاصة منها أو العامة، في الأخبار، والناس تُضيف يومياً ملايين أخرى من الأسماء تكرر نفسها، لأن هناك

كما يبدو بعض الأسماء، أكثر مجانية من غيرها، لا تحمل عاقبة أو تأثيراً (كما حصل معه)، على العكس تساعد الناس في أغلب الأحيان على حماية أنفسهم. والمعضلة هي معضلة أولئك الذين يحملونها أكثر مما هي عليه ذاته، ويمنحونها المعنى الذي يعتقدون به، ومن هذا المعنى تولد القصص، قصص الأسماء، وفي كل وضع: في حالات السكر والانكسار، في حالات الحرب والسلم، في حالات السجن والبراءة، في حالات الغضب والقرف، في حالات التبرم والضيق، في حالات الحيرة واليأس، في حالات الإعجاب والوقوع في الحب. قل لي ما هو اسمك، وأقول لك القدر الذي ينتظرك. وإذا كان اسمك يوسف، فعليك أن تحذر، لأننا لن نعدك كما وعد القرآن: «سنقص عليك أحسن القصص» وحسب، إنما أكثرها حزناً وتعاسة أيضاً.

كل مرة من جديد، يدرك يوسف أن عليه العيش مع اسمه، الذي ربما أراد له في الأول أن يكون قناعاً يمنحه ملامح جديدة، ليست مؤقتة، غير ملامح القاتل الذي أراد له أخوه أن يكونه، قناعاً يغلّفه أو يحصّنه مما يأتي من الخارج، لكنه اكتشف أن القناع المؤقت ذاك، والذي اعتقد أنه بإمكانه استبداله، وقتما يشاء، أصبح وجهه الحقيقي. ولم يعد الأمر بيديه، الاسم هو الذي يقرر، الاسم هو الذي يدخله إلى السجن أو يُخرجه منه، يحوّله إلى مجرم أو إلى ملاك. غالباً ما ظن يوسف، أن سلوك المرء يمليه عليه اسمه. فيوسف مثلاً، ومنذ وعى أن اسمه يحمل معنى، منذ أن ارتبط بالإشارة التي أطلقها أخوه باتجاهه، وهو ينادي الآخرين: «يوسف، هو القاتل»، بدأ يتصرف بطريقة تتلاءم مع وعيه الجديد هذا، سواء حدث ذلك بحس طفولي بعد موت البنت ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، أم بعدها بسنوات، عندما راح يتشكل بوعي في مسار علاقته مع أخيه، أم بعد زواجه من سراب، أم بعد علاقته بزوجة أخيه، أم بكذبه على أمه، أم

عندما قرر مغادرة البيت في يوم تسريحه، أو قبل لحظات عندما ذهب إلى دائرة الطب الشرعي، أو الآن عندما صعد الكوستر الذاهب إلى الكاظمية وأخذ مكانه بين الناس، أو آنذاك، أثناء خدمته العسكرية أو عندما رموه في زنزانات التعذيب أو بعد تسريحه من الجيش، وإرجاعه خمس مرات للكتيبة بسبب نقص يوم من الخدمة (كما قيل له)، أو أثناء عمله في دوائر ومكاتب لم يبق فيها غيره بعد اختفاء الأسماء الأخرى، أو عندما سجن نفسه في البيت، يسجل كل شيء، ليل نهار، على آلة تسجيل، أو أثناء مرضه ودخوله المستشفى، حيث تتحول الأسماء إلى مجرد رموز ودلالات لأمراض وأعراض خاصة. لكن في كل ذلك، ومن مناسبة لأخرى إختلف رد فعله، كأنه حمل زراً أوتوماتيكياً، لا يحتاج إلى تشغيله يدوياً أو الضغط عليه، أو كأنه حمل مصباح علاء الدين في جيبه، يفركه سريعاً، ويقول للعبد المختفي في القمقم: يوسف، افعل لي هذا أو ذاك. كل شيء حدث بصورة خاطفة، وكان يُفاجئ بها نفسه أحياناً، وهو الآن فقط عندما يتذكر، يستطيع أن يفسر، لماذا تصرف في تلك اللحظة بهذا الشكل، ولماذا في لحظة أخرى تصرّف بصورة مختلفة. فإذا كان الآن، وهو يصعد في الكوستر الذاهب إلى الكاظمية، يلتفت يميناً ويساراً، فإنما لكي يتأكد من ظنونه، بأن ليس هناك أحد يطارده بسبب اسمه، خاصة وأنه كما عرف، أصبح زائداً عن الحاجة، ويشكل خطراً لا يعرف لمن، منذ أن سمع صاحب الصوت الآخر، أو منذ أن ظهر شخص يتحدث في الصحيفة الرسمية الجديدة ليس باسمه الأصلي وحسب، إنما عنه أيضاً، يوسف بكونه يونس الجلاد، وبكل ما له علاقة بماضي هذا الاسم: من قتل البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، وحتى هروبه من مستشفى الأمراض العصبية، الشماعية. كم يبدو الأمر غريباً بالنسبة له، أن يكون هناك أحد وبعد كل هذه السنوات، حيث

لحق كل هذا الخراب بالبلاد والناس، يهمه أمر اسمه، أو يخاف أن يرجع إلى اسمه الأصلي الأول، لذلك يحاول أن يستبق تخريب حياة يوسف قبل أن تُخرب حياته، أليس هذا هو زمن «الحروب الاستباقية»؟ وهو يشعر للمرة الأولى، أنه مطارد في الحالتين: سواء دافع عن اسمه المنتحل، أم انتحل اسمه الأصلي؛ لعبة تثير الالتباس، تدخله من جديد إلى غابة متاهة الأسماء، وتنسيه أي الاسمين اسمه الأصلي، وأيهما الاسم المنتحل. كل الأسماء، الحقيقية والمنتحلة، الحقيقية والمخترعة تتحول إلى ذكرى بعيدة، تنأى عنه، وهو في محاولته الآن لتذكرها، مثل من يدخل إلى هاوية مجهولة، تذكره بتلك الجملة التي سمعها من جوزيف كرملي أو جوزيف ك ذات مرة، ترن في أذنه، وكأنها حُفرت هناك: «إن التذكر هو ما يفعله المرء وما لم يره أحد، وما لا يحمل ذاكرة من قبل».

يتذكر أن جوزيف كرملي أو جوزيف ك (كما أطلق عليه صديقه الروائي: هارون والي - وليس كما ظن العم عاصم، أنه هو أطلق الاسم على نفسه - على خطى شخصيات كافكا وتحولاتها)، قبل أن يعتاد على نطق اسمه بطريقة أخرى، كان يحمل أسماء عديدة، وكان يفتخر، عندما يتحدث عن حياته، ومغامرات رحلاته البحرية، بأنه ينمو ويتطور مع الوقت، ومن كل النواحي، وبأنه شخص غير متشكل، أصلي، ووحده يملك المفتاح «الكود» للشخصية الأصلية، ودائماً ما يستخدم واحداً من أسماء عديدة يملكها في أرشيف النسخة الأصلية منه، تبعاً للوضع الذي يجد نفسه فيه، وتبعاً لهوية الشخصية التي يتحدث إليها: فهو خلال حديثه مع لبناني فإن اسمه جوزيف كرملي، وإذا تحدث مع هندي يصبح اسمه رام شانا، لكنه إذا تحدث مع شخص من سري لانكا فإن اسمه يصبح رام سنخ، وإذا تحدث مع شخص صيني فإن اسمه يصير صن صنان، وإذا تحدث مع فيتنامي فإن اسمه سيكون شون شامون، وإذا

تحدث مع مسيحي صار الاسم جون صاموئيل، وإذا تحدث مع يهودي صار الاسم يوسيب شاموئيل، وسيتحول إلى يوسف يعقوب إذ تحدث مع شخص مسلم، وإذا تحدث مع شخص لا أدري، شكّاك مثلك (كما خاطب يوسف) فإنه يفضل في هذه الحالة ببساطة استخدام اسم جوزيف ك. وتمرن على سلوكه هذا، حتى تحوّل رد فعله إلى سلوك أوتوماتيكي، لا يتدخل فيه، ساعده في ذلك نظرته للعالم. فالبشر، حسب جوزيف كرملي أو جوزيف ك، في خلاصتهم، مجرد ذكريات خالصة، والاسم مجرد وعاء تُصب فيه الذكريات، ماركة، لا شيء أكثر. وأن سلوكنا يتشكل على مخرطة جزء من هذه الذكريات، هذا الجزء الذي يرفض بقية الذكريات، سواء كان شاهداً هناك أم لا: ليس هناك شاهد لشاهد على شيء.

لكن جوزيف كرملي أو جوزيف ك، ينسى أن كل واحد منا يسحب معه، ذكرياته الثقيلة، التي لا شاهد لها غيره، يجرها معه أينما ذهب، بكل ما فيها من وجوه وأسماء، وأقنعة، تجره إليها أحياناً مثل المغناطيس، مهما اعتقد أنه انتهى منها أو نسيها، لأنه لا يدري أحياناً أين بدأت، لكنه يعرف عمقها في الزمن فقط.

مرات عديدة، وعندما كان يستحوذ اليأس على يوسف، كان يفكر في أنه لم يعد يعرف متى بدأ ما يحدث معه، مع اسمه: يوسف؟ هل حدث ذلك بالفعل بعد موت البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، لكي يُبعد عن نفسه أي شعور بالذنب، أم لاحقاً، عندما تزوج سراب بأوراق ثبوتية مزورة، أم بعدها عندما ذهب إلى جوزيف كرملي أو جوزيف ك وتسلم هويته المزورة الجديدة باسم غير اسم «هارون والي» الذي اعتاد عليه، أم عندما ألقى رجال الانضباط العسكري القبض عليه بصفته الهارب من خدمة العلم «هارون والي»، أم لاحقاً عندما استحوذ على اسم أخيه، باتفاق غير

معلن بينهما؟ أو ربما حدث ذلك منذ الطفولة، عندما كان هو وأخوه يستمتعان بتلك اللعبة، لعبة استبدال الأسماء والأقنعة؟ وكلما حاول عصر مخه لمعرفة متى بدأ ذلك، يعرف أن من الصعب عليه، تحديد النقطة التي بدأ كل شيء منها، لأن ليس هناك نقطة واحدة، يستطيع أن يشير إليها أو يمسك بها، لا الآن ولا في المستقبل، لأن ما حدث أصلاً، هو قبل أية بداية أو نهاية، وهو حصيلة مجموعة طويلة من محاولات فاشلة بالعيش كما أراد، ومن الأفضل القول، الذكريات ليست جزءاً منه، هو يوسف، إنما هي كل تلك الأشياء التي شكلت هذا اليوسف، القديم أو الحديث، الحقيقي أو الزائف، المكتسب أو المنتحل، المعطى أو الموجود، والتي وصلت في النهاية إلى هذا السلوك، من العزلة، حيث ليس هناك أي أثر موجود لشاهد ما. طالما أن يوسف موجود، هناك في البيت أو في المستشفى، في المكتب أو في الشارع، في مشرحة الطب الشرعي أو سجن مديرية الاستخبارات القديم، هنا في باص الكوستر أو بعد دقائق في الكاظمية، أمام باب دارهم القديمة، التي لم يرها منذ سنوات طويلة، أو عندما يجلس لاحقاً في المقهى المقابل لدارهم، يخاف من الدخول إلى البيت، ليواجه ذكرى أمه التي ماتت بعد شهور من اختفاء أخيه الأكبر، أو ليرى خالته التي حبست نفسها هناك ورفضت أن ترجع لزوجها، حفار القبور، التي تقول، يكفي ما دفنه من البشر، وهي لا تريد أن يدفنها بيديه، فيكفي أنه سلم بيديه ابنه الوحيد، الذي كان هارباً من الجيش، لرجال الانضباط العسكري؛ ليرى زوجة أخيه التي أرادته أن يكون بديلاً لأخيه الذي اختفى منذ زمن طويل، وتركها مع بناتها الأربع، اللواتي في الحقيقة لم يكنَّ بناتها، والذي كان بالنسبة له ميتاً، وهو لا يدري لماذا لم يخبرها مباشرة بذلك؟ من غير المهم أين سيكون، هنا أو في أي مكان آخر، سابقاً أو لاحقاً، من قبل، أو ما بعد، فإنه سيكون مشغولاً ببعض تلك

الذكريات، مشغولاً بالتصرف بالطريقة التي تناسب هذا البعض. وإذا اعترف لنفسه وصار صريحاً معها، فإنه لن يتصرف على أساس جزء منها، إنما على أساسها كلها، على أساس كل ما لم يعرفه حتى لحظة تصرفه. إنه رد فعله هذا الذي نسج خيوطه في شبكة خيوط ذكرياته القديمة، ذكرياته الغريبة، المفقودة، ذكرياته غير المعروفة، التي لم يتكهن بها أي طبيب، منذ مغادرته زنازين التعذيب في معتقل مديرية الاستخبارات في وزارة الدفاع، وحتى عندما أدخلوه إلى المستشفى، وكأنه يلحق بالعم عاصم، ذكرياته التي يحس بها بأكثر تقدير، والتي تفاجئه غالباً، بصمت، لا تحمل أية لغة، غريبة لدرجة أنها تحمل طلاسمها معها، وليس لديها مانع أن تلجأ لطرق ملتفة لكي تصل إليه؛ من ينصب الشرك لمن؟ فهو يعرف، أن كل تلك الخيبات أو النكسات، الأفعال الفاشلة والناجحة، الأفعال الشريرة والخيرة، كل ما يشكل هذه الذكريات المتكررة، التي تبدو غالباً غير واعية، تعود إلى عمق يشعر به في داخله، عمق يعود إليه نفسه. ولكن أليس لهذا السبب بالذات، يعتقد بأنها لا تنتمي لنفسها، بأنها ليست حقيقية لأنه يخترعها بتذكره لها، ومن الجائز أنه هو جزء منها؟ لكنه يدري أيضاً، أنه يخضع لها، يتبعها، لدرجة أنه لم يعد نفسه. من ينصب الشرك لمن؟ خاصة وأنه يعرف، أن أصل كل ما يفعله، يكمن في داخله، يجلس متحفزاً على حافة ذكرياته، يمكن أن يقفز في أية لحظة، ينتظر من يوسف أن يهيئ له المشهد. وفقط هي الأصوات الخارجية، الغريبة، التي يمكن أن تغير المشهد، أن تعيد ترتيبه على الأقل بصورة مؤقتة. في الحالات القصوى، المؤرخون وكتّاب القصص، وفي الحالات اليومية الصغيرة، كما في صبيحة الأسبوع الثاني من شهر أبريل هذا، صوت سائق سيارة الكوستر الذي ناداه: «وصلنا الكاظمية، أخي»، والذي ربما كرر ندائه ثلاث أو أربع مرات. ولكن حتى هذا الصوت، الذي رنّ الآن في أذنه،

وأيقظه تقريباً أو سحبه من العمق الذي كان فيه، حمل في نبرته رنيناً يعود لذكريات قديمة.

عندما غادر يوسف الكوستر، وشكر السائق، فكر، أنه سبق وأن سمع صوتاً شبيهاً، في 18 أغسطس 1988، وأنه في ذلك اليوم كان غائباً أيضاً، وأنه أيضاً كان متردداً (مثلما يفعل الآن) بالذهاب إلى بيتهم أم لا؟ ربما، أن الفارق في هذه اللحظة عن اللحظة تلك، هو أنه يحمل الآن، ذكريات إضافية، 15 عاماً وثمانية أشهر، 68 شهراً، 5220 يوماً، 125280 ساعة، 7516800 دقيقة، 45100800 ثانية، لا يعرف وزنها إذا كان هناك ميزان يصلح لقياسها، ففي كل ضربة ثانية ما حدث وما لم يحدث، كل ما جلس متحفزاً على حافة الذاكرة، وفي تلك اللحظة، في ذلك اليوم، في الساعة الثانية وخمس وعشرين دقيقة (ولا يعرف أي ثانية، لأنه لم يستطع القبض عليها)، أي عبء من الذكريات يحمله؟ وإذا كان الآن يسير باتجاه دارهم القديمة، فما الذي جعله لا يعرف الخطوة التالية التي كان عليه أن يخطوها آنذاك، ما الذي جعله لا يغير طريقه، ويتخذ قراراً بمغادرة المدينة، منتحلاً إسماً آخر، كما كان يفعل، أو كما فعل لاحقاً، وكأنه كان يسير حسب خطة كان لا بد له، أن يسير عليها، أن يحسم الأمر بالفعل، بينه وبين نفسه، بينه وبين صاحب الصوت، كما كان يريد أن يفعل بينه وبين أخيه: في بلاد المسحوقين والمندحرين ليس هناك مكان للاثنين؟

الآن، وهو يقترب من بيتهم القديم، يحاول أن يكون متأكداً من ظنونه، من أنه لا يخطئ، ويستبدل بيتاً آخر ببيتهم. صحيح أن الدليل القاطع، الذي يقول له إنه يقف أمام بيتهم، هو المقهى القديم، الواسع، المواجه للبيت، الذي يقع عند زاوية تقاطع الشارع، لكن الوجوه المغبرة الجالسة فيه، لا توحي له بأية ذكرى، وكأنها تحمل لغة جديدة، صعبة عليه، بالتأكيد لا تعرف القصة، قصته، أو ربما نعم؟ هل يعرفون أنه

قضى طفولته وشبابه هنا، حتى هروبه من هنا ذات يوم؟ هل تعرف هذه الوجوه عدد الأيام والساعات المريرة، التي كان عليه أن يعيشها، كل مرة، والتي كانت تزداد مع نموه ومع ازدياد وعيه؟ لماذا ينسى المرء اللحظات السعيدة في حياته، بينما تحفر التعاسة والألم آثارهما في ذاكرته؟ هل تعرف تلك الوجوه جزء الذكريات، الذي يلح عليه الآن، أكثر من بقية الذكريات.

جلس يوسف في المقهى، في مكان منعزل عند زاوية تخت فارغ، يعاين واجهة البيت، ويراقب باب الدار، ويتذكر بالذات حياته في ذلك البيت قبل مغادرته له، وكأنها بدأت في تلك الفترة؛ أو كأن يوسف يقسمها إلى قسمين: زمن ما قبل التسريح من الجيش والذي يغور في العمق حتى موت البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، وزمن ما بعد التسريح من الجيش، الذي يمتد حتى هذه اللحظة.

بالذات سنوات ما بعد التسريح، حفرت مخالبها أكثر في تقاطيع وجهه، ربما لأنه في بدايتها، عاش أياماً من القلق المرعب، بأنهم سيأتون إليه، وسيقولون، «أنت مدين بيوم واحد آخر للخدمة العسكرية» أو سيلقون به في السجن لأنه لا ينتمي للحزب الحاكم، مثلما وضعوا المئات. أو لأنها لاحقاً تحولت إلى سنوات المسؤولية غير المنتهية، بكل ما حوته من حياة وخيانات زوجية، من سلام ومن حروب.

لا أحد من الجالسين في المقهى، يتذكر يوسف الممزق والمنهك، يوسف التعب الذي شاخ وجهه مبكراً، والذي كان يهرب كل ليلة تقريباً من البيت، ويقضي الليل هائماً على وجهه في الشوارع، يقاوم الرغبة التي أصبحت مثل روتين، بالذهاب إلى حانات العالم السفلي الصغيرة

في الصالحية أو في الباب الشرقي، لينتهي غالباً، إلى مكان آخر، إلى حانة أخرى خلف ساحة المتحف: «الحانة السرية»، كما أطلقوا عليها، في أيام الزحف المؤمن، أو «حانة المدينة»، كما أطلق عليها جوزيف كرملي، أو جوزيف ك، الذي وعده أن يحولها يوماً، إلى مكان لرواية تدور في ذهنه، سيطلق عليها عنوان: حكايات حانة المدينة. وعندما سأله، لماذا هذا الاسم الاستفزازي، كان يجيبه: لأن الناس تحتاج إلى صدمة، ولأن هذه الحانة، هي المكان الوحيد الذي لا يعرف حدوداً للبوح في هذه البلاد.

كانت حانة صغيرة قذرة، بلا شبابيك، هواؤها عفن، لم يدخلها هواء نقي منذ قرون، لا هواء جديد فيها غير زفرات السكارى وغنائهم وبكائهم وقيئهم. هناك، على كرسي خرب، يمكن أن يقع فيه في أية لحظة، عند طاولة دائرية قديمة، غطاها شرشف مبقع بآثار انطفاء أعقاب السجائر، كان يجلس، وكأنه يريد مراقبة الجالسين، أو كأنه يخطط للهرب من نفسه، كان يشتري حقه بالجلوس هناك، عن طريق نصف ربع من العرق الزحلاوي، وكثيراً ما كان يأخذه التفكير في خيبات حياته حتى الليلة الماضية، في حياته الموزعة، بين زوجته سراب، التي يعيش معها في بيت أهلها، بيت العم عاصم، في اسم منتحل، وبين الآخرين، في أمه التي لم تعد تراه، في أخيه المفقود منذ أيام الحرب الأولى، في رفقة ورحمة وشفقة ورأفة، بنات أخيه الصغيرات اللواتي كان عليه تحمل مسؤولية إعالتهن جميعاً، في مريم، أمهن، زوجة أخيه، الشابة الجميلة، التي راحت يوماً بعد يوم تقترب أكثر من حافة الجنون على ما يبدو، والتي أرادت أن يزورها كل ليلة، مصرة على مخاطبته باسم أخيه، بينما كان كل شيء في عينيها يشير إلى أنها تشتهيه بلوعة وحرقة وألم، ثم في آماله وتصوراته في اليوم التالي.

كان يجلس هناك حتى ساعة متأخرة، وقد استحوذ عليه الخوف أن

يذهب إلى بيت أهله في عمق الليل، ليس لأنه كان يقوم بمغامرة يمكن أن تقود إلى حتفه، لأنه ومنذ سنوات يعيش متخفياً، بعيداً عن أهله تحت اسم آخر، إنما لأنه كان يعرف بأنه سيجد زوجة أخيه كما هي عادتها يقظة، ما زالت لم تطفئ النور في غرفتها، تتنصت لوقع خطواته، وتناديه، حالما تراه، «يونس»، وعبثاً يطلب منها أن تترك هذا الاسم، فهي، تعرف بأنه ليس يونس، وبأنه ليس أخاه. مرات عديدة، وكلما زاد نفيه، زاد إلحاحها. ومع الوقت ما عادت تكتفي بمناداته من سريرها في الغرفة، إنما راحت تقف له، تنتظره عند مجاز الدار، وتسحبه ما إن يدخل، وتقول له: «يونس زوجي، تعال عاين بناتك»، ثم تقوده من يده، إلى داخل غرفة البنات، نائمات جميعاً: رفقة ورحمة وشفقة ورأفة، ثم تجره إلى الفراش، تتمدد على ظهرها، تحسر ثوبها وترفع فخذيها، تنزع لباسها، وتفتح شفتي فرجها، وتقول له: «تعال يونس، أرجوك أدخله، أريده، أريد منه بنت خامسة». ربما هرب منها مرتين أو ثلاثاً، ربما قاوم الرغبة المشتعلة عنده وهو يرى فرجها وفخذيها وأثداءها، ربما نجح في ذلك، ربما لأنه كان يكتفي بنصف ربع العرق، ولكن عندما عرف أن مطارديه بدأوا يضيقون عليه الخناق، وأن رجال الانضباط العسكري بدأوا يشكون في وجوده، هذه المرة لكونه يحمل هوية مزورة، وبدأوا يراقبون بيت العم عاصم، بدأ يقضي أوقات أطول في الحانة، يشرب أكثر، حتى زادت حصة شرب الليلة إلى الربع ثم إلى النصف. وعندما كان يهرب من الشرب، يذهب مسرعاً إلى بيت أهله، يحرص ألا تعرف به أمه أو خالته، أنه ينام مع زوجة أخيه، ليس مرة واحدة أو مرتين، إنما مرات عديدة، ولكنه ظل محافظاً على المسافة ذاتها، يتصرف وكأن الأمور تحدث وحدها، هو يأتي كل ليلة متأخراً، وهي تقف عند الباب تنتظره. كل ليلة، المسرحية ذاتها، ويخرج عند الفجر. بل إنه قبل أن يلعب دور يونس، يغمض عينيه عندما يضاجعها،

ويقول لنفسه، ها هو أنا أخي الذي ينام معها، وكلما غزاه الشك، بأنه كان يضاجعها بنفسه، وليس أخاه الذي يفعل ذلك، يقرر أن يبدأ المحاولة من جديد، فينهض، يلبس ملابسه، ويخرج إلى الشارع، ثم يعود من جديد، فيجدها واقفة عند الباب، وربما يستمران على هذا المنوال ثلاث أو أربع مرات: لا حوار ولا حديث. مسرحية صامتة، بدون جمهور، وبدون حوار تقريباً، فقط جملتين، واسم واحد أو اسمين، مسرحية بشخصيتين وحيدتين. وفي كل ليلة، سواء نام معها أم خرج إلى الشارع، سواء نام على فراش الزوجية أم جلس في الليلة التالية في الحانة، يشعر بالوحدة القاتلة، وحدة تنهش العظام.

حدث ذلك منذ زمن طويل، لكم هو غريب، إنها الوحدة ذاتها التي تضرب في النخاع، لم تتغير، قال يوسف لنفسه، بينما راح يتذوق لسانه هذه المرة كوب الشاي الذي وضعه له عامل المقهى على طاولة صغيرة أمامه. لكنه أيضاً الخوف من المجهول، القلق من شيء يحدث فيجلب معه الأنين، إنه أيضاً تعب السنوات هذه كلها، السنوات المضافة، يوسف الشيخ أو الذي يشعر بالشيخوخة الآن، يوسف الغارق في أفكاره البعيدة حتى النخاع، الرأس ملتصق بالحنك، لا يرتفع إلا بصعوبة ويبتعد ربما ملمترات معدودة عن الحنك، لكي يعاين باب الدار، الشيء الوحيد الموجود في إدراكه الآن، يوسف الغائب تماماً، المنقطع عن العالم الخارجي، عن رواد الحانة في تلك السنوات، وعن زبائن المقهى في الوقت الحاضر، عن حركة الشارع، عن الساعات وهي تمر، عن النهار وهو ينقضي، عن ضجيج السيارات وضوضاء المارة، منظر العساكر الأجنبية والشرطة والمليشيات المسلحة والملتحين والمحجبات، بل الغائب حتى عن صوت ارتشاف الشاي الذي يشربه بلذة تخرج صوتاً خافتاً، والذي يترك المفعول ذاته الذي كانت تتركه

قطرة الزحلاوي فيه، حتى يبدأ بمنح هيئة لنفسه، ليوسف الذي يتخيله: يوسف الشاب ويوسف الشيخ، يوسف البطل ويوسف الجبان، يوسف الفرح ويوسف الحزين، يوسف الطيب ويوسف الشرير، يوسف البريء ويوسف المتهم. أي الهيئات يختار، قبل أن ينفتح الباب أمامه، وقبل أن يرى أمه أو خالته أو مريم، زوجة أخيه، قبل أن يأتي أحد هؤلاء الشهود الذين يعتقدون أنهم يعرفون ماضيه، ويمنحونه هيئة، ربما غير التي يشكلها الآن أمام عينيه؟ «الوحدة مدمرة، وأكثر منها دماراً الوحدة التي يشترك بها شخصان». لماذا لم يقل تلك الجملة، التي قرأها أو سمعها في مكان ما، لمريم في ذلك الوقت، قبل مغادرته البيت؟ وهل ستفهم بعد كل هذه السنوات، إذا سمعتها من جديد؟

أتى يوسف على القطرة الأخيرة من كوبه، مثلما كان ينهي على آخر قطرة من كأس العرق، ترك ثمن الشاي على الطاولة، ونهض، وكأنه ذاهب إلى موعد حريص ألا يضيعه. نظر إلى باب الدار، ثم إلى شباك الغرفة العليا. رفع الحقيبة من الأرض، وتحرك باتجاه البيت، وبالذات عندما عبرت قدماه الشارع وأصبح قريبتين من الباب، فكر يوسف، يجب أن يختلف الوضع هذه المرة، عليه أن يدخل البيت، بصفته هو، قبل أن يدخل في لعبة انتحال الأسماء. أن يقول لهم كل شيء تغير، وعلى كل واحد أن يسترجع هويته واسمه، وأنه منذ اليوم، لم يعد لا يوسف ولا يونس: إنه لا أحد وكفى.

دفع الباب، وعندما سار في المجاز، فكر في تهيئة نفسه للمشهد القادم، بجمع كل ما لم يره في داخله حتى الآن، بكل ما هو غير مرئي، بما كل ما هو طيب يعتقد أنه ظل في داخله، فكر في الوضع الذي أصبحوا جميعاً فيه: الأم، مريم، البنات الأربع أو البنت الخامسة التي بالتأكيد ولدتها في غيابه، في أخيه المختفي أو الميت، في نفسه هو، الذي لم يعد يونس.

وقف في وسط حديقة البيت، ينتظر سماع صوت ما. اقترب أكثر، ووصل إلى حافة شباك مريم. ترك الحقيبة تقع على الأرض. لا شيء غير صوت ارتطامها البسيط. تضاعفت ضربات خفقان قلبه، نظر حوله، ثم تطلع أمامه. الستائر ذاتها، وكأنها ظلت مغلقة منذ مغادرته البيت. تذكر مريم، في تلك الليالي، كيف كانت تقف خلف تلك الستارة، تنتظر عودته، وتخرج لتفتح له الباب. فكر، من يدري ربما عادت من جديد للإقامة في البيت، وستخرج إليه، بالتأكيد ستتعرف عليه، رغم مرور هذه السنوات، وستخرج لتفتح له باب البيت الداخلي، كما كانت تفعل قبل أكثر من عشر سنوات. مثل زوج يعود لبيته وأطفاله، بعد انتهاء الحرب، قال لنفسه. ولكن، ولكي يغضب نفسه أكثر، تساءل بسخرية، ولكن أية حرب؟ فهي كثيرة، وأي بيت، فهو ما عاد يعرف، أين بيته بالفعل؟ ولكن الأزواج عندما يعودون إلى بيوتهم، يخرجون من جيوبهم مفاتيح بيوتهم، باستثناء أولئك الذين فروا بجلدهم فقط، لا حقائب ولا مفاتيح ولا مال. فروا بجلدهم فقط، يطرقون الأبواب، ليس بالضرورة أبواب بيوتهم. كانت الحرب، وكان عليهم الفرار، واللجوء إلى أي مأوى قريب، جدران أربعة وحسب، حتى وإن كانت بلا سقف. كل البيوت التي تقع على طريقهم، هي بيوتهم، يضربون على الأبواب، شفاههم متيبسة، جلودهم جافة، ومعدهم خاوية، حفاة في أغلب الأحيان، أقدامهم مشققة. يمشون ليالي وليالي، يمرون ببيوت وبيوت. يطرقون أبواب وأبواب. دائخون، مغلفون بالغبار والفجيعة، عيونهم زائغة، وظهورهم محدبة، منكسرين يشعرون بالوحدة، حتى وإن ساروا مجموعات: «آه ما أتعس وحدة الجموع، عندما يصاب الجميع بالخرس». كل شيء يعدي. الصمت يعدي. الخرس أيضاً. لا كلام يُنطق على الشفاه، ولا سؤال عن الطريق. هي عيونهم التي ترى الطريق، ترى كل شيء، عيونهم التي تسأل وتجيب، وأفواههم المغلقة

تكتم صرخات وعويل، وعيونهم تلمع بالتساؤل والنحيب. فقط نبض قلوبهم ووقع خطواتهم، وهناك أمامهم ينفتح الطريق، بانتظار البيت الهاوية، بيوتهم، يسيرون مثل ثيران معصوبة، أو حمير متعبة، فما إن تضرب أقدامهم تراب شوارع مدنهم، ما إن يدخلون أزقة سكنهم، ما إن يقتربون من بيوتهم، حتى يسيرون بملاصقة الحيطان، مثل حمير محملة بالأثقال، متوجسين، خائفين، أن ينتبه لوضعهم أحد، وأن يكون كل هذا الدرب الذي قطعوه عبثاً، وعندما يصلون باب الدار، ويجدونه مغلقاً أمامهم، هم الذين لا يملكون المفاتيح، يضربون بخوف على الشبابيك، حتى لا يثيروا الريبة عند أحد المارة، أو أحد الجيران الوشاة، ولا ينتهون إلى الجبهات القتال من جديد، يقاتلون الوحدة والقذارة والدمار، يعرفون شكلهم المثير للشبهات، ولا حاجة عندهم للتطلع إلى مرآة. يسمعون دقات قلوبهم. دُم. دُم. دُم. . . . وهي ثوانٍ فقط، مجرد ثوان فقط، ستشم أمهاتهم أو زوجاتهم روائحهم، سيعرف أطفالهم ضربات أقدامهم من بعيد، ذلك هو رهانهم، الذي يضخ الدم في الشرايين. فمن يعود لبيته، حتى بسرية، لا حاجه له إلى المفاتيح، سيفتحون له. هل وقف أخوه هناك دقائق طويلة، ويئس مثله، فاقترب من الشباك، لكي يتأكد بنفسه، فرأى شيئاً جعله يهرب ويقول لنفسه، «كلا، إنه ليس بيتي»، فهام على وجهه، يبكي بحرقة، يطرق كل الأبواب، ليكتشف كل مرة أنه ليس في بيته، فيدور ويدور في المدينة، من زقاق إلى زقاق، من بيت إلى بيت، يبحث عن بيته، عن أمه، عن مريم، عن بناته، ويخاطب الناس متوسلاً، مثل السجناء الذين يخضعون للتعذيب: رِفقة، شفقة، رحمة، رأفة. لا أحد يعرف عما يتحدث، وعندما ييأس، يغادر إلى مدينة أخرى، ليبدأ من جديد رحلة أخرى عبر البيوت، وهو منذ ذلك اليوم، منذ 13 عاماً يدور ويدور، إن لم يكونوا ألقوا القبض عليه، منذ زمن طويل، وأودعوه في أحد سجونهم التي لا

تُحصى، وأخضعوه للتعذيب والذل والإهانة، قبل أن يودعوه في مصحاتهم العقلية. أو ربما جندوه في إحدى وحداتهم، ليموت على إحدى جبهاتهم الأمامية أو الخلفية، في شمال البلاد أو جنوبها، وإذا نجا من كل تلك الكمائن، ربما أعطوه هوية جديدة واسماً منتحلاً، وألبسوه حزاماً ثخيناً من المتفجرات ودرعاً من القنابل، وقالوا له اذهب فأنت أحد المبشرين بالجنة، تنتظرك هناك سبعة وسبعون حورية عذراء بأفخاذ مفتوحة، فروجها حليقة؟

لا يعرف من قص له حكاية هذا الجندي، التي ألحقها بأخيه، ربما أحد زملاء الحانة السرية: حانة المدينة؟ ومنذ ذلك الوقت، منذ سماعه القصة، فكر، أنها يمكن أن تكون حدثت لأخيه، قبل أن يختفي نهائياً. ولكن كلما تذكر القصة، تساءل مع نفسه، لماذا لم يناد الجندي؟ هل رأى مثلاً زوجته تنام مع شخص آخر، مع أخيه مثلاً، ولم يشأ أن يصدق؟ أو لماذا لم يتجه إلى باب البيت ويدفعه، فربما كان مفتوحاً؟ ألم تصر أمه على تركه مفتوحاً، وعندما تغلقه مريم أو يغلقه هو، تغافلهم وتفتحه، من غير المهم في أي وقت، كانت تستيقظ أحياناً، في منتصف الليل، وعندما تتشاجر معها مريم لهذا السبب، تقول لها إنها تتوقع عودة ابنها، في أية لحظة، وفي مرات أخرى، تروي، ألم تسمعوا شيئاً في الليلة الماضية؟ وتقول سمعت خطوات يونس، سمعته يأتي، استحم ودخل غرفة مريم، ثم ذهب، لا يريد أن يعرف أحد بمجيئه، يخاف من الجيران، من الوشاة. هل كانت الأم وخالته تعرفان أنه هو الذي كان ينام في تلك الغرفة مع زوجة أخيه، وصدقا موت أخيه، بعد أن سلمهما أحد الجنود ورقة تقول إنه ميت، وحتى لم يسألوا عن تسليم جثته، مثلهم مثل الكثير من الناس الذين جعلهم يأسهم، يتجنبون السؤال عن جثث أبنائهم، فهم بهذا الشكل فقط يأملون بعودتهم يوماً، رغم أنهم يعرفون، بأنه لم يعد هناك أولاد، وأن الألم والذكريات لا

يستطيع المرء إصلاحهما بيديه، وأنه من غير المجدي الوقوف إلى صف الموتى، أو القتال ضدهم، ومن الأفضل أخذ موتهم بصورة حيادية. وأنه منذ تلك اللحظة، هو الأخ الأصغر، سيأخذ مكانه على الأقل هناك في البيت؟ لم يكن هناك ما يشير إلى ذلك، لم تشأ أمه تصديق موت ابنها، لذلك مثلها مثل ملايين الأمهات في أيام الحرب، لم تطالب برؤية جثة ابنها، إنما أعطت الانطباع فقط، بأنها تصدق الحكاية الرسمية، لكنها في دخيلتها، ظلت تعتقد أن ابنها الأكبر، يونس سيعود يوماً، ربما يكون في أسوأ الأحوال، أسيراً، لكنه سيعود يوماً، أو مثل أخيه الأصغر يوسف، هارب من الجيش، يظهر ويختفي. ألم تشكِ له أمه بعد زواجه من سراب بأسابيع، عندما قرر التوقف عن لعب الدورين، بأن أخاه اتصل بهم مرتين بالتلفون؟ في المرة الأولى أخبرها، بأنه سيغيب فترة طويلة، وفي المرة الثانية قال إنه مضطر للغياب مدة أطول بسبب مهام خاصة، قال إنه جندي في وحدة المهام الخاصة. وهي لا تعرف ماذا يعنون بهذا الاسم، وبماذا يقومون، لكنها لا تريد أن تطول غيبته طويلاً، وتتمنى من كل قلبها أن يعود قريباً، خاصة وأن ابنها الأصغر ترك البيت أيضاً. لم يشأ هو حينها، أخذ كلام أمه على محمل الجد، فهو يعرف بأنه هو الذي اتصل في المرة الأولى، تحدث باسم يونس، لكي يغطي على غيابه، ولكي يمنح نفسه فترة للتفكير، ولكن أمه تتحدث عن المرة الثانية. لم يسأل أمه عن المرة الثانية، إنما قال لها مطمئناً، إن عليها ألا تقلق، سيعود أخوه بعد أيام، لكنه لا يعتقد بأنه سيستطيع البقاء طويلاً في البيت، خاصة وأنه مكلف كما قال بمهام خاصة: سيأتي في الليل فقط! وكأنه اكتشف عبث ما فعله، وقرر العودة إلى لعب الدورين من جديد. ربما في المرة الأولى، عند حديثه معها، فكّر في تشجيعها على تصوراتها، لكي يغطي على زياراته الليلية المتكررة لمريم، لكنه مع الوقت، عندما اكتشف أن مجرد شعور أمه،

بأن ابنها الآخر ما زال على قيد الحياة، وأن مجرد مجيئه للبيت وإن كان خفية، وزيارته لزوجة أخيه، تشجعها على البقاء مع حفيداتها الأربعة، اللواتي لا تتخيل أمه حياة بدونهن. فكّر في أن ذلك يضخّ دماء جديدة في جسدها الذي هدّته الحياة. فكر، أن من الأفضل تشجيعها على تخيلاتها. فقط بهذه الصورة تستطيع تحمّل غياب ولديها: الأول أكلته الحرب، أو كما كان اعتقد في حينه، راح ضحية حماسه للحرب؛ أما الثاني، فقد فقدته أمه، مثلما فقد نفسه في الانتحال: يعيش مطارداً، هرب من الجيش، يعيش متخفياً في بيت حميه، ويعمل بهويات مزورة، يخاف أن تُكشف هويته الحقيقية ذات يوم، خاصة وأن أمه، كلما التقت به، تخبره بأن الشرطة السرية جاءت لبيتهم مرة أخرى تبحث عنه، ولم يبق لها، إلا أن تقول لهم بأنه مات في الحرب. مع الوقت، أصبح هو على يقين أن من الأفضل لجميع الأطراف تصديق القصة. ليس لأمه فقط، إنما لمريم، لسراب، التي سيقول لها، إذا حصل وأن عرفت، بأنه يفعل ذلك من أجل أمه؛ له أيضاً، لكي لا يشعر بأنه عن طريق زياراته الليلية ونومه مع زوجة أخيه، يرتكب جرماً بحق أخيه، أو بحق أحد. وكأنه لا يريد تصديق قناعته الداخلية التي تقول له: إن أخاه مات.

عندما انتهت الحرب ونشبت أحداث مارس 1991 وحرق الجنود والغوغاء والمتمردون سجلات دوائر النفوس والتجنيد والدوائر الرسمية، وجد أنها أيضاً فرصة مناسبة بالنسبة له، أن ينتهي من ماضيه، الذي اعتقد أنه سيساعده على نسيان موت البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، ويُوقف عنده الشعور بالذنب، لكنه مع الوقت اكتشف أن محاولته تلك، جلبت له المتاعب أيضاً، وحان الوقت الآن لأن يظهر للعلن بعد أن أنهكته حياة التخفي والسجون، والأفضل له أن يتصالح مع محيطه، لكن باسم أخيه هذه

المرة. حتى سراب وجدت الفكرة مناسبة عندما أخبرها بذلك، أما العم عاصم، فقد أسمعه كلاماً لم يعرف يوسف كيف كان عليه تصنيفه: سلباً أم إيجاباً. فقد قال له: انتهى زمن الملائكة في بلاد المسحوقين والمنتصرين، حان الوقت لأن تلعب دور الشيطان. ولم يعرف كيف يجيبه، أولاً، لأن في كلامه شيء من الصحة، وثانياً، كانت تلك الفترة التي بدأ بها العم عاصم يدخل في مطب الجنون. على أية حال، هو الآخر يوسف، لم يكن مقتنعاً بما سيفعله تماماً. حتى عندما أخذ الأوراق الثبوتية الخاصة بأخيه، ذات ليلة بعد نوم مريم. كان يعرف أين تضع الأوراق بشكل لافت للنظر، وكأنها تريد أن يأخذها، رغم أنها لم تعرضها عليه يوماً. أرادت منه هو أن يقوم بهذه الخطوة الضرورية. مرة أخرى الأوراق، هي التي تحدد مصير شخص، كما يحلو له أن يقول العم عاصم. لكن الأوراق هذه لن تنجح مرة أخرى بإنقاذه على مدى بعيد.

ذات ليلة ظهر أخوه، يونس، بشكل مفاجئ في الحانة السرية: حانة المدينة، في ربيع 1991، وقال له حسناً، هل أنت مصر على أخذ اسمي، هل بإمكانك تحمّل كل الإثم الذي علق به، إذا ما كُشف الأمر ذات يوم؟ لم يفهم يوسف حينها، ما الذي كان يقصده من حديثه ذلك. كان أخوه متعباً لدرجة كبيرة، وكان بودّه أن يسأله أين كان طوال هذا الوقت، أن يتحدث كل منهما للآخر، عما حصل له. كان بودّه أن يسأله أيضاً، عما إذا كان يعرف ما حصل بينه وبين مريم، وإذا كان يعرف ذلك بالفعل، فليس من الصعب توضيح الأمر له. لكن الأخ الأكبر الذي ظهر فجأة، لم يشأ أن يجلس ساعات طويلة، قال له، لم آت لتصفية حساب معك، أو إلقاء اللوم عليك، إنما جئت فقط، لأوضح الأمر الذي عزمت عليه، أن أغادر هذا البلد، فقد تعبت من الماضي

والحاضر، ولا أجد ضيراً أن تأخذ اسمي أبداً، فنحن متفاهمان الآن، كما كنا كل هذه السنوات. يكفيك الملاك الذي كنته. ألا تتذكر ألعابنا في الطفولة، وكيف أننا كنا نستبدل أنفسنا؟ وما نفعله الآن هو تكملة لتلك الألعاب. وقبل أن ينهض ويغادر، قال له: لم أزعل أبداً، عندما عرفت بأنك أصبحت بديلاً لي في فراش الزوجية، وأباً لبناتي، من سيكون أحسن منك؟ لكن تذكر، عليك تحمّل عبء الاسم الذي تحمله منذ اليوم، مثلما سأتحمّل عبء اسمك، إذا حصل وتعرضت للاعتقال، لا تنس أنك ما زلت مطلوباً. لكن لا ضير، منذ اليوم، أنا أنت، وأنت أنا. وداعاً، صديقي وأخي. سنلتقي ذات يوم من جديد، وسنواجه السؤال نفسه ذات يوم: في بلاد المنتصرين والمسحوقين، كما تسميها أنت، لا مكان لنا نحن الاثنين. يجب أن ينزاح أحدنا إلى جانب أو يختفي. سأختفي الآن حتى إشعار آخر.

وقبل أن يغادر، كم كان بودّه أن يقول له، إنه لا يعرف بالضبط ما إذا كان ما يفعلانه تكملة متأخرة لألعاب الطفولة، أم أنه أمر كان لابد من حدوثه؟ كما أنه، وبقدر تعلق الأمر بالطفولة، فإن أخاه كان دائماً الشخصية المنتصرة. وإذا كان لا بد أن ينزاح أحدهما، فقد كان هو الشخصية المُزاحة دائماً، الظل الذي يختفي وراء أخيه. لكن، لماذا يحذره من حمل اسمه؟ أي لطخة يحملها اسمه باستثناء لطخة قتل البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء؟

رفع الحقيبة عن الأرض، واقترب من باب الدار، دفعه بخفة، لأنه سمع صوتاً قادماً من التلفزيون بالتأكيد. في الممر المعتم قليلاً انتظر لحظات قصيرة يمسك بطرف الباب، قبل أن يرجعه إلى مكانه، ينتظر عبثاً صوتاً يسأل عن الضيف القادم، ففي النهاية تزدحم المدينة باللصوص! تقدم يوسف في المجاز، وضرب الموزاييك بقدميه عمداً،

ربما أراد إعلان مجيئه بهذه الطريقة. دفع الستارة التي تفصل المجاز عن صالون البيت. كان الصالون معتماً أكثر. وسط العتمة لمعت شاشة التلفزيون القديمة، الأسود والأبيض، وعلى ضوئها رأى الموبليات القديمة ذاتها، لم يتغير ترتيبها، لم يختف أي جزء منها. ومباشرة، أمام عينيه، لمح الكراسي الثلاثة التوركواز اللون، التي رُسمت عليها حمامات بألوان مختلفة، القطع الوحيدة التي تملكها خالته في هذا البيت، قبل أن تأتي من البصرة وتترك زوجها لتسكن عندهم. تنتظر هي الأخرى ابنها، الذي قيل عنه إنه مفقود في معارك عبادان، التي قدّم فيها الجيش ما يقارب ثمانين بالمائة من الضحايا؛ وعندما سألها ذات مرة، لماذا هذه الكراسي، ولماذا ثلاثة فقط، أجابته بأنها هكذا تريدهم أن يجلسوا، ثلاثتهم: أخوه وهو، وابنها في الوسط. في ذلك الوقت، كانت أمه وأختها تتركان يومياً، ملابس رجالية، قمصان أو بيجامات، مرتبة بعناية على مسندي اثنين من الكراسي. هذه المرة رأى ملابس رجالية غير مرتبة موزعة على جميع الكراسي، مكومة بصورة لافتة، ترتفع عالية، وبعض الملابس سقطت عند جوانب الكراسي، فجعلت الرؤية تصعب عليه، عندما حاول النظر إلى التخت المجاور للكراسي.

وهو لا يحتاج إلا القليل من الجهد. فقد رآها جالسة هناك، تشاهد التلفزيون. في الحقيقة، رأى وسمع في الوقت نفسه اشتعال عود ثقاب. كانت خالته تجلس هناك، وكما يبدو، فإنها لم تره، لأن عينيها كانتا تنظران في الفراغ، ترتطمان بجدار صالون البيت، وليس كما ظن بأنها تنظر إلى التلفزيون، إنما سمعته، أو شمته. وعندما اقترب خطوة أخرى، وظل واقفاً، يحمل في يده الحقيبة، تأكد له أنها كانت نصف ممدّدة، بوضع جانبي، تدخن سيجارتها، تلبس فستاناً جميلاً، ربما فستان نامرد براقاً بعض الشيء، وحذاء لماعاً، لم ير مثلهما يوسف من قبل، ربما كان الفستان والحذاء من بقايا ليلة عرسها. وعلى منضدة

صغيرة إلى جانبها، استقرت زجاجة وأربعة أقداح، ثلاثة اصطفت متلاصقة، بينما انفصل الرابع، قريباً من يدها اليمنى الخالية من السيجارة.

لم تستدر باتجاهه، إنما ظلت نظرتها مسمرة باتجاه مستقيم، تدخن سيجارتها، بينما تناولت القدح، الذي لم يتأكد يوسف مما إذا كان يحتوي على شيء بالفعل، وظلت محتفظة به، بين يديها، تمسده، مثلما يفعل الناس في الأفلام. وفجأة انبعثت ضحكة قصيرة؛ قصيرة جداً، من الصعب أن تحوي ضحكة مثلها حتى القليل من الفرح أو المفاجأة أو الأمل، أو المزاح، الأمر الذي حمل يوسف على النظر إلى وجه خالته، الصغير الدائري، التعب، المليء بالتجاعيد، لكي يتأكد من ظنونه، بأن تلك الضحكة لم تنبعث من خالته، إنما جاءت من جهة التلفزيون.

«أهلاً خالة يونس».

تفاجأ بصوت خالته. سقطت الحقيبة من يده، وأحدثت صوتاً عند ارتطامها بالأرض. وقال لنفسه: إذن، أنا يونس، إنها مثلها مثل صاحب الصوت، تريدني أن أكون يونس وحسب، أن أبقى يونس، أخي، مثلما اتفقنا في تلك الليلة الغامضة في الحانة السرية: حانة المدينة، ولا تريد أن تصدق أن يونس لم يعد هناك، لأنه كان جزءاً من حكايات تلك الحانة، وأنني أنا أمامها: يوسف، ليس غير يوسف، الحي، بلحمه ودمه، بعذاباته وانكاساراته، بسكره وصحوه، بجنونه وصحة عقله.

«يونس هلة بك، خالة هلة بجيتك بعد هذي الغيبة، طلعوك من السجن لو من المستشفى لو سرحوك من الجيش؟».

كررت الخالة، وكأنها تريد منع أي شك يمكن أن يستحوذ عليه، أو تقطع أية محاولة منه للاعتراض على تسميته باسم أخيه.

ثم لتضحك، وتقول:

«أو تريد أسميك يوسف؟ مثل ما تحب إبني. ماكو فرق بينك وبين أخوك. بهذا الشكل تكونون أنت وأخوك من جديد هنا».

لبرهة لمست شعر رأسه. بدأت بالحديث، دون أن تنظر إليه، السيجارة في اليد اليسرى، والقدح في اليد اليمنى.

«الدنيا غريبة خالة»

قالت جملها تلك، وكأنها تكمل حديثاً بدأته قبل ساعات أو على أبعد تقدير، ليلة أمس، وكأنها اعتادت وجوده طوال هذا الوقت، وكأنه كان حاضراً هنا ولم يغب سنوات طويلة.

«الدنيا مليانة بالعجايب. اليوم، الصبح مثلاً، فزيت من النوم، على حلم غريب. كنا أنا وأمك وأخوك ومريم وبناتها، كلنا صاعدين بسفينة مبحرة، بماي صافي، ماي زلال، ودابر ما دايرنا جبال وسهول، والشمس، الشمس خالة، أنت تعرف بالحلم نادر ما تجي الشمس، الشمس تلعب لعب بالماي، والهواء عليل، وهناك بعيد، بعيد، واحنا بالسفينة، نسمع صوت جاي من السماء، ينادي، كل شيء تمام، بالحقيقة، كان ينادي بالإنكليزية، وكنت أنت تترجم كلامه، كل شيء تمام. ما يبقى إلا وجه الكريم، وعليكم أن تقرأوا سورة يوسف».

توقفت قليلاً، وراحت تردد مقاطع من سورة يوسف.

«نحن نقص عليك أحسن القصص، بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن المغفلين. إذ قال يوسف لأبيه يا أبتِ إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين. قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً. إن الشيطان للإنسان عدو مبين. وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق. إن ربك عليم حكيم. لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين.»

«صدق الله العظيم»

قالت وهي تمسح وجهها بكفي يديها، ثم أكملت:

«فزيت من الحلم، رددت مع نفسي، اللهمّ صلِّ على محمد وآل محمد، وقلت الدنيا غريبة، منو راح يشهد على الحلم، منو راح يشهد، بأن كل شيء ما صار، كل شيء تمام غير يوسف نفسه. المشكلة دائماً، خالة ماكو شهود على الحلم، شايف وياي المسلسل اللي يدور بالتلفزيون؟».

نظر في شاشة التلفزيون، كان من الصعب عليه تمييز ما يدور هناك، لا يستطيع أن يرى بصورة واضحة، ما إذا كان يبثّ بالفعل مسلسلاً تلفزيونياً؛ يسمع أصواتاً، وشوشة فقط، قادمة هناك، وكأنها تخرج من عمق البيت، أو كأن التلفزيون يشتغل هناك منذ القدم.

«يمكن هذي الحلقة المية أو أكثر. دائماً يعرضون قصص بدون شهود. اليوم ينقلون مباراة كرة قدم من ملعب الشعب. أخبرني: هو بعده ملعب الشعب بمكانه!؟ ما يهم، ينقلون اللعبة من هناك، شوف الفريقين يلعبون بدون حكم، والناس تصفق. البارحة شفت قصة تخلّي الواحد ينفطر قلبه. شاب مثلك، حلو، طيب، مثل شبابك، يرجع للبيت بعد غياب طويل، يرجع من السجن أو من الأسر، أو من مستشفى المجانين، ما أتذكر، فيعرف أن زوجته حامل، هي تعلمه بأنها حامل، فيخاف يسألها، بأي وقت حملت بالطفل، فيقعدون يتفرجون على التلفزيون، الشاب جالس مثلي، وزوجته بحضنه، هي بيدها القدح، مثل ما آنه بيدي القدح هسه، الشاب الطيب، يمرر يديه على بطنها، ويفكر كيف حملت وهو صار له أكثر من سنة غائب؟ بس ما يريد يسألها عن الطفل، وهي تسأله، بدون ما تلفتت إليه، وتشوفه، تسأله: عذبوك هناك؟ تعذبت بالمعتقل؟ اعترفت على أحد؟ فكرت بي؟ فكرت بينا؟ سألت نفسك وين كنت هذي السنين؟ أعرف، كيف أنهم ما

عندهم، وهسة إسمعني زين خالة: ما عندهم لا رفقة، ولا رحمة، ولا شفقة ولا رأفة، وهو مثلك ساكت، لأن قلبه طيب، خوش ولد، يخاف يسأل، تعرف الفيلم اللي كانوا يباوعون عليه بالتلفزيون؟ ما تصدق! الدنيا عجيبة، مليانة بالعجايب. كانوا يباوعون على لعبة طوبة بين فريقين، بملعب الشعب، بدون حكم؟».

سكتت قليلاً، ثم أضافت، دون أن تنظر إليه، وكأنها تريد أن تتركه هناك، ساعات طويلة يقف، يصغي لقصتها، أو حديثها المضطرب.

«يوسف. خالة، توقعتك اليوم تجي، لأن قلت لنفسي ما معقولة هذي المرة هم راح يغيب؟ من جا أخوك يونس قبل أسبوع، وأنا ما عندي نفس آكل، قلت أنتظرك تجي، قلبي قال لي، إذا حضر الأخ الأكبر، يحضر الأخ الأصغر. المسواق اللي جابه أخوك قبل أسبوع بعده في المطبخ».

فكر يوسف، أية لعبة تلعبها معه الآن، وهي تتنقل بين الاسمين؟ وإذا كانت تعنيه هو، فإنه لم يأت قبل أسبوع فقط، إنما قبل دهر طويل، وهو يشعر بالخجل، لأنه لم يتسوق في الطريق إليها. أراد أن يقول لها أن لا وجود للأخوين: هناك أخ واحد فقط. وعليها أن تحسم الأمر، إلى جانب من تقف؟ عليها أن تكفّ عن هذا الوهم الذي هدم حياة أختها، أمه، وجعلها تأخذه معها للقبر. عليها أن تعرف، مثلما عرف هو وأخوه، مثلما عرفت مريم، مثلما عرفت سراب، مثلما عرف صاحب الصوت المحذر هذا الصباح وكل صباح، بأن في بلاد المنتصرين والمسحوقين، لا وجود للاثنين، يجب أن يختفي أحدهما. وإذا حدث وأن جاء بالفعل شخص إلى هنا قبل أسبوع يحمل اسمه، فهو شخص آخر، لأن أخاه مات، وهو يحمل اسمه. لقد حرر ورقة الوفاة التي حملت اسمه بيده. ترى من يكون هذا الشخص الذي جاء قبله إلى هنا؟ ألا يكون هو صاحب الصوت الذي يسمعه في المكالمات

التلفونية، أو لماذا لا يكون الشخص الذي زاره في الحلم في هذه الليلة؟ أراد أن يسألها أن تصف شكله أو صوته، لكنه عدل، ما إن سمعها تكمل:

«قلبي قال لي، يوسف يجي اليوم. تعرف ليش اليوم؟ اليوم يوم بعث الأموات. من رحت لحد الآن، كل سنة بهذا اليوم، أتوقع تجي. وأريد أشوفك وأسولف وياك. لأن أنت وحدك تعادلهم كلهم، أنت دائماً من كنت طفل، تحكي باسمهم كلهم. وكنت تقلد صوت المذيع بالراديو، بنشرة الأخبار: أنا الناطق الرسمي باسمهم. راحوا كلهم، وظليت أنت. أخوك، كان يريد يموت، لأنه تطوع بالجيش بحريته، وأصبح جندي أول، كان يصر على القيام بواجبه، لكن ما كان من المفروض أن يموت وهو شاب. ومريم بنتي، ليش اختفت؟ وشصار مع بناتها الحلوات، إسمعني زين: ماكو بالبيت لا رفقة ولا رحمة ولا شفقة ولا رأفة؟ وأمك ليش ماتت بالسكتة القلبية وتركتني؟ وكيف حال سراب، زوجة أخيك؟ عمري ما شفت بنت طيبة مثلها؟ سمعت انها تركت بيتها، بعد جنون الأب. صحيح أنها حامل؟ خالة يوسف، أنت الناطق الرسمي باسمهم، عليك أن تحكي قصتهم كلهم، تعال خالة أبوسك».

اقترب منها، وفي ذهنه أن يقول لها إن سراب زوجته، وليست زوجة أخيه، وإنه لا يعرف شيئاً عن قصة حملها. وبما يتعلق بأخيه، فإنه كما يعرف مات وكفى، وأن أمه لم تمت بالسكتة القلبية، إنما كما عرف من العم عاصم، الذي التقاه في مستشفى المجانين، قتلها صاروخ لا يُعرف مصدره، وقع على السوق المسقوف حيث كانت تتسوق صدفة وكان معها العم عاصم، الذي بقي مع نفر قليل على قيد الحياة، وقيل عنه أنه جن «لأنه فقد ذاكرته تماماً» (كما ردد البعض!)، لكنه يتذكر أن أمه ماتت مثل العشرات الذين احترقوا وتحولوا إلى رماد؟ أراد أن يقول

لها إنه ما زال يحمل غصة في القلب، لأنه لم يستطع تنظيم مأتم عزاء لها، بسبب هروبه الدائم في ذلك الوقت، من مدينة إلى أخرى، من مكان إلى آخر، منذ أخذه الأوراق الثبوتية لأخيه من غرفة نوم مريم؟ أراد أن يسألها ما إذا كانت تعرف أين ذهبت مريم وبناتها، وماذا تفعل هي هنا؟ لماذا بقيت وحدها هنا؟ كيف تعيش؟ لكنه عدل. ربما خاف أن يسمع كل هذه الأشياء دفعة واحدة وبسرعة، ومن الأفضل أن يتركها هي تروي له ما حدث، ببطء، تروي له كل شيء، شيئاً فشيئاً، بالتقسيط، مثل الدمار الذي لفّهم بدوامته كل هذه السنوات وببطء، لأنه بالفعل يريد أن يفهم ما حصل، ليس له شخصياً، إنما للبلاد وللناس أيضاً، فكل شيء يبدو له غريباً، لا يجد له تفسيراً.

طبع على جبينها قبلة. لم تغير من حركتها. كانت كأنها مجمدة في مكانها، شفتاها تنطقان فقط، حتى السيجارة التي بدأ رمادها يتساقط في حضنها، لم تثر عندها أي رد فعل، الأمر الذي حمل يوسف على أخذها من يدها. كانت أصابع يدها متراخية، لينة، طيعة، لم تبد أية مقاومة لسحب السيجارة منها، في الوقت نفسه، أخذ يوسف منها القدح الذي عرف بأنه فارغ، وعدل من جلستها. كانت تلك اللحظة التي عرف فيها، أنها عمياء.

شعر بيدها تبحث عن رأسه لتلامس شعره، وتتغلغل فيه، مثلما كانت تفعل معه عندما كان طفلاً. كانت يدها رقيقة، حنونة دائماً، أكثر رقة ونعومة من يد أمه. وكان آنذاك يفعل المستحيل، ويخترع القصص، لكي يحمل أمه على السماح له بالسفر وحده إلى البصرة، من أجل زيارة خالته، وكانت حجته التي يستخدمها دائماً، الحاجة إلى ملابس جيدة النوعية، التي كانت تحصل عليها الخالة من الكويت، إذ كان هناك سوق دائمة للكويت، وإذا قالت له الأم، إنه يملك ما يكفي من الملابس، وخاصة بنطلونات وقمصان الجينز، فيقول لها إنه ذاهب لزيارة خالته،

لكي يجلب لبنات عمه «الماء الغريب»، الماء الخاص الذي اعتاد الأطفال شرابه؛ وكان عليه لاحقاً، أن يبحث عن حجة أخرى، بعد هروب زوجة عمه مع بناتها، دون أن يعرف أحد إلى أين، إلا في وقت متأخر، عندما عرف عن طريق أمه، في إحدى زياراتها له في بيت العم عاصم، بأنها تزوجت من رجل جديد، ضابط في الجيش، تمركزت وحدته في معسكر أبي القاسم، في البصرة.

«خالة، يوسف»، قالت له، وما زالت يدها مغروسة في شعره.

«من سنين طويلة، أنتظر هذا اليوم، من باجر راح أرتب غرفة الأكل، وأطبخ كل ما تحب، أدري بيك أتحب السفرجون، والتمن مخلوط بالبصل والكشمش. غرفة نومك فوق، حضرتها لك من اليوم الصبح. الشراشف والغطيات نظيفة، اصعد وتشوف كل شيء بعينك. اصعد خالة، وإلا، فأنا راح أحكي وأحكي، ماكو أحد يقدر يوقفني عن الكلام، أسولف وأسولف، كل شيء سوالف، مو أنت اللي كنت تقول دائماً: «كل شيء مثل القصص». تعال خالة أبوس راسك مرة ثانية، قبل ما تصعد للسطح».

طبعت على رأسه قبلة قوية. سحب يوسف رأسه، تطلع إليها. تراجع قليلاً، رفع حقيبته عن الأرض، وتوجه إلى سطح الدار.

قبل أن يصعد إلى غرفته على السطح، دخل غرفة مريم. كانت فارغة تماماً، نظيفة، وكأن يداً نظفتها قبل دقائق، لتمسح منها أية ذكرى باقية. لا شيء يذكره بمريم، ببناتها، لا شيء من عطرها الثمين. فجأة انتبه إلى الستائر. إنها الوحيدة التي ظلت هناك، في مكانها. وضع الحقيبة على الأرض، فأحدث صوت سقوطها صدى غريباً. توجه إلى شباك الغرفة، هناك وقفت زوجة أخيه، تنتظر أخاه أياماً وليالي طويلة، وفي المكان ذاته وقفت لاحقاً، تنتظره، يأتي من جولة حاناته الليلية. فكر في تلك الليالي، وفي زوجة أخيه، عندما كان اسمها ما يزال مريم،

قبل أن تبدأ هي الأخرى تتعلم انتحال سلسلة قائمة طويلة من الأسماء، وقبل أن يقترح عليها اسم سراب، لكي لا يخطئ في لفظ الأسماء، وكأنه عقد معها اتفاقاً، هي تسمّيه يونس، وهو يسميها سراب، وكأنهما يحتفظان بـ«كود» سري بينهما، بغض النظر عن الأسماء المعلنة لاحقاً. «يمكن أن نضيع عن بعضنا، يمكن أن يختفي أحدنا، وإذا سمعت أن هناك أحداً يسأل عنك اسمه يونس، ستعرفين من هو المعني، الأمر نفسه سيحدث معي»، قال، ذات ليلة، ولم يعد يتذكر في أي مرحلة وصلوا إليها من مرحلة الأسماء تلك.

لم تكن الأسماء مجرد لعبة تشبه ألعاب الأطفال بالنسبة لهما، إنما كانت أكثر من ذلك. كانت نوعاً من طمأنة النفس، نوعاً من اكتساب القناعة الذاتية، أن ما يفعلانه صحيح، وأنهما لا يخدعان نفسيهما أبداً، وأن ما يقومان به جزء من ملهاة كبيرة، اسمها البلاد، أو الحياة، ومن غير الممكن أن يكون الأمر غير كذلك، في بلاد المنتصرين والمسحوقين، كما كان يقول لجوزيف كرملي، أو جوزيف ك. وهما ليسا الوحيدين اللذين كانا يلعبان أدوارهما بإتقان، إنما الجميع: أمه، خالته، سراب، العم عاصم. الآن يتذكر متى فكر في أن على الجميع التصالح مع فكرة موت وليس اختفاء أخيه. وأن من غير المجدي التوقف عن لعب دور أخيه، وأن لا ضير من الكذب، إذا كان هو الطريق إلى السعادة. كانت تلك المرحلة التي ما عاد فيها نصف قنينة العرق يكفي، عندما عرف بأنه لم يعد يتقن لعب دور واحد فقط: دوره هو نفسه، وأنه سيتجاوز هذه الكمية، وسيصل إلى شرب القنينة كلها بالتأكيد، إذا ظل مواظباً على هذه الحال. إنه لا يعرف إلا أن يكون أكثر من شخص. شخصان على الأقل. كان يسير أياماً طويلة ويتحرك وكأنه ليس من هذا العالم، ليس هو هذا الكائن الذي من لحم ودم، الذي يسير عبر شوارع طويلة، وجادات، يعبر حفراً ومستنقعات؛ يسير

طويلاً، وطويلاً، دون أن يدري إلام تجرّه قدماه، لا يشعر بكل ما يجري خارجه، وكأنه صنع سوراً حول نفسه. وعندما كان يجلس في إحدى حانات العالم السلفي، أو في الحانة السرية، حانة المدينة، حانته المفضلة، حانة الحكايات والمنولوجات الداخلية، يفكر في الفارق بينه وبين مريم، يشعر أنها لا تظن وحسب، إنما تؤمن مع نفسها، أن شيئاً ما سيحدث غداً، أو بعد غد، شيئاً طيباً، أن يعود أخوه مثلما عاد هو، ويعود معه كل شيء إلى مكانه، أن تتغير الأمور في البلاد، أن تتغير الحياة؛ إنها بالتأكيد تحمل خططاً وأماني معينة، لنفسها وللبنات الأربعة. وكان يحسدها على ذلك؛ بينما هو، ما عاد يؤمن بشيء، كل ما فكر فيه وخطط له في حياته حتى الآن، ذهب هباء، افترسته الحرب في ماكنتها، وغرست فيه الأيام مخالبها. منذ سنوات طويلة وهو يعتقد أن الأمور تسير بإيقاع أسوأ، وأن ما سيكون، سيكون أسوأ مما كان، أكثر شراً، والناس تزداد حمقاً، وشروراً. أما العزل مثله، إذا أرادوا البقاء على قيد الحياة وتجنب السجون والموت والمستشفيات، فلا سلاح عندهم غير الهرب في ملفات الانتحال واللجوء للوظيفة، أو للجنون، أو للسكر، ولا ملجأ مناسب أفضل من الحانة. يجلس هناك، ساعات طويلة يشرب ويشرب، لا يشعر بالوقت يجري ويجري، عيناه تبحلقان، من غير المعروف بأي شيء، حتى تحط يد على كتفه، لا يعرف، يد مَن، هل هي تعود إليه، أم لصاحب الحانة، أم هي يد صديقه جوزيف كرملي، جوزيف ك، مزور الهويات أم صديقه الروائي، هارون والي، الذي منحه اسمه منذ سنوات طويلة، قبل أن يهرب هو الآخر بجلده، إلى بلاد الشيطان الواسعة. من غير المهم، يد من، المهم أنها يد توقظه برقّة، في جلسته تلك، عند مائدته القذرة، تفتح عينيه المنغلقتين على فوضى الذكريات والشك، واللعنات المتكررة، فيعرف أنه مرة أخرى جلس هناك ساعات طويلة، وأنه يوم آخر انتهى،

ولم يتوصل فيه إلى اتفاق مع نفسه، وكأن الجالس هناك عند المائدة القذرة، بين رماد السجائر وزعيق السكارى وغنائهم الكريه، شخص غيره، يفشل يومياً بالتصالح معه، فيذهب كل منهما في طريقه.

كان يبدأ يومياً من جديد بالتفكير في ما سيدور، في الطريق الذي سيقطعه حتى باب الدار، حتى الغرفة، في الحوار الصامت الذي سيدور بين الاثنين، هو ومريم، حوار عيون تَعِبَة، هي تنتظر هناك، خلف الستائر، بينما هو يجر الجسد المرهق، من السير وشرب العرق، مثلما يفعل يومياً، الجسد الذي لا يعود إليه، الذي كان يُهربه سراً من سراب، والذي سيقدمه هدية، قرباناً لزوجة أخيه، وكأن كل ما عزم عليه، كل ما حاوله، يذهب عبثاً، وكأن كل ما جري هو تكملة لحلقة من الإصرار والإيمان العنيدين لقوة أخرى خارجه وخارج مريم وخارج أخيه الميت أو المفقود، كما لو أنه فعل كل ذلك بعمد، دون أي شعور بالخطر القادم، الذي يجلبه الليل معه، وكأنه أصبح يمارس روتيناً يحرره من خداع نفسه، كأن ما جرى حقيقة، لا يمكن حتى التشكيك فيها. كل ليلة، منذ أن يبدأ طريق الهرب من مأواه باتجاه الحانة، ثم التسلل إلى بيتهم، إلى غرفة مريم بالتحديد، الطريق من العالم السفلي للحياة، أو بالعكس، وفي تلك المسافة، عندما ينشط رأسه، يبدأ بالتفكير مع نفسه، وأحياناً بصوت عال، ولا يخجل أحياناً، أن ينادي عابراً ويحدثه بما سيقول لمريم، ويخبره بأنه سيطلب منها، أن تطوقه بذراعيها، قبل أن يصير الوقت متأخراً، ويقتله الإثم، وسيبكي بين ذراعيها، بحرقة، وكأنه يبكي فقدان شخص غير قابل للتعويض، وسيقول لها، إنهما لا يرتكبان إثماً. لقد قتل أخوه حلمه. وسيحدثها عن البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، عن البنت التي قتلها أخوه، عندما وضع لها المسامير في الكعكة التي صنعتها أمه؛ إنه يعرف ذلك، رغم نفي أخيه وإنكاره لذلك، وإصراره أن ما يقوله لم

يحدث إطلاقاً، وأنه هو يوسف الذي قتلها، لأن تلك الكعكة أصلاً هيأها يونس لقتل كلب الجيران، وكأن كلاب هذه البلاد لا تأكل إلا الكعك!

يتذكر، أنه حاول مرات لا تحصى أن يروي لها تلك القصة وقصصاً أخرى، لكي يعلن لها أنه لن يكون يونس أبداً، لكنه ما إن يدخل غرفتها، ما إن يراها مستلقية على ظهرها، فوق الفراش هناك، فراش الزوجية، ثوبها منحسر حتى ثدييها، فخذاها مفتوحان، ويداها، أو أطراف أصابع يديها، تباعدان شفتي الفرج الغارق بالعتمة، والليل والوجد، الفرج المفتوح مثل فم لا يشبع، يسيل لعابه، ما إن يراها بهذا الوضع، تئن وتكرر بتوسل وحنين ورقّة وعفّة كل الزوجات: «يونس، يونس، يونس، تعال، أرجوك»، حتى يشعر بلسانه يجف، وبما أراد أن يقوله يتلاشى، عبثاً يفعل، فهو حتى وإن أخرج صوتاً، وقال كلمة واحدة، فإنها لن تستيقظ من خدرها، لن تغير من وضعها، لن تستدير باتجاهه؛ ستظل محافظة على وضعها، مثلما تفعل كل المرات، ولن تنطق بكلمة واحدة، غير النطق باسمه، «يونس، يونس، يونس، أرجوك»، وعندما يقترب منها ويعاين وجهها، تحت ضوء الشمعة المحترقة، يعرف أي جنون هيّأته له تلك الليلة، أي مشاعر اخترعتها، وتركتها موزعة على وجهها، الجدّي واليقظ بكل الدم المعبأ فيه. من غير المهم أنها أغمضت عينيها، كأنها نزعت قناعاً لبسته قبل ثوان، وكأنها مريم الحقيقية، وليست تلك المرأة التي اقترح عليها اسماً آخر، سراب، وكأنه ليس غير يونس، حيوي وبوعي صاف، وكأنه ليس يوسف الذي غادر بيت الزوجية وزوجته سراب هذا المساء، بعد أن تركها ليلة أخرى للوحدة والعذاب والقلق؛ كأنه لم يشرب قبل ساعات أكثر من نصف قنينة من العرق؛ كأنه لم يسر طوال اليوم، ويقطع شوارع وحارات؛ كأنه يستعيد نبضه، يخرج جسمه من بئر عميقة، مثلما سمع

في السورة، سورة يوسف، وأنه ذاته، بل كأن كل شيء يحدث بصورة طبيعية، دون أي جهد استثنائي منه، ذراعاها يطوقانه، جلد ذراعها يبرق بسمرته أمام عينيه، بينما تهمس في أذنه برقة، وبتوسل: «يونس، يونس، يونس، أرجوك»، وكأنها تريد التأكيد عليه، ألا يخطأ ويظن أنه يحمل اسماً آخر، أو أنها تنام معه، لأنه شخص آخر، غير الشخص الذي ظنته، الشخص الذي ظنه هو، قبل دخوله هذه الغرفة، والذي انتظرته طوال اليوم، وكأنها تريد القول إنها لا تلعب، وكأنها مقتنعة أنه يلعب اللعبة ذاتها معها، بأنه لا يفكر في الهروب منها، من جبنه، من أخيه الميت، من الذكريات، من المدينة، من البلاد، من كل هذا العبث المحيط به.

كانت، بعد أن ينتهيا من إنجاز الفعل، للمرة الثالثة أو الرابعة، بعد أن يهدّهما التعب، تبدأ بحديث مسترسل، صوتها يرن بين جدران الغرفة، فهي لا تتحدث مع يوسف، لا تقص له شيئاً، إنما تحكي عن أشياء تراها وحدها فقط في تلك اللحظة، أو تحكي عن أشياء سبق وأن رأتها، أشياء تتذكرها، وهو غائب عنها، يفكر في اليوم القادم، وهي لا تدرك ذلك، فتسترسل وتسترسل.

لم تعرف مريم أنها عن طريق إصرارها ذلك، كانت تدفع كلماتها المحدودة، إلى تلك الهوة ذاتها، التي كان يشعر بسقوطه فيها يومياً، وأن تلك الكلمات أيضاً، التي يتركها وراءه هناك، بعد خروجه يجرجر نفسه من تلك الحفرة العميقة، تجعله يشعر بالخواء، ويدرك أنه قال كلمات أخرى، لا تعود إليه، وأن ما تركه وراءه مجرد صدى أجوف لكل الكلمات، التي أراد أن يقولها، ولم يقلها، لكل الكلمات المفقودة في هواء الغرفة المملوء برائحة عطرها وشهيقها، وهواء البيت الخانق بزفرات الأم وشكاوي الخالة، بأصوات البنات الصغار اللواتي لم يسمع هو الهارب من البيت معظم الوقت والذي لا يستطيع زيارته إلا في

الليل، لم يسمع صوتهن أو يرى وجوههن إلا نادراً، وبشكل خاطف وسريع وهنّ نائمات، كل الكلمات التي يرتد صدى معانيها، أو تعتقد أنها سمعتها من فمه، أثناء نومه معها في الفراش، أو عندما يشهق، بينما يترك في داخلها، أسفل بطنها، قطرات حارة انتظرتها طوال النهار وحتى منتصف الليل، صدى معانيها التي تغطيها، تنسج ما يشبه الغشاء، الخفيف، الرقيق، حول رأسها، وكتفيها، فتظن أن ذلك يكفي لكي لا ينفصلا، أو يكفي لمنعه من الذهاب عنها، وحده، بل وليس بعيداً عنها فقط، إنما بعيداً عن المدينة، بعيداً عن نفسه أيضاً، لمنعه أن يتحول من جديد إلى شخص غير يوسف.

رفع الحقيبة مرة أخرى عن الأرض، وسار باتجاه الباب. وعندما غادر الغرفة، لا يعرف لماذا أغلق الباب بهدوء، فتذكر أنه فعل الشيء ذاته، في الليلة الأخيرة، فقال لنفسه، وكأنني غادرت البارحة. صعد الدرج ببطء، باتجاه غرفته على السطح، تذكر أنه يعرف عدد الدرجات، واحدة واحدة، كان يحسبها مع أخيه ومع ابن خالته، الذي كان يصر على صعودها واقفاً على يديه، لعبة العقرب، كما كانوا يطلقون عليها. وكان أخوه يقول مرات عديدة، الحذر أن تتحول إلى عقرب حقيقي. لم يتحول ابن خالته إلى عقرب، إنما تحول إلى كتلة لزجة من الفحم، حملوه إلى أمه في كيس نايلون، فرفضت استلامه، وقالت إنها متأكدة أنه جندي آخر. منذ ذلك الحين، تنتظر رجوعه. وبدل أن يرجع ابن خالته، رجع يوسف. فكر، لا يدري، لو قال لخالته، بأنه كريم، ستصدقه، وستستعيد عقلها، أو ماذا سيحدث، لو تصالحت مع فكرة موته، هل ستظل على قيد الحياة بعدها؟ ربما ذلك ما حدث لأمه. كان من الصعب عليها تحمّل فقدان ابنين: الأول اختفى أو مات، والثاني ألغى نفسه بنفسه.

وقف في وسط الغرفة. وضع الحقيبة على الأرض. دارت عيناه في فضاء الغرفة، ثم جلس على حافة السرير. كل شيء على وضعه، كما كان: السرير، الفراش، الكومودين الصغيرة، المرآة المعلقة على الحائط. وهناك على الطاولة الصغيرة، ما زالت بعض الكتب، التي مزقها وتركها في مكانها. تفحّص الأغلفة: «الإخوة الأعداء» لنيكوس كازانتيكاكيس، «الإخوة كارامازوف» و«الشياطين» لدوستويفسكي و«القضية» لفرانتز كافكا، و«الغريب» لألبير كامو. بالذات هذا الكتاب الأخير، رفعه أخوه أمام عينيه ذات يوم، وهو يعلق بسخرية وبغضب: «ستظل غريباً. مثل هؤلاء الحفنة من الوجوديين». حتى الآن يتذكر كيف أنه في اليوم ذاته وصل به الغضب أن يقوم بتمزيق غلاف هذا الكتاب، مع غلافَي كتابين آخرين: «الإخوة الأعداء»، و«الشياطين» ، وهو يردد: «هذه النهاية، تريدنا أن نتحول إلى أخوة أعداء وشياطين». كان من الصعب عليه إقناع أخيه، أن قراءة كتاب ما، لا تعني تبنّي كل ما يقوله الكتاب، وأن عناوين الكتب تقول كل شيء مثلما لا تقول كل شيء في الوقت نفسه، وأن فهمنا ومتعتنا عند قراءة كتاب يتعلقان بالحالة التي نمرّ فيها. لنأخذ مثلاً، اللحظة الحالية، لحظة تمزيقك للكتاب، فأنت الذي تجبرني على تصديق عنوان هذا الكتاب: بأنني غريب فعلاً في هذا المحيط الذي تجبرني على تبنّي قوانينه، بأننا بالفعل إخوة أعداء وشياطين، منذ موت البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء. فيطلب منه أخوه أن يخرس، وألا يكرر هذه الأسطوانة المشخوطة: تعتقد أن هذه القصة حقيقية لأنك أنت التي اخترعتها.

يتذكر يوسف متى بدأ أخوه يغضب. بالضبط، عندما شعر بأن أخاه الأصغر بدأ يتجه باتجاه آخر، يعزل نفسه. ويبدأ تدريجياً، يختلق الأعذار لكي يظل محبوساً في غرفته الصغيرة، على السطح، مع كتبه

وأوهامه، يتململ على غير عادته من الخروج مع أخيه، ومشاركته في جولاته وأعماله المبهمة، التي يُطلق عليها صفقات. يقود سيارته السوبر، يدور على بعض المقاهي أو يطرق أبواب بيوت فخمة، يترك يوسف ينتظر في السيارة، وينزل يتحدث مع أشخاص مبهمين، لم ير يوسف وجوههم كاملة. ودون أن يسأله يوسف عن الشخص، يبدأ أخوه بالحديث عن الموضوع، ويخترع قصصاً من الصعب ليوسف تصديقها، كأن يقول بأنه التقى الشخص كذا، مدير عام في وزارة الري أو في وزارة النفط، أو هو مقاول شركة تعمل في الحقيقة في ما وراء البحار، وهو في زيارة لبغداد للبحث عن وكلاء للشركة. . .إلخ.

لم يفهم بالضبط، المهنة التي كان يزاولها أخوه. فرغم أنه كان متطوعاً في الجيش برتبة جندي أول، إلا أنه لم يره إلا نادراً يلبس الملابس العسكرية، وكان عندما يسأله بسخرية، ما إذا كان في إجازة دائمة، يرد عليه بأنه جندي مهمات خاصة، وعليه ألا يدس أنفه في قضايا لا تعنيه، فيعلق يوسف بسخرية مرة، أرجو ألا تكون مهماتك الخاصة هي التعذيب، فيطلب منه أن يخرس وأن يحذر في كلامه. كان يوسف بالفعل حذراً في كلامه معه، لأن أخاه من الناحية الأخرى، كان مسؤولاً عن العائلة بشكل ما. كان يونس دائماً لا يعوزه المال، وكان كريماً، مع يوسف ومع العائلة. لم يبخل عليه يوماً بشيء، بل حتى في لحظات شجارهما، كان يصعد إليه أحياناً إلى غرفته، يرمي عليه بعض الأوراق المالية، التي تبقى مرمية على الأرض، إلى حين خروج الأخ، ولا يرفعها يوسف عن الأرض إلا على مضض. فهو من ناحية، يكره أن يأخذ هذه الأوراق من أخيه، ومن ناحية أخرى، يعرف حاجته إليها. لا أحد يعرف من أين يحصل يونس عليها، حتى مريم. وإذا سأله أحد أفراد العائلة في السنوات الأولى عن طبيعة المهنة التي كان يمارسها، بالإضافة إلى مهنة الجيش، فإنه كف لاحقاً. فبقدر ما سمعوا من كلام

ومبالغات، وأحاديث عن صفقات تجارية كبيرة، لدرجة أنه تحدث يوماً عن صفقات مع وزارة النفط، تسمح له وشريكه، الذي يطلق عليه «الحاج»، والذي ظل شخصية مبهمة أكثر منه، لم يعودوا يصدقون أي كلمة منه. صحيح أنهم لم يقولوا له بأنه يكذب، إلا أن أحداً لم يتحمل عناء التحري عن صحة ما يقوله، أو عن مصدر الأموال التي يحصل عليها، خاصة وأن زوجته الأولى التي كانت تكبره بعشر سنوات، كانت ممرضة بسيطة في مستشفى، مطلقة لمدرس دخل السجن بسبب بيعه الأسئلة الحكومية لامتحان البكالوريا للصف السادس الثانوي. وحتى عندما ذهبت زوجته لاحقاً مع شريكه «الحاج»، الذي كان يكبرها هذه المرة بعشر سنوات، وتركته مع بناتهما الأربع، لم تكشف شيئاً يفصح غن طبيعة الأعمال التي كان يزاولها، خاصة وأنها استخدمت في حرب الطلاق معه، كل ما كان في حوزتها من أسلحة، كل ما خزنته ذاكرتها، من الإشاعات التي كانت متداولة ضده. لم تكن تلك الإشاعات غريبة على يوسف، فقد عرف معظمها منذ فترة المراهقة. لكنه لم يرها أو يتأكد منها بنفسه، رغم أنهما كانا متلازمين تقريباً. قيل عنه عندما كانا ما يزالان صبيين، بأنه كان يسرق الكويتيين، الذين يمرون بسياراتهم الفارهة، في طريقهم إلى لبنان للسياحة في فصل الصيف. يشق جيوب دشاديشهم بسكين خاصة، ويسرق حزم الأموال منهم، حيث كانوا يملأون دشداشاتهم بالمال على شكل حزم من الدنانير، ولا يتعاملون بالكارت. أو يغريهم بأخذهم معه للفندق، رغم أنه لم يكن وسيماً، إلا أنه سمع عن رغبة بعضهم في أن يضاجعهم الغلمان، وعن استعدادهم لدفع مبالغ طائلة من أجل الحصول على تلك النشوة، وميل بعض نسائهم العانسات للنوم مع شاب صغير مثله. ليستغل أول فرصة بعد دخولهم الحمام، لكي يسرق من الرجال محافظ نقودهم، ومن النساء حليهن. وعندما كبرا، قيل بأنه كان يعمل بتزوير الأوراق النقدية مع

مسؤولين حكوميين، أو وتلك القصة الأكثر غرابة، يصنع أقنعة خاصة جداً ويبيعها لرجال الأمن والمخابرات الذين يقومون بالتعذيب. قيل أيضاً إنه كان أحد جنود المهمات الخاصة عند دخول الجيش العراقي للكويت! قصص كثيرة، ربما صحت واحدة منها، أو جميعها، أو ربما لا تصح أية واحدة منها. وعندما جمع عزيمته، وجرؤ على سؤاله، غضب أخوه، ومزق أغلفة الكتب أمامه، وهو يصرخ: «هذا ما تعلمته من الكتب. هذه الكتب القذرة. ماذا تنتظر من كتب تحمل عناوين مثل هذه: «الإخوة الأعداء» و«الشياطين» و«الغريب»».

أراد أن يقول له إنها ليست الكتب الوحيدة التي يملكها، إنما هناك كتب أخرى: «الأمير الصغير» و«بريد االجنوب» و«طيران الليل» لأنطوان سانت أكزوبري، «الحرب والسلم» لتولستوي، «الغثيان» و«دروب الحرية» و«الجدار» لجان بول سارتر، «الوضع البشري» و«الأمل» لأندريه مالرو، «عرس الدم» و«يرما» للوركا، «لمن تقرع الأجراس» و«باريس، عرس للحياة» و«الشيخ والبحر» لهمينغواي، «تورتيلا فلات» و«عناقيد الغضب» لجون شتاينبيك، «النفوس الميتة» و«المعطف» لغوغول، «السيدة والكلب» و«الشقيقات الثلاث» و«بستان الكرز» و«النورس» لتشيخوف، «الأحمر والأسود» لستاندال، «قصة مدينتين» لتشارلز ديكينز، «البؤساء» و«أحدب نوتردام» لفيكتور هوغو، «الأب غوريو» لبلزاك، «مدام بوفاري» و«سالمبو» لغوستاف فلوبير، «كل شيء هادئ في الميدان الغربي» و«للحب وقت وللموت وقت» لأيريش ريمارك، «إمرأة ورجلان» لفرانك رومان، و«زمن القتلة» لهنري ميللر، و. . . . «المسخ» و«القضية» لكافكا وكتب أخرى وأخرى، يستطيع أن يعدد عناوينها ساعات وساعات دون أن يصيبه ملل. لكنه خاف أن يجهز ليس على الكتب المتبقية الأخرى، إنما على المجلات التي احتفظ بها في غرفته. فتركه ينتهي من تمزيق ما وقعت عليه يديه ويخرج.

انحنى يوسف قليلاً، ومد رأسه تحت السرير. سحب كارتوناً كبيراً، ثم كارتوناً صغيراً، اختفى خلفه. كان الكارتون الكبير مليئاً بمجلات الأطفال: سوبرمان، الرجل الوطواط، الرجل البرق، بساط الريح، لولو، بونانزا، المغامر، سمير، ميكي. تذكر ثلاثة أطفال من زملاء المدرسة الابتدائية، الذين، بعد رؤيتهم مرتين أو ثلاثاً لمجلة سوبرمان جلبوا معهم قطع قماش ملونة، تبين لاحقاً أنهم قصوها من الألبسة الداخلية الطويلة آنذاك لأمهاتهم، لبسوها مثل العباءة، عندما أصبحوا على سطح المدرسة، وقرروا رمي أنفسهم من هناك، والطيران مثل سوبرمان. منذ ذلك اليوم أصبحت قراءة السوبرمان ممنوعة في المدرسة، وحلت محلها قراءة مجلة «الرجل الوطواط»، أو «الرجل المقنع»، زورو.

الكارتون الثاني، الصغير، امتلأ بالأقنعة. عشرات الأقنعة المصنوعة من الكارتون الخفيف أو الورق الشفاف. تذكر لعبة الأقنعة التي كانوا يلعبونها، عندما كانوا صغاراً، والتي تحولت إلى شغف بالنسبة إليه، منذ موت البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، منذ أن فكر أن الأقنعة هي الوسيلة الوحيدة التي تجعله يغطي وجهه، ويلغي الشخص الذي مد كعكة الموت بيده للبنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء. وكان يكفيه منذ ذلك الوقت أي قناع، مهما كان بسيطاً، المهم أنه يستطيع بهذا الشكل أخذ دور البطل المقنع الذي يحارب الأشرار في كل مكان. كان الأطفال يعشقون تلك اللعبة مثله، وكان حماسه وحماس أخيه - الذي لم يفهمه إلا لاحقاً عندما يكبران - يشجّع غيرهم من الأطفال على اللعب. وكثيراً ما كانوا يزودون شخصياتهم السينمائية المحبوبة، بالأقنعة، ذكوراً وإناثاً، الشخصيات التي ظلت ذاكرتهم تحتفظ بها من زياراتهم السينمائية القليلة، والتي كانت تقتصر على أيام

الأعياد وأيام المناسبات. أقنعة لتشارلي تشابلن، وستانلي و. . . ، لكاري كوبر، لجون واين، وآخر لآفا غاردنر، لدوريس داي، لجيمس ستيوارت ولأودي هيبرون، لهمفري بوغارت، ولاورا بقال، أغلب شخصيات أفلام الأسود والأبيض، وقليل من الأفلام الملونة، التي كانت تُعرض في تلك الفترة؛ ولكن ظلت أكثر الأقنعة المتوفرة في السوق، هي أقنعة زورو وهرقل وسوبرمان وماتشيستي، ربما لأنها أكثر الأفلام التي عُرضت في تلك الأيام. وعندما كانت تعوزهم النقود، كانوا يحاولون بأنفسهم صناعة بعضها، ثم يلونونها إما بأقلام الأصباغ التي في حوزتهم، أو يسرقون أقلام ماكياج من أمهاتهم، وكان أخوه الأكثر براعة في تصنيع الأقنعة، وأسرعهم. كان يمكن أن ينهي يومياً عشرين قناعاً على أقل تقدير، وأغلب الأقنعة التي صنعها، كانت أقنعة حيوانات مفترسة، وحوش كاسرة، ديناصورات، قطط متوحشة، وهنود حمر، ورجال سود. لكن مهما بذلوا من جهد بتصنيع أقنعتهم، فإنها تظل أقنعة بسيطة، على عكس هذه الأقنعة التي عثر عليها مرمية بشكل فوضوي في الكارتون.

كانت أقنعة مصنوعة بشكل محترف. وليست كلها أقنعة متوحشة، بعضها يحوي على الكثير من الدعابة، مثل أقنعة الطيور البسيطة أو الحيوانات المألوفة. لماذا تركها هنا؟ سأل يوسف نفسه، بينما راحت يده تعبث بالأقنعة، وكأنه يفتش عن قناع معين. وفجأة التقطت يده أحد تلك الأقنعة، وكأن القناع باغته بوجوده هناك، بين كل تلك الأقنعة التي لا تناسبه كانت أقنعة أكبر حجماً منه، مصنوعة بصورة متقنة.

كان قناعاً صغيراً ملوناً، بالبنفسجي الغامق والأسود البراق، وعند فتحة الفم العريضة بعض الشيء، رُسمت أسنان طويلة، لونها أحمر، سال اللون قليلاً إلى طرف الحنك. أما الجزء العلوي فقد حوى بالإضافة إلى العينين، على عين ثالثة، في وسط الجبهة، لكن للغرابة لم

تلون العيون باللون الأسود، إنما باللون الرمادي الغامق، وكأنها توحي بأنها عيون فهد. ذلك ما يوصي به أولاً الحاجبان أيضاً، اللذان رُسما بشكل كثيف ووصلا حتى الصدغين، وثانياً الشاربان المرسومان بشكل يشبه شاربي القط. كانت مقدمة القناع مرتفعة بعض الشيء، عند طرفيها، عند الحاجبين تقريباً، حُفر ثقبان رُبط بهما خيط من البلاستيك، يُشد حول الرأس عند لبس القناع. ربما يبدو القناع مرعباً للوهلة الأولى، لكن عند التمعن به بصورة جيدة، يكتشف المرء فيه عنصراً طريفاً، نعم، فيه ما يوحي بالضحك أيضاً، وذلك ما عرفه فوراً، وهو في جلسته تلك.

قلَّب القناع بين يديه، فسقطت منه نظارة، إما كانت مربوطة به بخيط انحلّ مع الوقت، أو وُضعت ببساطة إلى جانب القناع، كانت النظارة الوحيدة في الكارتون، من المحتمل جداً، أنها كانت جزءاً مكملاً له. فقدت النظارة لونها، الذي ترك خيوطاً محكوكة. رفع النظارة أمام وجهه، وحاول التركيز على لونها. وضعها على وجهه، وظل يعاين السقف لدقائق معدودة، وفجأة، قفز من مكانه، وتذكر، أنه يعرف هذه النظارة، وأنها كانت بنفسجية اللون. رجع، وجلس في مكانه، وراح يتذكر، أن تلك النظارة البنفسجية اللون، المغلقة عند الأطراف، والتي كان يعتقد حتى لحظة تذكره لها، بأنه وجدها مع القناع، كانت أصلاً جزءاً من القناع، كما تذكر أيضاً أنه حصل على هذا القناع، عند مدخل دار سينما ما عاد يتذكر اسمها.

استغرق منه التفكير في القناع وقتاً طويلاً، وعبثاً حاول تذكّر اسم الفيلم، وعلاقة القناع به، ولماذا تسلمه، عند مدخل السينما. قلَّب القناع مرات عديدة بين يديه، لعله يجد اسماً أو شيئاً مكتوباً عليه. كانت الغرفة معتمة بعض الشيء، رغم أن الوقت نهار. فكر في النهوض وتقريب القناع أكثر من لمبة الضوء، كانت تلك اللحظة التي عرف فيها،

بأنه يجلس في الظلام، ولا يعرف منذ متى، فها هي بغداد على عادتها تعيش ساعات انقطاع التيار الكهربائي. ومن العبث أن يفكر في عودة التيار الكهربائي، فمن الممكن أن يستمر ساعات طويلة أو حتى اليوم التالي.

أعاد الكارتونين إلى مكانهما، وترك فقط القناع والنظارة. وضع القناع والنظارة على وجهه، وتذكر أنه كان القناع الأول الذي لبسه بعد مغادرته سجن الأحداث، ومن الجائز جداً - بينما يتذكر الآن - أن القناع هذا هو الذي حمله على فكرة تغيير اسمه، رغم أنه كان من الصعب على صبي في مثل سنه آنذاك تشكيل فكرة ناضجة حاسمة، لكن صدمة موت البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، والفترة القصيرة التي قضاها في سجن الأحداث، جعلتاه يفكر في ذلك، رغم الضبابية التي أحاطت بعض الشيء بما فكر فيه.

وضع القناع والنظارة على وجهه، كما فعل عندما كان صبياً صغيراً، عندما كان يضع القناع على وجهه قبل النوم، مصراً على لبسه طوال الليل، لأنه كان يريد أن يستيقظ، ويخرج إلى الشارع ويراه الآخرون بوجه آخر، بالوجه الذي اختاره. كان كمن يهرب من كل ما يقولونه: «يوسف القاتل»، في البيت، في المدرسة وفي الشارع، ولكنه لا يدري أنه كان يهرب من نفسه أيضاً. والآن، كم يرغب أن يفعل الأمر ذاته، أن يخرج إلى الشارع، ويطلب من الناس أن ينظروا إليه جيداً، أن يتمعنوا في وجهه، وألا يخطئوا ويظنوا أنه يشبههم، جلاداً أو ضحية مثلهم، وأن يتأكدوا بأنفسهم، بأنه شخص آخر، ليس له علاقة بكل تصوراتهم، ولا يتطابق مع صورة الشخص الذي يظنونه. إنه شخص آخر، إنه «الغريب» كما اتهمه اخوه، لكن ليس أحد «الإخوة الأعداء» «الشياطين»، كما ظن الأخ، كلا، إنه شخص آخر وحسب، ليس

سوبرمان أو الوطواط، أو العنكبوت، أو زورو كما إعتقد في أيام الطفولة، أيام الألعاب المخترعة، إنما هو شخص آخر، ما زال في طور الكينونة، شخص ما زال لا يعرفه ذاته، شخص ما زال يبحث عنه، شخص يمكن أن يكون أي شخص ولا شخص، أو على الأقل، يمكن أن يكون أي شخص، باستثناء الشخص الذي نخره اليأس وغادرته العزيمة في تلك الليلة، وقرر أن يتبنى اسم أخيه، رغم أن هذا لم يكف من تحذيره، وتحمل ما سينكشف إليه في المستقبل. والذي لم يخطئ، عندما قال له: «لا تصلح لتحمل هذا العبء، فأنت ومنذ الطفولة، لم تُجد صناعة الأقنعة». وإذا كان يعتقد أنه قادر على التلون والتغير طوال كل هذا الوقت، فلماذا يشعر الآن دفعة واحدة بالعجز، منذ أن عرف أن عليه الرجوع من جديد إلى قناعه القديم، لأن من يلبس قناعاً، لا يستطيع نزعه بمثل هذه السهولة، إنما عليه أن يذهب باللعبة إلى مداها الأخير؟ لماذا تفاجئه هذه المعرفة، وتجعله يظل مسمراً في مكانه؟ هل لأنه تعب، أم لأنه وباستبداله الأقنعة في السنوات الأخيرة، لم يعد يعرف من هو، وأي قناع يغطي وجهه، ربما لبس في النهاية قناعاً خليطاً من كل هذه الأقنعة، قناعاً سميكاً، غطى وجهه، نما معه مع الأيام، حتى أصبح جزءاً منه. وأنه يكتشف بعد كل هذه الأعوام، أن القناع هذا وعاء لأقنعة أخرى، تُصب على وجهه، وأن هذا القناع وليس غيره، هو الذي صاحبه، ولم يستطع منه فكاكاً، القناع الذي يقول له: أنت لا أحد!

خمسة وثلاثون عاماً مرت على لبسه القناع للمرة الأولى، خمسة وثلاثون عاماً من السنوات المفقودة، لم يربح منها شيئاً، بعض الذكريات وحسب، والكثير من الفقدان والخوف. رغم أن جوزيف ك، ربما سيقول له، عليه أن يشكر الخوف، لأنه بدونه، لما كان غادر البيت

وبدأ بالبحث عن نفسه، ومن يبحث عن نفسه يجدها، قبل أن ينتهي إلى الموت، وقديماً قال الحكيم سقراط: ابحث عن نفسك، وكأنه كان يهيئ نفسه للموت. وهو لا يريد أن يموت، ولأنه لم يشأ أن يموت ذات يوم، فقد نفسه أكثر من مرة؛ ولأنه لم يشأ أيضاً أن يتحول إلى قاتل، انتحل اسماً آخر، وهوية أخرى، وأصبح شخصاً آخر؛ ولأنه لا يريد أن يموت هذه المرة أيضاً، قرر أن يعود إلى يوسف القديم الذي أضاعه في زحمة متاهة الأسماء التي أحاطته. ولكن لماذا يعتقد أن الآخرين سيتركونه يعود ببساطة إلى نفسه. كلا، لا تسير الأمور دائماً بمثل هذه البساطة، فمن يلبس قناعاً، ويعش بالانتحال، سيصعب عليه العيش بغير هذه الطريقة، وحتى عودته لما كان عليه قديماً، ستكون انتحالاً جديداً، لأن عليه التدرب على دوره الذي تركه وكف عن أدائه طوعاً منذ زمن بعيد. وهو في الحالة الثانية، كمن يعيد الحياة لشخص رآه يحتضر أمامه ولم يقدم له أية إسعافات. من ينتحل يعش على حساب موت آخر. ولكن ألن يقول له جوزيف كرملي أو جوزيف ك أيضاً، الموت يمكن أن يملك وجوهاً عديدة، فمن الجائز أن يموت الإنسان بهذه الطريقة أو تلك، والنسيان هو أشد أشكال الموت وحشية، ومن يفقد نفسه، ينسها. نعم يمكن أن يموت الإنسان بأشكال عديدة، لكنه لن يحيا إلا بشكل واحد: أن يعيش نفسه. ومن لا يعش نفسه، هو شخص ميت. إذن سيجيبه: كلنا أموات، كل البشرية أموات، إذ ليس هناك من يعرف نفسه، وسيجيبه جوزيف كرملي أو جوزيف ك: لكن هناك من يحيا على الذكرى. وهو على أية ذكرى يعيش؟ هناك: من جهة صاحب الصوت، الآخر الذي لا يتركه بسلام، ويذكره: «إن على القاتل تسديد ديونه»؛ ومن الجهة الأخرى، ذكريات قليلة، ليست بالضرورة تعود إليه، ومن المستحيل أن تكون لها علاقة بذكرى العثور على نفسه. ذكريات لها علاقة أكثر بتلك اللعبة التي يُطلق عليها الحياة،

التي اخترعها الآخرون له، في الماضي، وفي الحاضر، والآن يريد صاحب الصوت اختراع المستقبل له أيضاً، يتركه وعاءً فارغاً، بلا شيء. كم بودّه أن يملك ماضياً يخصه هو شخصياً على الأقل، يستطيع أن يملأه ببعض اللحظات الجميلة من حياته، في طفولته على الأقل. فباستثناء صورة غائمة يحلم بها منذ سنوات، لبنت صغيرة، بجدائل شقراء وعينين خضراوين، تلبس فانيلة زرقاء، تجيء وتروح، تظهر بصورة خاطفة وتختفي، مرة تلعب معه، مرة تلوح له، وهي على ظهر حصان، ومرة تريد أن تصيح به، تنادي اسمه، فتضحك، ثم تبكي، ثم تختنق وتختفي إلى الأبد، دون أن تستطيع أن تقول كلمة وداع.

لاشيء غير هذه الذكرى، فهو كلما تذكر شيئاً جميلاً، كان أخوه هناك يقف مترصداً له، يسرق منه كل ما تقع عليه عيناه ويعجبه، حتى الأقنعة، كان هو الذي يقرر أي قناع يلبس. أخوه الأكبر منه، الذي استحوذ على كل شيء، المدلل، الذي لم يشأ أحد تصديق موته، أو اختفائه. وإذا تذكر تلك الأيام، فلن يتذكر غير الفخر بأخيه، لكن الفخر الذي لم يخلُ من الحسد والغيرة والكراهية، التي تحولت في ليال عديدة إلى رغبة في القتل. ربما عليه، عندما يفكر في الماضي، ألا يتحدث عن ذكريات، إنما عن لحظات عابرة، لحظات خاطفة، ليس عن المشاعر، إنما عن ردود أفعال قصيرة، وحتى علاقته بزوجة أخيه، والنوم معها، لها علاقة بالأقنعة، لم يجرؤ يوماً أن يطلق على ما كان يقوم به معها، «ممارسة حب»، تأتي عن حب، أو على الأقل ممارسة جنسية عابرة لها علاقة بالود أو الرغبة في التقرب من الآخر، على العكس، كل ليلة، قبل وبعد أن ينام معها، كان يبتعد عنها، فقط في لحظة أن يكون متشابكاً معها، متداخلاً معها، لم يعرف من كان هو، وكان كل ما يقوم به، يعتقد أنه يفعله باسم شخص آخر؛ مرات عديدة أراد أن يقول لها، بأنها كريمة جداً، باختراعها له، باختراع وضعهما هما

الاثنين، لكنها لا تميز الفارق، بينهما، لأنها تعتقد، دائماً تعتقد، أن شيئاً ما سيحدث في المستقبل، شيئاً إيجابياً بالطبع، شيئاً من كل تلك الآمال العالقة في رأسها، والتي صحيح أنها لم تبح بها بصوت عال، لكن كل تقاسيم وجهها تتحدث عنها، والوجوه لا تخون، ووجهها خاصة، وجه الأرملة الشابة، التي ما زالت في بداية شبابها، قبلت الزواج من أخيه مع بناته الأربع، وتعاملت مع البنات مؤمنة أنهن بناتها. بينما هو، يوسف، لم يعد يؤمن بشيء منذ سنوات طويلة، منذ أن اخترعوا له هوية أخرى، أو منذ أن عرف أن الحياة أقنعة ومرايا، أو منذ أن عرف بأنه مهما خطط أو وعد نفسه بشيء، يضيع هباءً، مجرد هذر فارغ يقنع به نفسه، أو من يعتقد أنه يكونه، لأنه في النهاية ميت منذ زمن بعيد، جثة لا تختلف عن جثث البلاد جميعها، عن كل تلك الجموع المحتشدة في الخارج، حتى في توقيت موتها، كلها تسير إلى حتفها بعجالة وحماس، في الشوارع وفي الساحات، تدب إلى قبورها بنشاط مثل النمل، في المناسبات وفي الأيام العادية. لم يقل لها ذلك، لأنه كان شخوصاً متوزعة: شخص يفكر، وشخص يفعل. شخص يرى، وشخص يغطي وجهه، لكي لا يتعرف عليه أحد. هل كانت تراه وتسكت؟ من أين له أن يعرف الجواب؛ لكنه يعرف أكثر، بأنهما كانا متساويين في عالم واحد يسكنه الخراب، كان يوحدهما الألم والبؤس والموت، وأخوه. وربما هي في أفضل حال منه، لأنها، عندما غادرت مع البنات، اللواتي كانت تقول بأنهن بناتها، اكتشفت لاحقاً، أن الحياة لا تتوقف، وأن قصة فشلها الشخصي وحزنها ولعبتها المقنعة، ساعدتها في التقرّب للحياة.

الآن يفكر أن ذلك، ربما كان الشيء المشترك بينه وبينها، أنه مثلها لم يجرؤ على التطلع إلى نفسه في المرآة. فلو كان عنده القليل من الشجاعة، أو كان عنده، ولو دافعٌ صغير للانتحار آنذاك، أن يقف أمام

المرآة، لرأى نفسه، هناك، متطابقاً تماماً، مع تلك الصورة التي رآها في أحد الأفلام، صورة الجندي الواقف مع حشد كبير من الجنود، على قمة جبل، وتحتهم المدينة، أضواؤها ضعيفة، تبرق من البعيد، في البرية، ويشير بيد شبه مشلولة، إلى الضابط، ويُخرج صوتاً مخنوقاً بصعوبة: «تلك هي دارنا، تنتظرني أمي هناك»، يعرف أنه لن يرى أمه هناك، يعرف أنه ميت ولن يعود. سنوات طويلة تَصرَّف يوسف، دون أن يعتقد لحظة، بأنه سيعود يوماً، إلى المكان ذاته، الذي بدأت فيه لعبة الأقنعة، يأتي زاحفاً، يجرجر قدميه، يشم بقايا قديمة، ما عادت هناك، لرائحة عالقة في الأنف، لذكرى قبلة قديمة، أو جملة. باحتكاك الأصابع، بالتفكير في أخيه، بكل الرفض واللامبالاة وفقدان الحنان هذا الذي تحويه وجوه الأموات. نعم، جاء إلى هذه الغرفة المزدحمة بفراغ الموت، التي يزيد جدبها الآن انقطاع التيار الكهربائي، الغرفة التي أصلاً، لا حياة فيها، لا ذكريات تعود له، غير القصص التي ترويها الأقنعة، حيث لا فارق بين الليل والنهار، وحيث كل شيء يكون متساوياً، حاضراً أبدياً، يقرره القناع.

لم يستطع مغادرة الغرفة بسرعة، وكأنه ينتظر شيئاً ما يحدث فيها. شغله القناع الذي ظل جاثياً على صدره وهو مستلقٍ على السرير، طويلاً، قلّبه بين يديه متفحصاً. فكر في صاحب الصوت، في شريكه الذي يطالبه بالذهاب بالانتحال إلى نهايته، يوسف الثاني، وتساءل عما إذا كان هو الآخر، يجلس الآن في مكان ما، في غرفة أخرى، يمسك في يده قناعاً آخر، مثل هذا القناع، أو قناعاً آخر شبيهاً به، ويفكر مثله، يتساءل مثله مع نفسه، يهرب كما يفعل هو، منه وإليه، أو هو الآخر مجرد شبح، ليس له علاقة بنفسه، مجرد شبح يتحرك في عالم من أشباح، في متاهة تزدحم بالأقنعة والمرايا، أو هو الآخر مثله: متعب،

متعب جداً. ولكن عبثاً ما يفعل، فللحظة فكر، حتى وإن كان هناك هذا الشخص الآخر، في مكان آخر، أو في بلاد أخرى، يعيش لحظات مثله، عالماً مشابهاً، إلا أنه من غير الممكن أن يشعر بالألم ذاته. هو وحده، كما لو أنه يعيش على الكرة الأرضية وحده، وليس هناك شخص آخر يشاركه، حتى ولو كان شاهداً. ألا يحدث لنا ذلك عندما نشاهد سوية الفيلم ذاته، أو نقرأ الرواية ذاتها، أو نقص القصة ذاتها؟ كل شخص يحمل ألمه معه، كل شخص يروي قصته، ولكل قناع قصة أيضاً، حتى الأشباح. نعم حتى الأشباح. حتى الأشباح. كرر يوسف تلك الجملة، وتساءل مع نفسه أيضاً، ما إذا كان هو الآخر: شبح. شبح. شبح.

لبرهة، توقف عن التفكير، توقف كل شيء فيه، وكأنما حتى الدم لم يعد يضخ في الأوردة والشرايين. كأنه تذكر أمراً مفاجئاً، ويخاف أن ينساه بعد لحظة، أو أن يُسرع إليه ولا يعثر عليه هناك، في مكانه. نهض يوسف، ووضع القناع في جيبه. نزل سلالم الدرج ببطء. اقترب من خالته. كانت نائمة. أخرج بعض النقود، تركها لها على المنضدة الصغيرة. فتشت عيناه عن الحقيبة التي تركها في الصالون. رآها تستقر قريبة من الصوفا التي نامت عليها خالته. حمل الحقيبة وقرر مغادرة البيت.

الفصل الخامس

في زيارة جوزيف كرملي أو جوزيف ك: الحديث عن التفجيرات والأمراض الشعبية؛ تزوير الهويات والشعراء والقتل

عندما غادر البيت، وأصبح في الشارع من جديد، راح يتأمل وجوه الناس بدقة، وتساءل مع نفسه، هل يحمل كل واحد، منهم، مثله قناعه في جيبه؟ صعد في أول سيارة تاكسي مرت به، وطلب من سائقها أن يأخذه إلى شارع الرشيد. توقفت السيارة. فتح الباب. رمى الحقيبة أولاً على المقعد، ثم دخل ليجلس إلى جانبها. أغلق الباب. فتحركت السيارة.

راح يتأمل وجوه الناس من مكانه، في المقعد الخلفي، وفكّر: من الجائز جداً، أنهم سيكتشفون يوماً ما، أن وجوههم قد نمت بحيث صارت توأم قناعها. تذكر أخاه، كيف أنه كان يركع على ركبتيه خمس مرات في اليوم الواحد للصلاة. وكان، عندما يسأله كيف يقوم بذلك وهو غير مؤمن، ولا يعرف السور القرآنية الخاصة بالصلاة ولا غيرها، كان يجيبه: «نوع من التمويه من شأنه أن ينتج في نهاية الأمر تبريره الخاص بالإيمان». وكان كثيراً ما يقول له، ستكتشف ذات يوم، بأن من الضروري جداً أن تلجأ للقناع، حتى عندما تصبح عندك سلطة، «الضعيف والقوي عندهما أسباب وجيهة ومبررة للعثور على ملجأ لهم خلف القناع». وكان أخوه، حتى اختفائه أو موته المفترض، ينفق الكثير

من وقته بدراسة الأقنعة، وكان حريصاً في حياته القصيرة التي عرفها يوسف عنه، على التصرف على النحو الذي يتوقعه منه الآخرون، أن يستبدل أقنعته، كلما طرأت أزمة جديدة، يرتدي قناعاً جديداً، فإذا بوجهه ينمو وينمو حتى يلائم القناع. فكر يوسف في قناعه الذي لبسه منذ سنوات طويلة، رغم أنه يعرف أن ما ينقصه هو أنه لا يجيد اللعبة مثل أخيه. كان يونس أكثر براعة بلبس الأقنعة، يلعب بها كما كان يشاء. وكثيراً ما كان يستبدل هويتيهما متى ما يشاء، يساعده في ذلك الشبه الكبير بين الاثنين.

«حضرتك تأخرت في البيت، أكثر من ساعتين ظليت أنتظرك»

تعجّب يوسف لحديث السائق، فقال له:

«ولكن من قال لك أن تنتظر؟»

فأجاب:

«أصدقاؤك»،

ثم أشار إلى سيارة خلفه:

«أخذوا تاكسي آخر، قالوا خليه لوحده يصعد وياك»

ثم أكمل، عندما لاحظ في المرآة الخلفية وجه يوسف المتعجب:

«عجيب، كيف تغيرت الناس بسرعة. أصبح النسيان عادة. آخ لو يخترعون بالفعل آلة ضد النسيان!»

فرك يوسف بالفعل عينيه واستدار إلى الخلف، ليتأكد مما إذا كان الشخصان اللذان قد أشار إليهما، صعدا في تاكسي آخر. لمح من البعيد وبشكل ضعيف يداً تلوح له، حاول التعرف على صاحب الوجه، لكنه لم يستطع، ففكر أنها بالتأكيد هلوسة من هلوساته.

«عجيب كيف تغيرت الناس».

سمع السائق يكرر جملته ويعلق من مكانه.

فسأل وهو ينظر إلى وجه السائق في المرآة الأمامية:

«ماذا تقصد؟ من هو الذي تغير؟»

فأجاب السائق:

«الناس. كلهم. تمعن فيهم!»

عاين يوسف وجوه المارة. فكر في جملة السائق، لكنه لم يجد فارقاً. كانوا يبدون له، ليسوا متشابهين فقط، إنما متطابقين بكل ما يقومون به، من طريقة حديثهم حتى مشيتهم. ومهما حاول التمييز بين وجوههم، لا يجد أي فارق. الشعر أسود، الشاربان كثيفان، واللحية طالت بعض الشيء، أما تجاعيد وجوههم فقد شاخت مبكراً، من الصعب التمييز بين أعمارهم، وكأن البلاد كلها وصلت في آن واحد إلى سن معيّنة. لبسوا ملابس متشابهة. لا اختلاف بينهم. أخذوا حتى شوارب بعضهم، كأن كل واحد منهم، يخاف أن يملك شيئاً خاصاً به، وفعل كل ما في وسعه، لكي يكون واحداً من المجموع، يختفي بين الجموع. حاول التركيز على ملامحهم، فربما سيكتشف وجهاً آخر، يميز نفسه. عبثاً يفعل. يعرف أن الناس عادة تميز الوجوه بسبب درجات الفرح أو الحزن، التعاسة أو الألم، الغضب أو الخوف. لكن وجوه المارين به، تجمع كل ذلك، وماذا عن وجهه، الآخر، الذي غطاه القناع؟ هل ينفي وجوده، لأنه ما عاد يتذكره، أم أنه تعمّد طرده من ذاكرته؟ وهل رحلته اليوم، هي هروب من صاحب الصوت ولبس قناع جديد، أم هي رحلة باتجاه ملاقاة صاحب الصوت ونزع القناع الذي لبسه، والذي بدأ يشعر به يضيق، ويشد على جلد وجهه؟

«منو كان يعتقد، أن الناس تتغير بهذه السرعة؟»

كرر السائق، مؤكداً كلامه، عندما لم يسمع أي تعليق منه، وكأنه

يريد إبعاد أي مسحة من الشك. فكر، ربما هم تبدلوا بالفعل، ولكن ليس كما يعتقد السائق، أو أنهم، على الطريقة التي يعتقد بها السائق. فما تبدل ليس وجوههم، إنما أقنعتهم: لبسوا أقنعة جديدة.

«تصور زوجتي ماتت بعد إصابتها بالسرطان، تركت لي أربعة أطفال، ومنذ ذلك اليوم أدور على زوجة تهتم بأولادي. تخيل، بنتي الكبرى التي هي في الثانية عشرة من عمرها تشترط لقبولها بزواجي أن آخذ رأيها عند اختيار زوجتي الجديدة. مأساة مو بالله عليك؟ حتى الجهال تخبلوا».

ثم أضاف، عندما لم يسمع تعليقاً:

«منو كان يعتقد، لحد وقت قريب، كل شيء يتغير بهذه الصورة، وتدخل علينا ثقافة أخرى، منو كان يعتقد راح نشوف وجوه من كل العالم. تعرف عددهم؟»

فسأل وكأنه يصحو من غيبوبة مؤقتة:

«أي تغيير؟ من تقصد؟»

«طبعاً ما اقصد جماعتنا، اللي ظلوا محصورين إبن العم يتزوج بنت عمه. جماعتنا ما تغير منهم شي، العوران ظلوا ينتجون عوران حتى لو وضعوا عيون من الجام، أقصد التغيير حولنا، أقصد هذه الناس القادمة من كل أنحاء العالم»

قال السائق، ثم أكمل قبل أن يسمع جواباً:

«حلو واحد يشوف ناس من جميع الأجناس، لسانهم يرطن بمختلف اللغات، وكل لغة ثقافة، خاصة اللغة الإنكليزية، لغة عالمية، حتى لو بلكنة أهل تكساس».

ما زالت الشمس ترتفع في السماء، وما زالت أشعتها حارقة. شعر بالعرق يحرق جبينه، مسحه بكم قميصه.

«حضرتك تشكو من شيء، ساكت، غايب عن الوضع، يبدو عليك مريض؟»

جفل بفزع، مستغرباً سؤال السائق. سراب هي الأخرى، قالت له مرات عديدة، بأن عليه مراجعة طبيب، قبل أن يقوى عليه المرض وتسوء حالته. هل كان مريضاً بالفعل ولا يدري بذلك. صحيح أنه لم ينم في الليلة الماضية، بالتأكيد تبدو آثار التعب على وجهه، لكن هل وصلت به الحال للمرض، أم أنه يبدو للآخرين مريضاً، لأنه بدأ ينزع قناعه؟ تذكر أنه لم ينظر إلى نفسه في المرآة منذ وقت طويل. فكر، أن السائق أخطأ بالتأكيد، لأنه يرى للمرة الأولى وجهاً مختلفاً بالفعل.

«هل أبدو مثل مريض».

«إسمع أخي، أنا بهذه المهنة أكثر من عشرين سنة. ملايين الناس ركبوا سيارتي. مع الوقت تصير خبرة عند الواحد، يعرف بسرعة، بيش يفكر الركاب. لا تفهمني غلط. أقصد، الواحد يعرف على الوجوه، شنو الحاصل، واضح عليك غايب».

فسأله، وهو يمسح العرق الذي بدأ يحرق جبينه:

«كيف تستطيع التمييز بين الناس؟ وجوههم كلهم متشابهة؟»

ضحك الرجل، وكأنه كان يتوقع هذا الكلام:

«لازم حضرتك، كنت إما مسافر لغير بلاد أو مختفي بغير مكان، ما تعرف الناس زين. لو كنت عايش بين الناس، راح تعرف، كل وجه وتعبيراته. تفحّص وجوه الناس بدقة، راح تشوف فيها علاقة بين تعبيرات الوجوه وملامح المدينة. كل ما مر بالمدينة من ويلات، وحزن، ودمار تجده على وجوه الناس، لا تغشك شواربهم المتشابهة، هذه كلها شوارب مستعارة».

ظل محافظاً على صمته، إذ كيف يستطيع إقناع السائق بأن ما يقوله

صحيحاً إلى حد ما، لكنه ليس دليلاً على وجود سر متفق عليه، إنما هو علامة لاندحار مشترك، لحلف مشترك، وكأن الاثنين، الناس والمدينة، لبسا قناعاً واحداً، يتحدث عن ذلك الاندحار المشترك.

«على أية حال، إذا تحب آخذك للطبيب، أعرف طبيب أخصائي جيد، بمنطقة حافظ القاضي».

فسأله للفضول:

«طبيب مختص بأي شيء؟»

فأجاب السائق:

«الأمراض العامة. أنت تعرف تسعين بالمية من أطبائنا، هم أخصائيين بالطب العام. لا تصدق، إذا كتبوا على مدخل عياداتهم: أخصائي بكذا وكذا، كلهم يكذبون، حتى أطباء الشماعية»

توقف عن الكلام وراح يتطلع به في المرآة الخلفية:

«تعرف شأقصد بالشماعية؟ مستشفى الأمراض العصبية؟ عمرك زرت المكان؟ الله ينجيك منه. في الأيام الأخيرة يهرب المرضى من هناك. اليوم نشرت جريدة الفجر الجديد صورة ثلاثة مرضى. يقولون عنهم كانوا عسكريين سابقين، خطرين. واحد منهم، يقولون كان ضابط في الاستخبارات مسؤول عن التعذيب، قاتل من طفولته. لما كان عمره عشر سنوات قتل بنت المعلم. على شنو؟ لأن معلم الإنكليزية، أبو البنت رسّبه بمادة الإنكليزي. قصص عجيبة والعياذ بالله».

جفل يوسف من كلام السائق. كم تمنى أن يغلق أذنيه، أو أن يطلب منه التوقف عن الحديث، واختراع القصص، كما فعل الآن مع قصة هروب المرضى، لكنه فضل أن يلزم الصمت، وأن يسمع بحيادية ما يقوله السائق. ألا يثير الشك عنده، خاصة وأنه رآه يتطلع به في المرآة، ويعلق: «لا تخاف أخي، لا تخاف من المجانين، أولاً لأن

المجانين ما يطلع منهم غير الحِكَم، وثانياً لخاطرك راح نغير الموضوع»، ثم تساءل: «أين كنا؟»، ثم يكمل مباشرة بعدها، دون أن ينتبه إلى لون وجه يوسف الذي شحب فجأة:

«. . ها. . كنا في الأطباء. . ها لا تنسى إبني، الناس عندنا، أمراضها صعبة، ويمكن أن تكون مصابة بأكثر من مرض في نفس اللحظة. خذ مثلاً، زوجتي. منذ شبابها لحد الآن، وهي مريضة. تعرف كم عملية جراحية أجرت لحد الآن؟ من الصعب إحصاؤها. عملية للمرارة، عملية للمصران الأعور، عملية للبنكرياس، عملية للأمعاء الغليظة، عملية للقولون، عملية للحصى في الكلية، عملية للطحال وبعد. . . وبعد. مثل زوجتي، عمتي، وجيراننا، أما أنا، فالحمد لله، اختصرت ثلاث عمليات في عملية واحدة فقط، للبواسير والناسور والفطر، تصور ثلاثة أشياء في آن واحد. واليوم عندما قرأت بجريدتنا الحكومية الجديدة، كلمة رئيس التحرير تحت عنوان: ثلاثة في واحد، يقصد إصدار الجريدة لثلاثة ملاحق، ثقافي ورياضي واقتصادي، قلت الرجل الله يحفظه مصاب بالثلاثة: بواسير وناسور وفطر. تمنيت الدكتور اللي أجرى لي العملية موجود، حتى يقول له نفس الجملة اللي قالها لي: ها شنو يبين طيزك خربان عالآخر، وإلا ما تكتب الجريدة يومياً عن مرض البواسير. ذاك اليوم قرأت بالجريدة، مكتوب بأن البواسير، مرض شعبي في منطقة الشرق الأوسط، تسعين بالمية من مواطني هذه الأمة مصابين بالبواسير. لذلك مو من العجيب، أن يختص أغلبية أطبائنا بالجراحة العامة والطب العام. الاختصاص يعني وجود أمراض متميزة. ونحن عندنا شيء واحد نتميز به: أن نكون مرضى».

شعر بالسيارة تتوقف فجأة.

«وكأن ينقصنا هذا؟»

علق السائق وهو يشير إلى موكب ضخم من الناس، خرج من

الجهة الأخرى المقابلة، بدا كل شيء يشير إلى أنه يسير باتجاههم، ولكن على الجهة الأخرى من الشارع.

«رايحين باتجاه الإمام موسى الكاظم».

علق السائق.

ثم أضاف:

«ما سمعت بالحادثة أمس؟ قتلوا السيد عن طريق تفجير سيارته. انفجار ضخم. أكثر من مئة شخص ماتوا في هذا الاعتداء. قنبلة موقوتة كانت في السيارة. أما من السيد فلم يعثروا إلا على خاتمه وساعته وعمامته.»

راقب يوسف الجموع وهي تمر بهم. آلاف الرجال فقط، يبكون ويرددون بعض الهتافات الدينية، تتمنى للميت «الجنة» وتعده بأخذ الثأر، أو تعتذر لموته. كانوا يهتفون. رجال فقط، ساروا خلف هودج كبير، استقر عليه التابوت المفترض. وإذا صدق كلام السائق، فيجب أن يكون التابوت فارغاً، إلا من خاتم، وعمامة محترقة، وساعة، توقف الوقت عندها، عند لحظة موته. تفحّص الوجوه بصورة جيدة، ولاحظ أنهم متشابهون حتى في طريقتهم بالبكاء. جميعهم يبكون بوتيرة واحدة، ميلودي متطابق، يبدأ وينتهي في الوقت نفسه، ويُختم دائماً بحركة واحدة أيضاً، يمسحون دموعهم بأطراف دشداشاتهم أو قمصانهم. حاول وهو في مكانه، عبثاً العثور حتى ولو على فارق واحد بسيط. ثم سمع هتافاً يتكرر أكثر من غيره، يعبّر عن اليأس المشترك المرسوم على وجوههم، «اعذرنا، اعذرنا. . .إحنا مْقَصِّرين»، وكأنهم يعرفون حدود قدرتهم، ويعترفون بالذنب الذي يرتكبونه، ليس للمرة الأولى. قال لنفسه، إنه أمر غريب وجديد، طلب المعذرة هذا، فعادة لا ينطق أحد في هذه البلاد، بلاد المنتصرين والمسحوقين، كلمة «عذراً»، أو «آسف»، لا أحد يطلب الصفح من أحد، وكأن هناك اتفاقاً عاماً غير

مكتوب، يقول: إن الجميع على حق، وإن كل واحد يلعب دور الله. ولكن إذا كانوا يشعرون بالذنب إلى هذه الدرجة، لماذا لا يقومون بتغيير أسمائهم وهوياتهم مثلما فعل هو بعد موت البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء؟

«سمعت حضرتك بالحادث؟»

سأل السائق وكأنه ينتظر جواباً.

أشار بهزة من رأسه تؤيد ذلك، ويعرف بأنه يكذب على السائق، ولم يقل له الحقيقة، بأنه لم يسمع هذا الخبر، ولا أي خبر آخر، وبأنه منذ سنوات ما عاد يتذكر عددها، قرر الامتناع عن سماع الراديو ومشاهدة برامج التلفزيون. ظل محتفظاً بالجهازين مجرد ديكور في صالون البيت، وبالتأكيد، لن يصدقه السائق، إذا قال له، بأنه أعطى التلفزيون والراديو لأول لص دخل ذات يوم إلى البيت، اعتقاداً منه أنه سيعثر على شيء ثمين. هكذا لم يسمع ماذا يحدث في البلاد بشكل عام. كل الأخبار تصله متأخرة، لأنه أقام حاجزاً بينه وبين العالم الخارجي، وترك كل شيء للصدفة. أو لنقل إنه قرر توديع العالم على طريقته، أن يبني عزلته الخاصة. وكان يمكن أن تطول العزلة وتطول، لو لم يبدأ بتلقّي هذه المكالمات التلفونية، وبصوت أحدهم، يحذره مما سيحدث له، وأن عليه أن يهيّئ نفسه للموت، لأن «حان وقت قيام الساعة وعلى القاتل تسديد ديونه». طبعاً، كان يمكنه تجاهل صاحب الصوت، كما فعل مع الكثير من الأمور في حياته، لكنه منذ أن سمع بأنه مسؤول عن «موت آخرين»، توقف عن النوم بصورة طبيعية، وراح يفكر فقط في هذه الأرواح غير المرئية، الغائبة، لكن الحاضرة حوله، والتي تطارده بالسؤال ذاته: لماذا قتلتني؟ ولم يجد حلاً للهروب منها غير النوم. النوم أياماً وليالي طويلة. لم يفعل شيئاً غير النوم. وعندما زاره صاحب الصوت في نومه من جديد، ليؤكد له هذه المرة ما حذره

منه في التلفون، لم يستطع النوم لحظة، ظل يتقلب طوال الليل في فراشه، تزوره جثته هذه المرة: كان يرى نفسه ميتاً بوضوح. وعندما استيقظ في الفجر، ربما بعد أن نام لثوان قليلة، ولاحظ كيف أنه فتح الضوء، مضطرباً، يتصبب عرقاً، قال لِنفسه: «لا أريد أن أرى هذا الرجل النائم مرة أخرى، بفمه المفتوح، وريقه الجاف، وعينيه شبه العمياوين»، لا يريد أن يرى هذا الجسد الوحيد المتقلب مئات المرات، على فراش الزوجية، تحول إلى ما يشبه الصخر. بعد أن شعر بأنه ربما ميت بالفعل، مثل سراب، التي يظنها ما تزال على قيد الحياة، ولا يدري، وليس عليه أن يستيقظ فقط، إنما أن يظل يقظاً، وأن يخرج، يغادر، تلك هي فرصته الأخيرة للعيش، من غير المهم ما سيحدث.

«بيش تفكر إبني؟»

سأل السائق، بعد أن تطلع فيه من خلال المرآة.

«أكيد تفكر بالسيد الميت»

هل فكر فعلاً في السيد؟ ومنذ متى بدأ يفكر في شخص آخر غيره؟

«تصور الناس، بنوا له ضريحاً كبيراً، قبل ما يدفنونه هناك. حتى الآن، غير معروف منو قتله؟»

كم بودّه أن يقول للسائق، آه. نعم، حسناً فعلوا، لأنه زمن الأشباح ذلك الذي يمر عندنا، وهو يمر بسرعة أكبر من الزمن الطبيعي.

استمر السائق في حديثه:

«كان السيد بالإضافة إلى كونه عالماً بمختلف الاختصاصات، شاعراً أيضاً. وأتذكر قصيدة كتبها، يقول فيها، بأن أصله يتحدّر مباشرة من الملائكة، وأنه إذا خُير بين الموت أو البقاء حياً، مذلاً مهاناً، فإنه يفضل أن يغادر هذا العالم الفاسد، ويزور مجتمع الطاهرين الأموات».

فكر يوسف وهو في جلسته، من أين جاءت القناعة عند هذا

الرجل، بأنه من سلالة الملائكة؟ ومن أين يعرف الحدود الفاصلة بين العالم الفاسد وعالم الطاهرين؟ لو كان الأمر بهذه السهولة، لفعل الشيء نفسه منذ زمن بعيد، ولما ظلّ يتحرك وسط عالم من الأشباح. يعرف أنه لن يجد جواباً عند أحد على هذا السؤال، وأنه سيكسر محرماً، إذا تجرّأ على طرح هذا السؤال.

نظر إلى السائق. رآه يسوق سيارته بهدوء، يتطلع من المرآة الجانبية الصغيرة، مأخوذاً بالموكب الذي بدأ يختفي تدريجياً. فكر يوسف، وجه السائق مثله مثل الوجوه المغبرة للآخرين، الذين رآهم في المقهى قبل ساعات، لا تحمل ذاكرة، تتحدث بلغة جديدة لكنها صعبة، ملتوية أيضاً، لا تريد أن تعرف شيئاً عن التاريخ، وأكثر من ذلك، لا تريد أن تعترف بظهور الأشباح. كل شيء يعدي. وهم يعدون بعضهم البعض. يتحدثون عن موت الآخرين، لكن لا أحد يتحدث عن موته الخاص به. أحياناً، يشك فيما إذا كان هو الوحيد، المخدر بفكرة موته المفاجئ، وأنه اخترع قصة تسجيل قصته على آلة التسجيل، لكي يستطيع الحديث مع نفسه بحرية، من غير المهم حجم الفوضى أو اللاعقلانية اللتين يمكن لأحد غريب غيره، أن يجدهما في القصّة. كل مرة يرى العينين غير المتحركتين المحمرتين، والأعصاب المشدودة للشخص الآخر الذي يجرجره معه، يتحدث معه، الشخص الذي كله فضول وإرادة لتصفية الأمور ودفع الدين الذي عليه، والانتهاء من قصة حياته التي تقارب نهايتها، لكي يصبح بإمكانه إعادة تشكيل قصته الخاصة به، على هامش انتهاء قصة يوسف نهائياً، وليتوصل لراحة مطمئنة، لكي يمتلك قناعة ملموسة، يستطيع الإمساك بها، ويقول لنفسه: ها أنا، ذاتي. فقط بهذه الطريقة، يقول لنفسه: عندما يعرف المرء، من يموت هناك، يستطيع أن يموت بسلام.

«لم تخبرني، أين تريد حضرتك أن تنزل في شارع الرشيد؟»

انتبه إلى صوت السائق. تطلع حوله. رأى أنهما وصلا عند مدخل منطقة حافظ القاضي، فطلب منه النزول هناك. أعطى السائق أجرته.

فقال له السائق، وكان يتطلع في المرآة الجانبية، بينما كان يأخذ الأجرة:

«أصدقاؤك نزلوا وراءنا».

لم يعلق يوسف. سحب حقيبته، غادر السيارة بسرعة وصفق بابها خلفه. تطلع خلفه بحذر، فرأى الرجلين اللذين رآهما قبل الآن، واللذين عندما رأياه يتطلع بهما، سحبا جذعيهما ليختفيا خلف أحد أعمدة الشارع. هز كتفيه تعبيراً عن اللامبالاة، وفكر أنها ربما هلوسة من هلوسات السائق هذه المرة. فكر، حتى لو صح وأن هناك من يطارده، فإنه لا يكترث لذلك، ففي النهاية سينجح في تضليله، مثلما يحدث كل مرة. عبر الشارع بسرعة. سار على الجهة اليمنى من شارع الرشيد. واقترب من منطقة المربعة. عندما أصبح ملاصقاً للمكان القديم الذي كان فيه أسواق أورزدي باك، وقف يتطلع في الواجهة الزجاجية. رأى وجهه معكوساً هناك، على الزجاج. تساءل مع نفسه، فيما إذا كان مريضاً بالفعل، كما كانت تؤكد سراب مؤيدة أقوال الطبيب، وكما قال له السائق قبل قليل، أم أنه مجرد تعب يبدو عليه، لأنه يريد الانتهاء من القضية، على عجل، بسرعة، هذا اليوم، ويستبدل وجهه. ثم فكر، أي وجه عليه أن يختار الآن: وجهه أم وجه غريمه؟ وجهه، وهو طفل صغير، أم وهو صبي، أم وجهه عندما كان شاباً، قبل أن يصبح وجه الرجل، الذي صار إليه، قبل بداية هذه الرحلة؟ من أين يبدأ؟ من الطفولة؟ كلا، لأنه كان طفلاً ساذجاً، خضع لرغبات أخيه، الذي كان يقرر له كل شيء، وكان هو يقبل، لأنه وجد فيه نموذجاً ومثالاً، أراد السير على خطاه، تعلم منه لبس الأقنعة، وإخفاء الوجه الأصلي.

من أين يبدأ؟ من سنوات النضوج؟ ولكن أي نضج؟ هل يتذكر

وجهه في السنوات الأخيرة؟ هل يتذكر متى تطلع بوجهه في المرآة؟ كان يخاف حتى من وجهه، ويمكن أن يقول باختصار، إنه لم يعش في هذه السنوات، لم تكن له حياة، ربما خمس وثلاثين سنة، أو ربما أقل: عشرين سنة فقط؟ على أية حال في السنوات الأخيرة، حتى الأمس فقط، كان من المفترض أن يموت خمسين مرة، وهو لا يصدق أنه يسير الآن على سطح الأرض، كان يجب أن يكون مثل هذا «السيد»، تحت الأرض أو في قبر فارغ، ومنذ زمن طويل. كيف حصل وبقي على قيد الحياة. وهل هو فعلاً على قيد الحياة؟ مرة عثروا على مجلة إنكليزية في درجه في المكتب، فأرسلوه إلى الجبهة للتحقق من جدية ولائه للسلطة، ومرة أخرى رموه في السجن، لقراءته رواية أجنبية، «الأمير الصغير»، ومرة أخرى وأخرى، حف الموت بحياته لأسباب عادية ويومية، لا يمكن أن تخطر على بال أحد، بأنها خطرة بالفعل. من أين يبدأ؟ من سنوات الكذب ورواية القصص، التي وحدها تعلمها من أخيه الأكبر؟ متى بدأ خرابه ذاك؟ في سنوات الشباب؟

في البداية، كان هو، يوسف الذي نسي تقريباً اسمه القديم، مثلما نسي التهمة التي ألصقوها به، وكأنه نجح بالتطامن مع نفسه، أن أخاه هو الذي قتل في النهاية البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، وهو منذ أن استعار اسم وهوية «هارون والي»، صديقه الروائي الذي هرب من البلاد مبكراً، أصبح شخصاً آخر، يخطط للعيش بشكل آخر، بصفته الجديدة: هذا الشاب المليء بالأحلام، الذي فكر في العمل بعد التخرج، أو الدراسة في خارج البلاد، قبل أن تنشب الحرب وتفاجئه، مثلما فاجأت الجميع، باستثناء أخيه. بعد الحرب، ولا يعرف بالضبط متى بدأت الأمور تسير عكس ما كان يحلم. لا يتذكر متى بدأت ليالي الشرب والهروب. هل

حدث ذلك في السنوات الأولى من الحرب، بوقت قصير بعد زواجه من سراب، عندما لم يلتحق بالجيش، وكان هارباً يحمل هوية مزورة؟ أم بعد لبسه ثياب العسكرية، أم قبل مغادرته البيت والمدينة بقليل، وقبل أن يختفي أخوه، وتبدأ مريم بالنظر إليه بعينين مختلفتين؟ أم بعد مغادرته المعتقل، وتعرضه لانهيارات عصبية عديدة حتى تسريحه؟ أم بعد قراره بعدم العودة لبيت أهله بعد تسريحه، وعيشه تلك الحياة المزدوجة، بين سراب ومريم، بينه وبين أخيه، بين يوسف ويونس، بين بيت أهله وبيت الزوجية؟ أم بعد مغادرته لسراب دون أن يجد جواباً حتى الآن على ما حدث. ثم عيشه حياة المطاردين دائماً، يتنقل من مدينة إلى مدينة، ومن وظيفة إلى وظيفة، يداوم في المكتب باسم معين، ويسجل نفسه في الفندق باسم آخر؟

الآن وهو يسأل نفسه بعد كل هذه السنوات، وبعد كل ما حدث، يشعر بالعجز في الحصول على جواب، لا يعرف متى وأين حدث ذلك بالضبط، ما دام الآخرون، كل شركائه في القصة، ما زالوا غير مرئيين، مختفين، يتحركون ويتنقلون في ذهنه فقط، ذهنه، الذي دمغه الأطباء منذ سنوات طويلة بالضعف، رغم أن صديقه الروائي، «هارون والي»، سيقول: المهم ما يحيط بالحدث، وليس المهم، تصديع الرأس بأسئلة مثل: متى وأين؟ في بغداد، أم في البصرة، أم في مدينة أخرى؟ وإذا طبق كلام صديقه، فإنه سيترك المكان، وسيركز على ما حدث. لكن من جهة أخرى، لم يحدث بالنسبة ليوسف، في البداية، ما يشكل خطراً على حياة أحد، أو يحمل ما يدعو للقلق، كما يدّعي صاحب الصوت، وكما يتهمه. فباستثناء القصة القديمة، قصة البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، فإن كل ما قام به لاحقاً، كان مجرد طيش شباب، أو مواجهة العالم بوجه شرس، التمرد على السلطة من جهة، ومن الجهة الأخرى البحث عن حانات العالم السفلي،

الذهاب إلى ساحة الميدان أو منطقة 52 كل الراتب الذي كان يكسبه، كان يبذره بسرعة، بعد أسبوع واحد من بداية الشهر أو بعد أسبوعين على أبعد تقدير. لم يكن هناك غير الضعف الذي بدأ يستحوذ تدريجياً عليه، الشعور المضطرب والملحّ، أن يكون شخصاً آخر يختلف عن الآخرين، أن يكذب، في كل شيء، حتى في انضمامه للحزب الحاكم، أن يتحمل جملاً وشتائم وآراء، دون الحاجة إلى التفكير في نفسه حتى قليلاً، وكأنه أسلم نفسه طوعاً لقوة أكبر منه، تحركه أينما يشاء. وأن قدره أو شكل العيش، الذي يسعى إليه أو الذي يؤمن به على الأقل، لا يمكن تحقيقه إلا بأن يكون وحيداً، منذ أن اختار اسماً وهوية أخرى؛ أن يحطم كل رابطة تربطه بأحد. لم يكن من الصعب تحقيق ذلك، وحتى قبل التعرف على جوزيف كرملي، أو جوزيف ك، والذي سيخبره بأنه يستبدل أسماءه مثلما يستبدل قمصانه، لم يكن من الصعب الحصول على أوراق ثبوتية مزورة، عن طريق دفع رشوة معينة. وكان على سراب أن تجبر نفسها على تفهم سلوكه ذاك، قصصه الحقيقية وقصصه المنتحلة، سنوات طويلة، ولكنها كانت تعرف، أن الوقت سيحين، وستقول: كفى، لا أستطيع التحمُّل. دون أن تدري أن يوسف يسير باتجاه آخر، منذ أن غادر المعتقل مخرَّباً ومهزوماً، حيث بدأ يهذي ويتحدث عن البنت الصغيرة التي وقفت إلى جانب العجوز عند بوابة وزارة الدفاع، وكيف أنه ما يزال يفكر فيها، وأنها بالتأكيد البنت الصغيرة ذاتها التي اعتقد أنها ماتت، عندما كانوا صغاراً: البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء. وأنه بالتأكيد سيذهب يوماً ما يبحث عنها. هكذا استيقظت ذات صباح، لتجد ورقة كتب عليها يوسف بخط متعرج: ذهبت أبحث عن البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء.

هكذا راح يوسف يطوف من مدينة إلى أخرى، يتنقل من وظيفة

إلى أخرى، يحمل اسمين: الأول رسمي، في الدائرة، والثاني مسجل في الفندق الذي ينام فيه. كان ذلك أيضاً الوقت الذي راح فيه يغير عمله، يتنقل من مكتب إلى آخر كلما يبدأ زملاؤه في العمل بالتقرب منه. البقاء وحيداً، مهما كلف الثمن. الإصرار على العيش، ولبس قناع سميك، هكذا قرّر. على مدى سنوات طويلة، عاش على هذه الحال، حتى أنه ما عاد يتذكر الوظائف التي شغلها والدوائر التي عمل فيها. لكنه يتذكر أمراً واحداً، أنه كان كل مرة يتسلم وظيفته في مكاتب شاغرة تماماً، لأن سلفه أو أعوانه قد أُعدموا أو اعتقلوا أو اختفوا أو قُتلوا في الحروب أو في السجون، في فراش الزوجية أم في زقاق معتم، بطعنات سكين أم برصاص على ذويهم تسدد تكاليفه لاحقاً، وإلا فيستعرضون للمصير نفسه. لم يلاحظ ذلك، ولم يسأل نفسه أين ذهب الآخرون، بل لم يفكر يوماً لماذا فعلت السلطة أو الحزب الحاكم كل ذلك؟ لماذا هذا الإصرار على بثّ الرعب؟ من أين يجند هؤلاء القتلة القادمون من مكان واحد غالباً جنودهم، عملاءهم وعسسهم، قواديهم وبغاياهم؟ من أين جاء كل هذا الطاعون الذي نخر البلاد وضربها بالعظم؟ من أين هطلت غازات الخردل وكل النفايات السامة التي احتفظت بها مخازن الحرس الجمهوري؟ بل لم يسأل نفسه حتى، متى سيحين دوره؟ وكان أثناء عمله الوظيفي ذاك، لا ينطق إلا بكلمات قليلة، يكتفي بتحريك رأسه، يفعل كل ما يُطلب منه؛ يقول «نعم»، عندما يريد أن يقول «لا»، ويقول «لا»، عندما يريد أن يقول «نعم». كانوا يفعلون به ما يريدون، وكفى. حتى عندما جاءوا له أخيراً بملابس الأطباء، وقالوا له، «إن أعصابك مريضة». كان مجرد وعاء وحسب.

انعطف خلف بناية أورزدي باك، سار أمتاراً قليلة، قبل أن يقف في الساحة الصغيرة المغلقة، لكي يتذكر بالضبط مكان المحل الذي جاء

إليه. لم يستغرق وقتاً طويلاً للعثور عليه، فقد كانت ساحة صغيرة، احتلتها مقهى كبيرة، انتهت في الخلف إلى نهر دجلة، وحولها انتشرت محلات صغيرة مختلفة. لا يدري ما إذا كانت المحلات ذاتها، كما عرفها قبل زمن طويل. يبدو له الأمر اليوم مثل قرون غابرة، عندما كانت تحتل الساحة مقهى كبيرة تمتد حتى الشاطئ، ومحلات صاغة ذهب، ودكاكين بيع أحذية ومطعم صغير، وهناك في الوسط بشكل خفي، يقع دكان صغير جداً: محل جوزيف كرملي، أو جوزيف ك.

ما زال المحل على وضعه، كما رآه. لم يختلف عن شكله القديم. وكأن الزمن توقف هنا، مثلما توقف في رأس يوسف، بل وكأنه غادر المحل بالأمس فقط. كان محلاً صغيراً لتجليد الكتب بشكل فني، وتزويدها بأغلفة خاصة جداً، وصناعة إطارات خشبية والنقش عليها، لأن جوزيف كرملي، أو جوزيف ك، كان بارعاً أصلاً بالحفر على الخشب بالحبر الصيني. وكانت له علاقة بزبائن مختلفين، المكتبة الوطنية مثلاً، التي بدأت حينها بحملة لتجليد الكتب القديمة. إضافة إلى زبائن عرب، يأتون لزيارته من أجل تجليد بعض الكتب، أو يرسلونها إليه. وما كان يكسبه من عمله هذا، لم يكن يقارن بما يكسبه من عمله في صنع إطارات خاصة لصور حاكم البلاد ونائبه، قبل أن يزيح الأخير الأول ويصبح هو الحاكم الأول، ويملأها بصوره. كانت تلك هي الفترة التي قرر فيها جوزيف كرملي، أو جوزيف ك، الشروع بتزوير الهويات والجوازات، لأن ذلك لم يكن أسوأ من نقش أسماء الحاكم على إطارات صوره، حتى أنه في ذلك الوقت، لم تبقَ أية صورة له في محله، حتى اليوم الثاني. من غير المهم، عدد الإطارات التي يستلمها، ينهيها كلها دفعة واحدة، وكثيراً ما طلب من حامليها، أن يعودوا لاستلام الإطارات قبل إغلاق المحل، وإذا تأخروا عليه، يظل جالساً في انتظارهم.

عندما أصبح عند مدخل المحل، سمع جوزيف يصرخ:

«يوسف، يوسف ماني، غير معقول».

في الحقيقة تردد بعض الشيء، لأنه ظن في الوهلة الأولى، أنها إحدى هلوساته الأخيرة. فأجاب، وكأنه غائب عن المكان تقريباً، وهو يضع الحقيبة الصغيرة على الأرض:

«نعم، يوسف بلحمه وشحمه».

«إجلس».

فجلس وأسند الحقيبة إلى الحائط.

«كالعادة، تطوف ومعك الحقيبة ذاتها».

«نعم، إنها بيتي. لم يعد لي بيت. سأتخلى عنها، ساعة أعثر على نفسي».

كانت مرت سنوات طويلة، أكثر من خمسة عشر عاماً تقريباً، ولم ير الاثنان بعضهما، منذ أن رحل جوزيف كرملي أو جوزيف ك وحده، ولم يرحل معه يوسف كما قرر في حينه. صحيح أنهما لم يلتقيا قبل رحيله، إلا مرات قليلة، بعدد المرات التي احتاج إليها من أجل الحصول على الأوراق الثبوتية المزورة، عندما جاءه في المرة الأولى، قبل رحيله بخمس سنوات، إذا لم تخنه الذاكرة، من طرف العم عاصم، إلا أن تلك المرات القليلة تركت أثراً لا يُمحى عند الاثنين. ربما لم يتحدثا في الزيارة الأولى مباشرة، بصراحة، إلا أنهما في الزيارة الثانية، شعرا بتبادل الثقة. في تلك السنوات، كان يمكن أن يقود أي خطأ بسيط أو وشاية بأحدهم إلى الموت. في ذلك اليوم، امتلك الاثنان شعوراً شبه مؤكد، أن كل واحد منهما، الوحيد الذي يتفهم ما يقوم به الآخر، من غير المهم ما يحدث، وبالنسبة له، كانت الخمسمائة دينار، التي

تقاضاها صديقه ثمناً لتزوير الهويات - التي كانت ملبغاً كبيراً آنذاك - هي في كل الأحوال مبلغاً متواضعاً لما يفعله، ولما يستدعيه من مخاطرة بحياته. وكان صديقه يقول إنه يفعل ذلك حتى يصبح في حوزته مبلغاً يسمح له بتحقيق حلمه بركوب البحر والسفر حول العالم. ولم يسأل نفسه، عما إذا كانت تلك مجرد قصص يرويها صديقه عن نفسه، أم حدثت له بالفعل، لأن جوزيف كرملي أو جوزيف ك أيضاً كان حكواتياً ماهراً. وكما باح ليوسف ذات يوم، أنه إذا ما عجز يوماً عن الرسم، فسيجلس في البيت، ولن يخرج أبداً، كما فعل مارسيل بروست ذات يوم. الفارق أنه لن يكتب رواية «في البحث عن الزمن الضائع»، إنما لكي يكتب رواية كبيرة «في البحث عن الخراب الدائم» الذي ينخر الأرواح في هذه البلاد، بلاد المنتصرين والمسحوقين، كما تردد أنت ليس في أيام الأزمات وحسب.

في ذلك الوقت لم يحكِ جوزيف كرملي أو جوزيف ك عن حلمه بالتفصيل، إنما اكتفى بالحديث له عن حياته. ربما وجد في المرحلة الأولى من عمله على تزوير الأوراق الثبوتية، نوعاً من الثأر من نقش الإطارات الحكومية، أو نوعاً من رد الاعتبار للنفس، بأنه أقوى من هذه الدولة التي تجبره على القيام بما لن يقوم به طواعية. إلا أنه مع مرور الوقت أخذ ينظر للتزوير باعتباره فناً مستقلاً بنفسه، بل إنه قرر لاحقاً أن يركز العمل في هذا المجال، وراح يوصي بجلب الكتب المتخصصة بالتزوير، وخاصة كتب الرسم، التي كان معظمها باللغة الإنكليزية. ساعده على ذلك إتقانه الكلام والكتابة باللغة الإنكليزية، لأن جوزيف كرملي أو جوزيف ك، عاش كما روى له، جزءاً من سنوات عمره مع عائلته في أميركا. قال إن أباه الذي كان عالماً معروفاً بالفيزياء، ورفيقاً قديماً للعم عاصم، هرب في 1963، من البلاد، بعد الانقلاب العسكري الدموي المشهور في 8 شباط (فبراير) من ذلك العام، وكان هو آنذاك ما

يزال صبياً، وعاد مع عائلته في بداية السبعينات. كانوا يحملون الجنسية الأميركية، وعندما أرادوا استرجاع فيلتهم القديمة في منطقة العيواضية، اشترطت عليهم الدولة التنازل عن الجنسية الأميركية. «الحماقة الثانية التي ارتكبها والدي تفوق الحماقة الأولى التي ارتكبها عندما أصبح شيوعياً»، كان تعليقه المفضل. سأله ذات يوم، لماذا لا يزوِّر جواز سفر أميركياً ويعود إلى هناك، فأجابه: «لا أحتاج في الوقت الحالي إلى جنسية، أحتاج إلى المال للسفر». وكان حلمه بالسفر، كما عرف، ليس له علاقة بالخلاص من الطلبات الحكومية، إنما للتفرغ لتقليد (توقف حينها عن استخدام كلمة تزوير، حتى عندما سلمه أوراقه المزورة) أشهر الرسامين في العالم، وإعادة رسم لوحاتهم من جديد. وكانت تدور في رأسه فكرة جنونية، السفر بالبواخر، من البصرة، ورسم كل اللوحات التي رُسمت عن البحر، وبيعها في الموانئ التي يمرون بها، وعلى ما يعتقد، أن فكرة البحر جاءته من صديق له، بحار برتغالي، اسمه لويس كارافالو، أو لويس الحزين، كان يزوره في محله، وتعرف عليه في أحد مقاهي العشار، في البصرة. ورغم أن يوسف في البداية أصغي له بحيادية، إلا أنه عندما سمع جوزيف كرملي أو جوزيف ك يسأله ذات يوم، لماذا لا يترك كل شيء ويرحل معه على باخرة صديقه البرتغالي؟ فكر لماذا لا يرحل بالفعل. وعندما أخبره ذات يوم بأنه سيرحل أخيراً مع صديقه البرتغالي، طلب منه يوسف أن يأخذه معه، الأمر الذي لم يرفضه، على العكس حدد له موعد الرحلة، وقال له، أن عليهما السفر للبصرة أولاً. لكن في ذلك اليوم، أخبرته سراب أن عليهما الانتقال فوراً من البيت، لأنها رأت رجالاً ملامحهم بدوية، بملابس مدنية يراقبون البيت، وأن عليه أن يبقى في بيت أهله بضعة أيام، إلى أن يرتب أبوها كل شيء. بعد أيام قليلة انتقلا إلى بيت في منطقة البتاوين، وتركا ذلك البيت الذي عرفا أن أباها اشتراه لها فارغاً دون أن يصرح بذلك يوماً.

في ذلك اليوم رحل جوزيف كرملي أو جوزيف ك وحده، بعد أن طال انتظاره له.

جوزيف كرملي أو جوزيف ك، دخل للتو في الخمسين من عمره، شعره أبيض، يبدو كهلاً أكثر مما يجب. ربما أدرك يوسف عبث مجيئه، وعبث أن يشركه بالقصة. فكر أن يستدير ويرجع. لكنه فكر لماذا لا يتحدث معه، فربما هي فرصته الآن بالفعل لكي يكتب الرواية التي حلم بها مراراً، فكما تخيل يوسف، كل شيء يشير إلى أن جوزيف كرملي أو جوزيف ك ترك الرسم. فما الذي يرسمه المرء في هذه البلاد: بلاد المنتصرين والمسحوقين، أكثر من الخراب؟

«سامحني لأنني لم أزرك في المستشفى، لم أسأل عنك، وعن أحوالك، كنت في السجن».

ابتسم له، وعلق:

«كنت تحلم بالبحر، قيل إنك غادرت بسفينة، وإنك في أميركا».

شحب وجه يوسف عندما سمع كلمة مستشفى من جديد، لكنه أجبر نفسه على الابتسام، عندما سمع جوزيف كرملي أو جوزيف ك يقول هذه المرة:

«من المفروض، ولكن انتهيت إلى غير قعر البحر، وأميركا جاءت من أجلي هنا».

فعلق:

«أنت الذي كنت تحذر من هذا الجحر، السجن، انتهيت إليه.»

«وأنت الذي هربت بجلدك، انتهيت إلى المستشفى».

يتذكر، كيف أن جوزيف أخبره في لقائهما الثاني، بأنه حسناً يفعل ويعمل لنفسه هوية قوبيا (كان يستخدم تلك الكلمة بدلاً من كلمة

«مزورة»)، لأن من الخطأ أن يترك الإنسان الأمور للصدفة، وكان يحلو له أن يروي دائماً قصة نابوليون بونابرت، وقصة لعبه الورق مع زملائه الضباط في مدرسة الضباط. كان نابوليون يربح دائماً، وعندما يسألوه، ما هو سر ربحه الدائم، يجيبهم بأنه يتركهم يكتشفون الأمر بأنفسهم، حتى أمسكوا به ذات يوم، يغش في اللعب، يحتفظ بورقة الجوكر في أكمام قميصه، سألوه، كيف يغشهم وهم زملاؤه وأصدقاؤه، فأجاب، أنه لم يغشهم، إنما كان يريد أن يلقنهم درساً إضافياً في الحياة، «أن ليس هناك من يربح بالصدفة».

«أنا لا أغش إنما ألعب، وعليك أن تلعب أفضل من الآخرين، لكي لا تنتهي مثلي إلى الجحر، الذي أعدّوه لك، وتتحول إلى إنسان صرصار، على حدتعبير صديقنا العزيز دوستويفسكي».

«كنت تقول: ليس هناك صدفة».

فعلق بمرارة:

«نعم، وما زلت، ومن يُرِدْ أن يصنع من الصدفة قدراً، يدفع الثمن»

فكر، فيما إذا كان ما يقوله جوزيف كرملي أو جوزيف ك ينطبق عليه أيضاً، فيما إذا كان هو يكسر الصدفة الآن؟ فيما إذا كانت رحلته التي شرع بها هذا اليوم، منذ فجر الأسبوع الثاني من شهر أبريل، هي محاولة منه لتحويل الصدفة إلى قدر لا مفر منه؟ ولكن قبل أن يسأله، جاءه صوت جوزيف:

«أعرف أن كل واحد منا عنده قصة، وأنك هنا لأنك تحمل قصة، لكن قبل أن تبدأ، أطلب منك سماع قصتي، ولكي تفهمها عليك أن تضع نفسك في مكاني».

ثم بدأ جوزيف كرملي أو جوزيف ك يحكي القصة ذاتها التي

سمعها منه يوسف أو ربما يعتقد، أنه سمعها منه مرات عديدة. لكن الأمر المؤكد الوحيد هو أن جوزيف كرملي أو جوزيف ك لم يروِ قصته بخط مستقيم، دائماً، إنما بخط متشابك، وكأنه لا يروي، إنما ينقش، يتنقل من مكان إلى مكان، وكأنه لا يعرف أين يبدأ، أو وكأنه كلما بدأ من نقطة، فكر، من الأفضل أن يبدأ عند نقطة أخرى، هكذا يبدأ ويعود إلى النقطة ذاتها، ثم ينطلق من جديد، وهكذا، حركة دائرية، يروي، وكأنه لم يعد يعلم، أو لا يريد أن يدري، متى وأين حدث ذلك، وكما يبدو، ظل أميناً لجملته التي طلب منه فيها أن يحل محله، أو كأنه يترك الأمر له، لكي يقوم بإعادة تشكيل القصة من جديد. يرويها وكأنها تعود إليه، كأنها تحدث الآن أثناء تذكرها، أو أثناء روايتها للآخرين. هو يحتاج فقط، أن يشغل ذاكرته، أو يُتعب ذهنه، وهو في جلسته هناك، في المحل الصغير لجوزيف كرملي أو جوزيف ك، خلف بناية الأورزدي باك، ويتخيل أنه رحل في ذلك الوقت معه، أو رحل وحده، وجوزيف كرملي أو جوزيف ك هو الذي تخلف عن الرحلة.

لا ضير في ذلك، فالقضية كلها لها علاقة بالتخيل. بكل القصص التي واظب على اختراعها. هل أتعبه المرض أم غزته الشيخوخة، لدرجة أنه فقد القدرة على الخيال؟ عليه أن يبذل جهداً بسيطاً، أن يعصر رأسه جيداً، ويغادر مكانه الآن، أن يغادر شارع الرشيد، وبغداد، والبلاد كلها، ويبدأ بالبحث معه عن المكان أو النقطة الزمنية التي حدثت فيها تلك القصص. في الهند؟ في عُمان؟ في المغرب؟ في البصرة؟ في أبو ظبي. نعم ربما في هذا المكان الأخير؟ وإن لم يكن هناك في المرة الأخيرة، فأين كان؟ متى عرف البحارة في أي مكان ثَبتوا مرساهم في المرة الأخيرة، ومتى عرفوا أين سيكون المرسى القادم؟ لكن ما هو مؤكد، أن ليس هناك بحار يحدس أنه في المرة القادمة سينتهي إلى السجن؟ من أين له أن يدري؟ البحارة لا يعرفون مكاناً غير الأفق،

والسجن مكان خارج الجغرافية التي يعرفونها؛ له علاقة أكثر بسكان اليابسة. بالضبط ولأنه كسر هذا الكود، وخان كلمة البحارة، انتهى جوزيف كرملي أو جوزيف ك إلى السجن، ذلك ما يعرفه أكثر من أي شيء آخر، كان يجب أن يكون ما حدث على اليابسة، وفي مكان يابس جداً، مكان يقاوم البحر، ويهرب منه. ولكن لماذا يهم المكان، ويوسف الآن بتذكره القصة، يفعل ما كان يفعله جوزيف ك، وما كان يشعر به، وأنه مثله، لا يتذكر الأشياء ذاتها عندما يروي، إنما يتذكر الأشياء التي تجري حولها. كل شيء عنده يسيل مثل ماء، وهو الذي يمنح الأشياء ملامح خاصة، ثابتة، يساعدها في القبض عليها. إذن، ليتذكر، ليروي، قطرة قطرة، وليفترض القصة على النحو التالي:

كان منظر كل شيء لا يُطاق، كل شيء خانق. أبو ظبي: الشوارع، مستقيمة بشكل ممل، تريد تقليد شوارع نيويورك، نظيفة بشكل مفتعل، بينما في الغرف، في الكابريهات القريبة من البحر، يزدحم البعوض، وتسيطر رائحة نتنة تأتي من دشداشات وغتر وأفواه ومؤخرات الزبائن المزدحمين هناك. عند الزاوية، جلس رجل أسود سكران، لم يشأ مغادرة الكابريه. أصر على البقاء هناك، يجلس باسترخاء، ويقول «ها أنا أجلس مثله»، وهو يشير بإصبعه إلى صورة أمير البلاد، المعلقة على الحائط. أسند الرجل رأسه إلى الخلف، فتراخت كوفيته البيضاء قليلاً، بينما ارتفعت فكه بكبرياء إلى الأعلى، فيما ارتسم على وجهه التعب، غضب فارغ لشخص أعزل، يعرف أنه لا يستطيع الدفاع عن نفسه، وأن المعركة محسومة، ولن يساعده أحد من الجالسين هناك، المخدرين هم الآخرين بكميات الخمرة الكبيرة التي شربوها، وبعري اللحم المترهل القبيح الذي دار راقصاً أمام أعينهم، وسط ضوء كاشف، ينتظرون انطفاءه، والعودة إلى الوضع الطبيعي، والأضواء الخافتة. «أعرف حقوقي، أنا مواطن، لي حقوق مثل حقوق

السلطان الفحل هذا، أنا أبيض، وشاعر، وأكثر إجادة منه بالضحك، كما أنني لست سكران»، قالها بلغة عربية عالية النبرة. ارتفعت ضحكات معظم زبائن الكابريه، لأنه كذب في الحالتين: كان أسود وسكران، في كابريه من الدرجة الأولى، لا يحق له دخوله، رغم أن ليس هناك ما يمنع دخول السود. كان صادقاً في أمر واحد فقط، ليس في قضية السلطان، فتلك قضية تخصه، لأنه سلطانه، إنما في أمر واحد، وإن لم يكن أكيداً أيضاً: كان شاعراً، رغم أن من الصعب التأكد حتى من هذه القضية، لكنه كان يكتب على كل قصاصة يعثر عليها، على مناديل المطاعم والمقاهي. جمل قصيرة، ويقول إنها قصائد. كان يمكن أن يستمر المشهد طويلاً، لو لم يتدخل جوزيف كرملي أو جوزيف ك، الذي جلس حينها بصحبة ثلاثة بحارة، أحدهم، لويس كافالو، البرتغالي الكهل. «البحارة لا يتدخلون بشؤون سكان اليابسة»، قال له لويس كافالو. كان يعرف مبدأ البحارة ذلك، لكنه حتى رواية القصة، لا يعرف سبباً، دفعه للتدخل.

«ربما دفاعاً عن السود، عن المضطهدين، قضية قديمة، كان يجب أن أنتهي منها بطريقة ما»، الآن، وبعد سنوات يستطيع التعليق على ما حدث.

في تلك الليلة، نهض من مكانه، وذهب إلى الرجل الشاعر، الرجل الأسود، الذي لبس نظارات سميكة، وكان لعابه يجدف بشكل كريه، لمسه من كتفه بلطف، وقال له: لنخرج سوية، ونبحث عن مكان آخر نشرب فيه، لِيَخترْه هو، من غير المهم أين سيكون، ربما كان ينتظر، أحمد، كما عرف اسمه لاحقاً، تلك الحركة منه، من جوزيف كرملي أو جوزيف ك، الرجل الذي يُعتبر أبيض هناك. هكذا مرّ الأمر بسلام، قضيا الليلة سوية، وشربا الكثير. كانت ليلة جميلة: شاعر أسود في ليل أبو ظبي، يرتل الشعر، ويعدل من غترته المتسخة كل دقيقة،

بينما يخرج كلاماً رقيقاً من شفتيه الغليظتين، يغطي على رذاذ لعابه ورائحة فمه النتنة. رغم تلك الصورة غير الجميلة للشاعر، لم يخلُ الأمر من الرومانسية. هل حدثت المصيبة في تلك الليلة، أم لاحقاً في البصرة؟ لا يتذكر، لكنه يعرف أنهما تعانقا وودعا بعضهما في فجر اليوم التالي، وعندما سأله الشاعر عن اسمه، أجابه جوزيف كرملي أو جوزيف ك، بأنه: «يوسف»، كان الشاعر مسلماً.

في اليوم التالي مخرت السفينة باتجاه البصرة. لم لا؟ إلى البصرة، نعم، من الطبيعي أن يخاف المرء من التوجه إلى هناك، صحيح أن الحرب توقفت، لكن هناك علامات تشير إلى نشوب حرب جديدة، كان القلق ينتشر في الجو، ويثير الرعب في النفوس أكثر من الرعب الذي تثيره الحرب ذاتها. ثانياً، هل هناك شخص لا يخاف من الرجوع إلى مكان هرب منه، منذ سنوات، وقرر ألا يعود إليه ثانية؟ ولكن لماذا يخاف المرء، إذا كان يستبدل أسماءه، أكثر مما يستبدل ملابسه. يتذكر جوزيف كرملي أو جوزيف ك، أو يوسف، منذ ذلك اليوم، لأنه سيتحادث مع أشخاص مسلمين، يخبرونه أنهم وصلوا البصرة، ومرت الأمور بسلام، كانت باخرتهم رفعت علم ليبيريا، كما جرت العادة بالنسبة للسفن التي تريد تجنب المشاكل في مناطق الصراع، أو تريد تهريب بضاعة معينة. ربما بدأت المصيبة في البصرة، لأنه لم يشأ البقاء هناك؟ كانت البصرة آنذاك مثل مدينة أشباح، لم تعد ذلك الميناء الذي عرفه، احترق نخيلها، الذي تبدأ غاباته عند مدخل شط العرب، القرى الصغيرة والمدينة ذاتها دمرتها الحرب، وشارع الوطني المعروف من قبل البحارة ببهاء لياليه واشتعال أضواء حاناته وباراته ومطاعمه، فقد البريق، كما اختفت أغاني البحارة القادمين من كل أنحاء العالم من هواء الكورنيش، وسكتت طبول الخشابة وأغلقت ماري وماتيلدا حانتيهما، وهاجر العم سواريش الذي أصر على البقاء في البصرة مثل أجداده أحفاد

فاسكو دي غاما، وأُغلق حي الطرب الذي اكتظ بالغجر وبائعات الهوى، وتحول شارع بشار، مكان البورديلات إلى سوق للخردة فروش، واختفى العشاق من سوق المغايز، واكتظ سوق حنا الشيخ بأكياس الرمل، ومات تومان الأسود الذي كان يعزف الناي بأنفه، مثلما مات عباس الهندي غماً، أشهر بائع للسمبوسة، بعدما صادر دكانه الصغير عباس، الشاعر الأصلع وصاحب الشاربين الغليظين والرأس المفلطح مثل الكمثرى، وحَوّله إلى محل لبيع العرق المغشوش ومكانٍ لملتقى شعراء الدرجة العاشرة. . . البصرة كلها، العشار، شارع الكويت، التميمية، الساعي، الميناء، المعقل، الجمهورية، الأصمعي، خمسة ميل، الخندق، نهير الليل، سوق الدجاج، القشل، محلة الباشا، المحكمة، الصبخة، السيف، مقام علي، حي الجزائر، التنومة، كلها تحولت إلى جزيرة قاحلة: رمل، سكراب، مقبرة سفن، جدران الميناء افترستها الأملاح، السيف مستنقع آسن، مزدحم بهياكل القوارب، بالمراسي الصدئة المرمية، التي تُخرج أصواتاً في الشتاء: «البصرة لوعة وحزن كل بحار»، قال لويس كافالو، ورفض مغادرة السفينة. ولكي يكتمل المشهد، وكأنه ينقصه موسيقى تصويرية، في البصرة، أُصيب معظم طاقم السفينة تماماً بداء السيلان، أخذوه من بثينة الناصر، قحبة سمينة شكلها المقزز، يثير أكثر من فرجها المستهلك تاريخياً، الغثيان، بعد أن إستهلكوا كل ما تبقى من أنوثتها، وبعد أن ضاجعوها جميعاً، لأنها الوحيدة التي بقيت في المدينة، بعد هجرة جميع زميلاتها، إلى أرض الله الواسعة. يوسف كان الوحيد الذي لم يصب بالسيلان، لأن المشهد، أثار عنده الغثيان، وجعله يرفض النوم معها، ويكتفي بدفع المبلغ الذي طلبته من كل واحد منهم. هل يمكن تخيل المشهد: خمس وثلاثين بحاراً، بالدور.

في أبو ظبي، كان عددهم أقل، عندما وقفوا بالدور على فتاة شابة

هذه المرة. متى حدث ذلك؟ وهل حدث بالفعل في أبو ظبي؟ أم في دبي؟ وما هو الفارق؟ يتذكر جوزيف كرملي أو جوزيف ك، أو يوسف، أنه خرج مع مجموعة من زملائه البحارة، جلسوا في حديقة فندق الشيراتون، عندما رأى الشاعر الأسود، بدشداشته البيضاء القذرة وغترته المتهرئة، يتقدم نحوه، وقبله يتقدم رذاذ فمه، ورئحته النتنة، يتقدم ضاحكاً، وهو يهتف «يوسف، صديقي، يا صديق المراحل الصعبة». في الحقيقة، نسي جوزيف كرملي أو جوزيف ك، أنه أعطاه هذا الاسم، وظن الشاعر أنه نسي اسمه، فصاح به وهو يسحبه باتجاه مائدة قريبة، «هل نسيتني، أنا أحمد؟ وهؤلاء أصدقائي، كلهم شعراء، عبد العزيز، محمد»، ثم أشّر باتجاه شاب طويل، ظل ينظر شزراً، وكأنه يخاف من حدوث كارثة: «وهذا صديقنا، الوحيد، غير الشاعر، يعمل مهندس نفط، في حفريات النفط، في جزيرة أبو موسى». جرى كل شيء بسرعة. هل يمكن تخيل المشهد؟ ما الذي ينتظره البحار أكثر من هذه المفاجأة: شباب يدعونه للسكر في شقتهم، وسيُحْضِرون بنات معهم. الفكرة مدهشة، رغم أنها لم تعجب بقية البحارة، رفاق جوزيف كرملي أو جوزيف ك، أو لنسمّه منذ الآن «يوسف»، كما أطلق هو على نفسه، خاصة عند لويس كافالو: عدم التنازل عن المبدأ، للبحارة تقاليدهم، ولسكان اليابسة عاداتهم؛ كما أنها لم تلق حماسة عند مهندس النفط، الحفار. علي أية حال، ذهب «يوسف» وحده مع الأربعة الآخرين، إلى شقة الشاعر الآخر. وكما يبدو، أن الشباب هؤلاء كانوا ينتظرون زميلهم الحفار، الذي يأتي مرة كل شهرين أو ثلاثة، بالإجازة، ويجلبوا العاهرات إلى هنا. وكان الحفار من يدفع، لذلك، لم تعجبه فكرة انضمام يوسف إليهم، حتى أنه أوصى القوادة أن تجلب أربع بنات فقط. وعندما جاءت القوادة، التي بدت مثل كاسحة ألغام، تستكشف المنطقة، قبل مجيء البنات، سألته بلهجتها الفلسطينية، التي عرفها

جوزيف كرملي أو جوزيف ك مباشرة، ماذا عن الشخص الخامس، قال لها: إنه أجنبي. أيّد يوسف قوله بهزة من رأسه، بينما همس الشاعر الأسود في أذنه: «لا يهمك سأتنازل لك عن دوري؟».

وعندما جاء يوسف على هذا الجزء من القصة انفعل أكثر، وبدأ يرويه بطريقة مختلفة تماماً، وكأنه كتبه لإحدى المجلات الأدبية، للنشر، أو كأنه يشترك في مسابقة أدبية:

جاءت البنات. لا أتذكر بالضبط، أين حدث ذلك. لكني أتذكر أننا كنا مجموعة من الرجال، خمسة، أربعة من سكان اليابسة المحليين: ثلاثة شعراء وحفّار حقول نفط، وأجنبي، الذي هو أنا، وأتذكر أننا شربنا كثيراً، كل أنواع الويسكي، حتى احترقت معدنا. فجأة، راح الشاعر الأسود يعتقد بأنه صديقي، وراح يصبّ لي الكأس وراء الآخرى، ويردد، «نحن أصدقاء»، لا أعرف كيف خطرت له هذه الفكرة، وأنه ينصحني أن أخفف من مشاعري قليلاً. لم أعرف ماذا ومن كان يقصد، بالتأكيد أنه يعني امرأة ما، لكن بالتأكيد ليس هنا في أبو ظبي، أو في دبي، أو في أي مستنقع آخر، لا أعرف، وأنا أقول له، لا أعرف ماذا يقصد، فيجيبني: «سراب، سراب»، ثم يلوح لي بأن أنسى. لا أعرف ماذا يقصد بسراب، فالبنات اللواتي كن هناك حملن كل أنواع الأسماء، باستثناء هذا الاسم، وجميعهن بَدَوْن لي مثل سراب، بعيدات، رغم تحركهن أمامي. لكن واحدة منهنّ، كانت صغيرة السن، بنت ذات عينين خضراوين وجدائل شقراء وفانيلة زرقاء، لا أتذكر ما هو اسمها، لنسمها: «سراب»، لأن كل شيء كان مثل سراب، ولا أتعمد هنا نسيان كل شيء، إنما لأنني كنت سكران تماماً، وكانت معدتي تحترق، ولا أتذكر ما إذا كنت ذهبت مع سراب للفراش أم لا، لكن صوتها ما يزال يرنّ في أذني ويقول، «للفراش»، أريد أن أنهض، فأشعر بيد تجذبني، وتجبرني على الجلوس، أعتقد أنه حفّار حقول النفط،

يقول: «أيها الأجنبي»، فأصحح: «اسمي يوسف، أرجوك»، فيجيب: «حسناً، يوسف أو يوزيف. إسمع يا يهودي، كلنا نريد أن ننيك هذي البنت»، هل يمكن تخيل المشهد، كلنا نذهب لنضاجع البنت، واحداً بعد الآخر، وكل واحد من هؤلاء الجالسين، من سكان اليابسة، يعادل خمسة أشخاص. رحت أردد، دون أن أنظر إلى شخص معين منهم: كلنا نريد ننيك هذي البنت، ورحت أشير بإصبعي: أنت، وأنت، وأنت، وأنت، الواحد وراء الآخر. ولكن بينما أنا أردد قولي، كان الحفّار سحبها ودخل معها إلى الغرفة، ربما بعد نكاحه لها للمرة الخامسة أو السادسة، من دون أن يهتم لصراخها. خرجت فجأة. وقفت في وسط الصالون، وضربت على الطاولة، وصاحت: «رفقة، رحمة، شفقة، رأفة، أريد ارتاح، ليش بس أنا؟ كسي يوجعني، أرجوكم، طلع الدم من كسي، ما عندكم: رفقة، رحمة، شفقة، رأفة»، وكان حفّار حقول النفط يقف عند الباب، وينادي عليها بنفاد صبر: «تعالي قحبة، بعدني ما خلصت». انهارت البنت، سقطت إلى الأرض، تبكي، تنظر إلينا، وكأنها تبحث عن نظرة مواساة عند أحد منا، تنظر إليّ، أنا الأجنبي، وإلى الشاعر الأسود بالذات. لكن الشاعر الأسود يضحك، يقهقه عالياً، ضحكته مستفزة، فأتذكر، أنني صرخت بالبنت، أن تقول له: «أنا شاعرة، وأنا بيضاء، وعندي حقوق مثل حقوق سلطانه هذا».

ربما كانت تلك بداية ما حدث، لأنني لا أتذكر بالضبط ما حدث، من هجم على من، ومن قتل من، أعتقد أنه حفّار حقول النفط الذي انقض على البنت، وأمسكها من شعرها وسحبها للفراش، أو أنه الشاعر الأسود، الذي بطح البنت في الصالون مباشرة، فتح فخذيها بقوة، أو هو أنا الذي رفع سكيناً وهجم على الاثنين، أم هنَّ البنات الأخريات اللواتي رفعن أجهزة من حديد وهجمن على الآخرين. أتذكر أن دماءً كثيرة سالت، وأن الدم لطخ ملابسي، وأن كل ما جرى وحدث، حُفظ

في سجلات الشرطة في اليوم التالي، ودُمغ تحت ختم «بروتوكول سكارى»، لكن نتيجة الحطام: مقتل بنتين، وموت حفّار حقول نفط، وجرح شاعرين، وخروج الشاعر الأسود، الذي يعتقد أنه صديقي، سليماً، واتهامي أنا بالقتل. كنت أعرف بأنني لم أقتل البنت، لكن كيف أقنعهم، وأنا صحوت على نفسي، عندما جاءت الشرطة، ورأيت السكين في يدي وأنا أجثم على صدر البنت. سجنوني هناك، ثم سلموني بعدها إلى السلطات هنا.

فكر يوسف وهو يستعيد هذه الرواية مع نفسه، أن جوزيف كرملي أو جوزيف ك يمكن أن يكون كل شيء، باستثناء أن يكون قاتلاً. فقال بصوت هامس تقريباً، لكنه كان على يقين بأنه سيصل مسامع صديقه:

«أنا الآخر لم أقتل البنت ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، بل لم أقتل أحداً يا صديقي».

لكنه يعرف مقدماً ماذا سيجيبه جوزيف كرملي أو جوزيف ك، يتذكر جملته التي كان يحلو له قولها دائماً في هذه المناسبات:

«الفضيلة هي التي تعاقب كما قال أخونا نيتشه. هو الآخر مثلك، ألقوا به في مستشفى الشماعية، أو مستشفى الأمراض العصبية».

فعلق يوسف:

«لم أكن في المستشفى. أغلقت عليّ باب الدار فقط. لم أخرج من البيت كل هذه السنوات. هل تتذكر رغبتك؟ لقد حققت رغبتك بالبقاء في البيت، لكي أكتب رواية في البحث عن الخراب الدائم».

ثم أكمل، وكأنه يتحدث بلسان جوزيف كرملي أو جوزيف ك، ولكن بصوت متهدج فيه انكسار:

«لا ضير. السجن أو المستشفى. ففي النهاية ليس هناك غير البيت. وكأننا قمنا برحلة طويلة لننتهي كل واحد منا على طريقته».

رحلة؟ أي رنين تحمله الكلمة، وخاصة عندما يلفظها أمامه جوزيف كرملي أو جوزيف ك. ولكن هل يمكن أن يطلق على حياته كلمة «رحلة»، وأية رحلة تلك التي قام بها؟ يستطيع تخمين ما سيقوله صديقه، إذا باح له بما يفكر، «كنت تقوم برحلة في داخل نفسك»، دون أن يدري بأنه لم ينجح حتى في تحقيق هذه الرحلة. أية رحلة، عندما يسلم الإنسان نفسه للآخرين يفعلون به ما يشاء، في أيام الحرب أم في أيام السلم، هذا إذا كانت هناك أيام سلم في بلاد المنتصرين والمسحوقين أبداً؛ أو يُسلم نفسه لروتين العمل اليومي، للوظيفة وللبيت؟ عندما يختصر مسيرته اليومية إلى طريق واحد. عشرة أمتار أم عشرين متراً يومياً؟ لم يحسب يوماً مسافة الطريق الذي واظب على قطعها من البيت حتى مكان العمل وبالعكس. وهو لا يظن أن أحداً من زملائه بالعمل كان يختلف عنه. كانوا جميعهم هناك، موظفين، مثل بيادق من طين، بيادق عتيقة، تتحرك بصورة آلية، لا روح فيها، وكان في تنقلاته كلها - ليس هو الوحيد في ذلك - لم يلاحظ أي فارق بين هذه الوظيفة وتلك، المهم أن ينتقل إلى مدينة أخرى، أن يكون بعيداً عن سراب التي لا يستطيع مواجهتها وجهاً لوجه، وأن يهرب من مطارديه. يعيش دائماً في مكان آخر، أن يكون له أسماء جديدة، واحد في المكتب، والثاني في الفندق الذي يعيش فيه، أما في الدائرة، فمن غير المهم ما هي الوظيفة التي سيعمل فيها، المهم أن تكون دائرة حكومية، أن تكون هناك غرفة وطاولة وملفات ومراجعين، وكلما كان المراجعون كُثُراً، كانت الوظيفة أفضل، وكلما نئت المدينة أكثر، كلما شعر أكثر بالأمان. ولا يعتقد أنه الوحيد الذي فعل ذلك. كان يراهم حوله، كانوا طوابير موظفين، أوعية فارغة، لا روح فيهم، يفوقهم نزلاء مستشفى الأمراض العصبية ذكاءً، بل حتى النمل أكثر سعياً منهم، كانوا. . . .؟ ماذا كانوا؟ يعجز عن أن يجد التعبير المناسب، كانوا هناك

مرميين، مثل قطع مهملة، أثاث قديم، لا يعود لأحد، ولا يعني أحداً، لا يعنيهم حتى هم أنفسهم. ويتذكر يوسف، الآن، عند نهاية أو بداية ما يطلق عليه جوزيف كرملي أو جوزيف ك «الرحلة»، يتذكر، أن أي واحد منهم، لم يلاحظ انتقال أو غياب زميل لهم، بل لم يلاحظ اختفاءه التام، لم يكن هناك وداع، لم يكن هناك أية كلمة حميمة، لا قبل ولا بعد الاختفاء، وكأن كل شيء يوحي بالحميمية يثير الشبهة، يجب طرد كل ما هو حميم. أما عيونهم، فلا ترى غير الأضابير، «الرحلة بين الأضابير» والعودة منها، مسمّرين إلى طاولاتهم مثل مسامير. وفي بعض الأيام، يمكن أن يجلسوا هناك ثماني ساعات، أو أكثر حسب الدوام الرسمي، لا يرفعون أعينهم، إلا عندما يسمعون خطوات غريبة، وربما حتى في تلك اللحظة لا يقومون بذلك، فقط عندما يسمعون أسماءهم تُنادى، أو عندما يقترب ظلّ من طاولتهم. وفي أغلب الأحيان، عندما تأتي شرطة الأمن أو المخابرات أو الاستخبارات أو الأمن الخاص أو . . . . أو (من الصعب إحصاء عدد أجهزة الأمن هناك!)، لاعتقال ضحاياهم من دون سبب وبلا رحمة، يستمرون في عملهم وبحماس، وكأن شيئاً لم يحدث، حتى وإن فرغت الغرفة من الموظفين. وحدث أكثر من مرة، أن بدّل يوسف مكتبه إلى مكاتب شاغرة تماماً، لأن سلفه وكل أعوانه اختفوا، أو سُجنوا، أو أُعدموا بتهمة الخيانة، وكان كلما يجلس عند طاولة جديدة، يقول لنفسه: «ها أنا أجلس عند مكتب الضحية الماضية، أو الضحية المقبلة التي قد تكون أنا».

«كما يبدو، أنت بصحة جيدة يا يوسف، عشت كل هذه السنوات».

وصل صوت صديقه إلى أذنه، وكأنه قادم من البعيد. ابتسم، وتخيل نفسه يجلس في المكان المقابل، يجلد مثله الكتب، لكن الكتب الفارغة.

ضحية بصحة جيدة. تذكر خروف العيد الذي كانت تشتريه أمه.

وكان آنذاك، يتساءل بحس طفولي، كيف يصح أن يشتري الناس خروفاً صغيراً، بأشهر طويلة قبل حلول عيد الأضحى، ويبدأون بعلفه لكي يصبح الخروف سميناً وجاهزاً للذبح في عيد الأضحى. كان يوسف يبكي. ولم يكن هو الطفل الوحيد الذي كان يبكي صديقه الكبش، الذي لعب معه شهوراً طويلة، إنما فعل ذلك كل زملائه الأطفال الصغار، كأنما شعروا بأنفسهم، هم الذين يُقادون للمذبحة. لكن ذلك حدث قبل أن يكبر الأطفال، وقبل أن يتحولوا إلى موظفين في المجتمع، لا يشعر أي منهم بأنه كان يعتقل نفسه، وبأنه سيجلس إلى طاولة مكتب الضحية المقبلة بذاته؛ أو قبل أن يتحولوا ذاتهم إلى جلادين وقصابين، يقودون ضحاياهم للذبح بلا رحمة، وينسون أنهم سيُدرَجون على لائحة المطلوبين في المستقبل القريب.

«وأنت، كيف كانت رحلتك يا يوسف؟».

كم أنتظر ذلك السؤال؟

«رحلتي تبدأ الآن. قررت مغادرة البيت. أحاول استرجاع هويتي واسمي».

فكر، فيما إذا كان سيصدقه جوزيف كرملي أو جوزيف ك، لو حكى له قصة صاحب الصوت. وفكر بعبث أن يروي له ما حدث. ثم عليه، في كل الأحوال، الانتهاء من الحكاية لوحده، وعليه أن يستبعد الفكرة التي خطرت بذهنه بصورة خاطفة: الحصول على أوراق ثبوتية جديدة، باسم جديد، كما يفعل أغلب سكان هذه البلاد في هذه الأيام.

«نحن أصدقاء، يا يوسف. قل لي ما تريد».

سمع صوت صديقه يأتيه بود، يحمل نبرة قوية صادقة.

«أعرف، وذلك ما يجعلني أطلب منك، أن تأتي إلى الحانة القديمة، هل تتذكرها؟ الحانة السرية: حانة المدينة، كما سميتها أنت، حانة الحكايات. ألا تريد أن تكتب روايتك التي تحدثت عنها؟».

«سأفعل».

أغمض يوسف عينيه قليلاً وكأنه يطرد شعوراً بالإعياء هجم عليه لبرهة قصيرة، ليسمع بعدها صوتاً يتردد في جنبات سمعه:

«هل تعرف يا يوسف؟ الآن اكتشف العديد موهبتي. من الحرس القديم ومن الحرس الجديد. الجميع يحتاج إلى أوراق جديدة. تصور، يعرضون عليّ أموالاً طائلة. بعضهم يريد أن أزور له البطاقة الخضراء. ولكن العمل بخير. هناك طلب كبير على الكتب. لكن الكتب الفارغة. مجرد أغلفة، يريدون عناوين مشهورة، ألم تر القطعة المعلقة عند الباب؟».

حوّل رأسه، بالاتجاه الذي ظن أن جوزيف كرملي أو جوزيف ك يشير إليه، ورأى بالفعل قطعة كبيرة معلقة قرأ الخط العريض الذي كُتب عليها، «مكتبة الكتب النادرة». وفي اللحظة التي أرجع فيها رأسه إلى وضعه الأول، لاحظ أن هناك شخصين يقفان في الجهة المقابلة، أحدهما يضع يداه في جيبه، والثاني جلس عند قدمَي الأول. بدا الإثنان وكأنهما ينتظران أحداً في داخل المحل المقابل، لكن نظراتهما توحي أنهما كانا يتطلعان به. فسأل يوسف:

«كتب فارغة لرؤوس فارغة إذن. هل يطلبون منك عناوين معينة أم أنك أنت تحدد العناوين؟»

صمت لبرهة، ثم أضاف:

«لكن لماذا أسألك؟ أعرف جوابك»

ثم أضاف يوسف وهو يخرج بحسرة:

«هل تعرف يا صديقي، في هذه البلاد تتم دائماً صناعة أصحاب المخ الصغير، يتحولون بسرعة إلى عظماء، إذن لا غرابة من وجود الكتب الفارغة. كتب فارغة لمخ فارغ».

ثم سمع جوزيف كرملي أو جوزيف ك يسأله:

«يوسف، قل لي الحقيقة، هل أنت بحاجة إلى أوراق جديدة؟ تعرف أننا أصدقاء. لك أفعل كل شيء.»

تطلع مرة أخرى باتجاه الشارع، فرأى الشخصين ذاتيهما اللذين رآهما قبل قليل. هذه المرة، استطاع أن يرى وجهيهما بصورة أفضل، ففكر، أن الوجهين ليسا غريبين عليه، ولم يعد يتذكر ما إذا رآهما على صفحات جريدة، أم في المستشفى؟ وعندما رآهما يقتربان من الواجهة الزجاجية، حتى يرى وجهيهما معكوسين على الزجاج، يتطلعان به، قبل أن يختفيا ببطء عند الجهة الأخرى، تساءل مع نفسه، ما إذا جاء الاثنان من أجله فقط، وهل هما اللذان شعر بمطاردتهما له طوال النهار؟

«أنا كما يبدو، لست بحاجة إلى أوراق جديدة، إنما إلى وجه جديد».

وقبل أن يسمع تعليق صديقه، قرر أن ينهض بسرعة ويغادر المكان.

«ما زالت هناك بعض الحكايات العالقة. سنتحدث عن الموضوع لاحقاً. في البيت أو في الحانة السرية. مثل أيام زمان».

فسمع صوت جوزيف كرملي أو جوزيف ك يقول له بحماس:

«نعم مثل أيام زمان، إذا كانت هناك أيام زمان».

ثم تطلع بيوسف قليلاً:

«بقي هناك شيء يجب أن تعرفه وعليَّ أن أقوله لك لأننا أصدقاء».

فتطلع به يوسف وقلبه يخفق:

«بعد خروجي من السجن، لا أريد أن أعيش مع التهمة التي أُلصقت بي. لست القاتل».

سكت جوزيف كرملي أو جوزيف ك قليلاً، ثم أضاف:

«اليوم أنا أحمل اسماً آخر».

دفع يده إلى الدولاب، وأخرج هوية قديمة لوّح بها أمام يوسف:

«هل تتذكرها؟ هوية صديقنا الوحيد الذي كان يردد: كلنا نسخ تتناسخ بعضها من بعض. بإمكانه مساعدتي الآن مثلما ساعدك. ليس هناك من يعرفني. مات كل الذين نعرفهم. ألم تر القطعة التي كُتب عليها اسمي في الباب»

بحثت عينا يوسف عن القطعة، فقرأ هناك الاسم: «هارون والي».

«هارون والي كان أكثرنا ميلاً للحكي، ألا تتذكر، هو من أطلق عليّ اسم جوزيف ك، على خطى صديقنا الذي تركناه يُحاكم في براغ، كما كان هارون يردد: في النهاية كلنا حيوات تروي بعضها، نسخ تتناسخ من بعض».

علق جوزيف كرملي أو جوزيف ك، ثم أضاف:

«لا أحد غيرك يعرف ما حدث بيننا. احفظ ذلك، أنا منذ الآن هارون والي: الراوي».

هز يوسف رأسه، وفكر، أن عليه أن يصدق ما يقوله: هارون والي، صديقه، وأن من الأفضل له ألا يعتقد أنه عاد إلى لعبة تغيير الأسماء، كما كان يفعل من قبل.

لبرهة ظلت عيناه تنظران في الفراغ. فتذكر المرة الأخيرة التي جاء فيها وترك الهوية ذاتها هنا، هوية: هارون والي.

«إذن سأنتظرك يا هارون في الحانة، تتذكرها، حانتنا السرية: حانة المدينة!»

قال تلك الجملة، قبل أن يرفع حقيبته الصغيرة، ويغادر المحل، مثلما دخل. مثل طيف عابر.

الفصل السادس

في المررو بشارع الخيام: كما لو في السينما

عندما أصبح عند تقاطع شارع الرشيد مع شارع الخيام، تلمّس القناع الذي احتفظ به في جيبه. وبدل أن يواصل سيره، باتجاه شارع السعدون، عبر إلى الجهة الأخرى، وانعطف إلى اليسار. سيطر عليه شعور من الغبطة، وكأنه تخلص للأبد من اسمه القديم، الذي ارتبط به في صباه والمراهقة، قبل أن يأتي قبل سنوات إلى محل جوزيف كرملي أو جوزيف ك ويطلب منه عمل هوية جديدة له وباسم جديد. سِيان أي اسم يطلق على صديقه القديم: جوزيف كرملي أو جوزيف ك أم كما أراد هو هذه المرة «هارون والي»، فإنه في الحالتين يظل يشعر بالامتنان له، لأنه خاصة عند تبنّيه لاسمه القديم، سيساعده ذلك على الاقتراب من نفسه أكثر. كلما ابتعد عن أسمائه القديمة، أصبح أكثر قرباً من يوسف ماني الجديد. أحس يوسف بفرح مفاجئ يتسلق جلده، وشعر بقلبه يزيد ضرباته، كلما أسرعت خطواته، وكأنه يريد الوصول إلى هناك بسرعة. وقد أفرحه هذا الشعور، لأنه للمرة الأولى، بدأ يدرك أنه لم يعد يوسف ماني القديم. تلك هي المرة الأولى التي يشعر فيها بقناعة، أن وجهاً جديداً بدأ ينمو عنده. ها هو يسترجع نفسه إذن، مثل مريض بدأ يحس تدريجياً بالتعافي، ويغادر جدران غرفته الأربعة أو مثل سجين يغادر زنزانته. عيناه بدأتا تنظران إلى الأشياء بصورة مختلفة، تستمتع

بها. أفرحه أيضاً، أنه بدأ يتذكر شيئاً فشيئاً، يحث السير باتجاه نفسه. هكذا ما إن وصل إلى باب السينما، حتى فكر، ها هو يتذكر كل شيء وبقوة هذه المرة: «ها هي الساعة الرابعة عصراً، وها هو جرس السينما يدق ويعلن عن بدء عرض الفيلم»، قال لنفسه. «وها نحن ما زلنا واقفين عند بوابة السينما، نتزاحم مع الآخرين. مرة أخرى لم نحصل على بطاقة دخول».

تذكر، بأنهم جاءوا مرات عديدة، وكانوا كل مرة يكافحون بمشقة، لكي ينجحوا في شراء تذكرة لدخول العرض. لم يكونوا وحدهم فقط، إنما مجموعات كبيرة، ومن كل الأعمار، كانت تأتي من كل أطراف المدينة، وأحياناً تأتي باصات صغيرة مكتظة، تسد مدخل شارع الخيام الصغير. لم يحدث ذلك من قبل، إذ لا يمكن مقارنة التزاحم الذي اشتهر على الأفلام الهندية بهذا التزاحم، وحتى في حالة الأفلام الهندية، فلم تعش المدينة زحاماً إلا عند عرض ثلاثة أفلام اشتهرت جداً آنذاك: أم الهند، سنكام، ليالي شامي كابور. ولكن ما حدث هذه المرة، فاق كل تصور. ظل الفيلم يُعرض شهوراً عديدة، وأغلبية المشاهدين كرروا مشاهدتهم للفيلم. وبهذا الشكل، حصل البعض على أقنعة عديدة. في ذلك الوقت، قبل خمسة وثلاثين عاماً، ازدحمت المدينة بالأقنعة، على عكس ما كان يعتقد في البداية، بأنه الوحيد الذي أصر على لبس القناع لأنه أراد تغيير هويته، والسير نحو تشكيل شخصية جديدة.

لم تعش المدينة تجربة مثلها من قبل، ولم تكن هناك شركات دعاية أو خبراء بفن التسويق، ولا يعرف كيف خطرت تلك الفكرة لصاحب السينما، كم بودّه أن يسأل ويعرف من اقترح تلك الفكرة: توزيع قناع صغير مع نظارة ملونة على المشاهدين عند شراء تذكرة دخول. آلاف الأقنعة غزت المدينة في تلك الأيام. وأينما ذهب المرء، رأى أقنعة على وجوه الناس: على وجوه طلبة الجامعات والمدارس

ومن كل الأعمار، على وجوه المعلمين والمعلمات والأطفال، على وجوه الموظفين والعمال، على وجوه الشرطة، على وجوه الباعة الجوالين وأصحاب الحوانيت والدكاكين، على وجوه أصحاب الفنادق والمطاعم والبارات، على وجوه رواد الحانات وأئمة الجوامع والشيوخ، على وجوه زوار موسى الكاظم والإمام الأعظم وأبي حنيفة، على وجوه مذيعي النشرات الإخبارية ومقدمي البرامج، على وجوه الجنود الذين كانت ثكناتهم توجد في المدينة، وأولئك الذين سيأخذونها معهم إلى وحداتهم العسكرية في مدن أخرى، على وجوه سواق التاكسي والحافلات، على وجوه الأطباء والعاهرات، على وجوه رجال الأمن ورجال الصحافة والإعلام، على وجوه كتبة العرائض والشحاذين، على وجوه القوادين والشعراء، على وجوه القتلة ومطربي الإذاعة والتلفزيون، على وجوه ما عاد يتذكرها الآن، وجوه نسيها، وهي الأخرى نسيته، على وجهه ووجه أخيه. ما زال يتذكر تلك الصورة التي حفرها أو تخيلها مع نفسه في ذلك الوقت، والآن من غير المجدي أن يسأل ما إذا كان ذلك حدث بالفعل، أم أنه مجرد تخيل منه، تخيلهم يلبسون تلك الأقنعة، لأنه ذاته لبس قناعاً فريداً من نوعه: قناع الشبح، حتى تحولت المدينة برمتها أمامه إلى مدينة أشباح. هل يسقط هذه الصورة عليها، وهو ينظر إليها من زمن لاحق، أم أنها كانت مدينة أشباح بالفعل، ودون حاجة لأن يأمر أحد بذلك، كما حدث بعد سنوات قليلة مع قصة فيلم الشبح، وما حدث بعدها من قصص؟ فعل الناس ذلك، دون اتفاق مسبق فيما بينهم، وكأنهم أرادوا التدرب على أزمان قريبة تأتي، يتحول فيها الشبح إلى تهديد خطر، حيث لن ينفع لبس قناع أو نظارة، عندما يبدأ الناس مواجهة شبح من لحم ودم، لا يرحم، يترك خلفه دائماً ضحايا لا تحصى. «نعم، عندما لا ينفع قناع»، قال لنفسه، عندما تتحول الوجوه ذاتها إلى أقنعة، والناس ذاتهم إلى أشباح.

وقف أمام الصور المعروضة لفيلم اليوم، وتذكر كل الأشباح التي عاشتها المدينة. هل يعدِّدهم؟ سنوات عديدة كان شبح «القط الأسود»، يطوف في المدينة، مثله طافت أشباح أخرى في أزمان مختلفة، وأحياناً في الوقت ذاته: «الذئب الأحمر»، «الخيال الكاذب»، «رجل الفأس الأسود»، «العمامة السوداء»، «أبو طبر»، وغيرها من الأشباح التي ما عاد يتذكرها. سنوات طويلة، كان على المدينة أن تتحمل بالإضافة إلى الدمار والوحدة وكل ما جلبته الحروب من خراب، أن تتحمل عذاب أشباح تطوف ليلياً تحمل سكاكين وخناجر حادة، فؤوساً وأسلحة نارية، أو مجرد أياد غليظة تخنق بها بدم بارد. خمسة وثلاثون عاماً، ومنذ عرض فلم «الشبح»، ولم تودع المدينة الأشباح. ولا يعرف ما إذا كان سكان المدينة مثله، ما زالوا يحتفظون بهذا القناع وهذه النظارة؟ كم بودّه أن يفتح فمه الآن ويصرخ فيهم: اجلبوا هذا القناع من جديد، فهو أفضل من الأقنعة التي لبستموها لاحقاً، ونمت دون أن تلاحظوا ذلك، حتى أصبحت الأقنعة وجوهاً والوجوه أقنعة.

نظر حواليه وتطلع بالشارع، فرآه كما كان مليئاً بالأشباح. هل يتحرك وسط أشباح. كل ما يحيط به، يمنحه الانطباع، أنه يقف أمام شبح سينما ما عاد لها وجود. اقترب من شباك التذاكر، فتخيل الرجل الذي يجلس هناك مثل شبح يقوم بعمله الروتيني. يقدم له تذكرة الدخول التي دفع ثمنها، ويشير له بيده، حيث باب الصالة، وحيث عليه أن يدخل.

فعل كما طلب الرجل منه. دخل الصالة، وضع الحقيبة الصغيرة إلى جانبه، وجلس على الكرسي، تحسس القناع والنظارة في جيبه. «هذه المرة، السينما تشبه سينما أشباح، لأنها شبه فارغة، لم تكن السينما وحدها، إنما المدينة كلها مدينة أشباح»، هكذا حدث يوسف نفسه. وعندما انطفأت أنوار الصالة، وبدأ الفيلم، بدأ يوسف يبذل جهداً

خارقاً لتذكر الفيلم الذي رآه، وسيكون راضياً، حتى لو تذكر القليل من تفاصيله، فهو يعرف، أننا عندما نتذكر، لا نتذكر بالضرورة كل شيء، كل تفصيل صغير، إنما نتذكر فقط الإطار الذي يحوي الحدث ويغلفه، ومثلما يكتب المرء قصة طويلة، أو رواية، أو يروي قصة طويلة أو قصيرة، فيكفيه تذكر صورة ما، كلمة واحدة، حتى يبدأ كل شيء، يجري وحده، فالحكاية في النهاية، صنبور ماء، ما إن يفتحه المرء، حتى يبدأ بالجريان. حتى وإن أغلقه مؤقتاً، سيعود ويعود يتزود منه، وكأنه يخاف أن يصل إلى نصف الطريق، ويقتله العطش. هكذا هي الذكريات، عندما نبدأ في روايتها، نخاف أن نصل إلى نقطة لا نستطيع أن نتقدم بعدها، نخاف أن نروي ونروي ثم نصل إلى نقطة، نقول فيها لأنفسنا: نسينا هذا وذكرنا ذاك، وما كان علينا أن نذكره. «تلك هي الحال»، قال يوسف لنفسه، «عندما نتذكر، نصبح دائماً شخصين: الأول يتكلم والثاني يتذكر. الأول يكتب والثاني يضخ الدم في شرايين الكتابة. الأول جسد والثاني روح».

يعرف، أنه منذ الطفولة ومنذ موت البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، اعتاد لعب دور الاثنين، الشخصيتين: يوسف ماني الذي كانه، ويوسف الآخر الذي تمنى أن يكونه، وكأنه كل حياته إثنان، واحد يروي، وواحد آخر يتذكر، واحد يتكلم والآخر يصغي. كان عندما يشرع بفعل شيء، يخاطب نفسه دائماً وكأنه شخص آخر. كان يقول مثلاً: «ها هو يغادر المدرسة في طريقه إلى البيت. يمر بدكان العم أبو حليمة، وبمخازن بيع الأخشاب، وسيسلم على سيد كاظم، لكن لن يبوس يده، عندما يمد السيد يده»، أو «ها هو يذهب مع أمه لزيارة خالته، وسيفرح لرؤية ابن خالته، وسيلعبان سوية مع الحمام، هو يعرف الكثير عن فن طيران الحمام،

وعاداته»، أو «ها هو يشتغل في العطلة الصيفية في متجر محمد الديزفولي. سيختفي في أغلب الأحيان في مخزن المحل، بحجة ترتيب الأغراض هناك، لكنه يسرق الأثمار الجافة، ليس لأنه يريد أن يأكلها، كلا، فهو شخص أمين، إنما لكي يسرقها لأخيه الأكبر، وربما سيعطف عليه أخوه ويعطيه ولو القليل منها»، أو «ها هو يبحث في جوارير أمه، وعندما لا يجد شيئاً يذهب ويفتح دولاب الملابس، ويمد يده ويبحث بين الملابس عن محفظة النقود التي أخفتها أمه، وعندما لا يجدها، يذهب إلى كيس الطحين، ويجد المحفظة هناك، يخرجها، بحذر، يعرف أن أمه تخفيها أحياناً هناك، لكي تترك السرقة آثاراً من الطحين، من الصعب إخفاؤها، ولكن يوسف الذي أصبح مع الوقت ماهراً بسرقة أمه، ليس لأنه سارق، إنما لأن أخاه الأكبر، يونس، يطلب منه أن يسرق أمه، تعلم مسح آثار الطحين. وعندما تمسكه أمه بالجرم المشهود، لا يستطيع أن يقول لها إن أخاه الأكبر أمره أن يفعل ذلك، أولاً لأنها لن تصدقه، وثانياً، لأنه في كل الأحوال، في حالة اعترافه، سيضربه أخوه. سيسكت». أو «ها هو يجلس في المساء في الحديقة القريبة من مدرستهم. يجلس وحده، ينظر جانباً، فلا يرى غير أناس متشابهين، يسيرون مسرعين، وكأنهم يهربون من أشباههم، يتكلمون بأصوات عالية، لا شيء غير الهذر، كلام فارغ، ووجوه لا تحمل ملامح تثير الفضول، كيف تفعل ذلك وهي قادمة من سلالة واحدة، عبثاً يبحث عما يميز بعضها عن بعض: وجوه عائلته، وجوه أقارب وغرباء، وجوه بعيدة وأخرى قريبة، وعندما يتعب من متابعة الوجوه، يسأل نفسه، لماذا لا ترفع رأسك إذن، باتجاه السماء، إلى لطخات الغيوم أو إلى صفاء اللون الأزرق، وليفكر في ما يراه هناك جيداً، كيف تختلف الألوان في الطبيعة، تتدرج، وكيف تختلف الفراشات عن بعضها، تطير بألوانها وأشكالها المختلفة، ليتابعها في حركاتها الجميلة تلك، حتى

يراها تحط على إحدى الأزهار عشيقتها هناك، لينظر مرة أخرى إلى جانب، ربما ستكون الناس اختفت، وسيرى منظر شجرة، أو منظر فراشة تطير وتلهو بجناحيها وبرائحة الأزهار. وإذا أدرك أن الوقت تأخر، وأن رأسه بدا يثقل عليه، فلينهض، وليأخذ قلماً من حقيبته ليخط على لحاء شجرة قريبة، أو على طين العشب، اسماً ما، لبنت يعرفها، أو لا يعرفها، اسماً متخيلاً، أو اسماً سمع به في أغاني الراديو التي يحبها، أو ليحفر أي اسم آخر.». أو «ها هو يسير إلى البيت. يرجع حزيناً من رحلة بستانه، يسير على رصيف الشارع، يصفر بنغم مألوف، لا يفكر في أخيه، وفي طلباته التي ستبدأ حال دخوله البيت، يشغل نفسه بمنظر البيوت والدكاكين والحوانيت التي يمر بها، بالناس، وسيسمع دائماً أصوات الناس، تناديه باسمه، أو تمزح معه، فيفرح، ويبدأ بالقفز، وبالمشي زيك زاك، وسيرفع صوته، يغني أغنية يحبها هو وحده. ويدخل للبيت».

يتذكر، أنه درّب نفسه سنوات طويلة، على الانقطاع عن العالم الخارجي، على هذا الحوار بين الشخصين، بينه وبين نفسه، قبل أن يختفي من نفسه، ويضيع. كان غالباً ما يقول لنفسه، كما فعل اليوم، قبل أن يجد نفسه يدخل صالة السينما، إن هناك طائفتين من البشر، الطائفة الأولى تعتقد أنها ترى عالماً مرئياً يدور خارجها؛ أما الثانية، فتعتقد أنها ترى عالماً مرئياً هو الآخر، لكنه يدور في داخلها. وفيما يتعلق به، إذا ما سُئل إلى أي الطائفتين ينتمي بالفعل، أو يفضل الانتماء، فسيجيب بلا شك: إلى الطائفة الثانية. وكان في كل ما فعله ويفعله، يعبّر عن سعيه للوصول إلى هذا الهدف، حتى في دخوله سينما الخيام. فمثلما لم يشأ قبل ساعات رؤية بناية وزارة الدفاع التي ما عادت مكاناً للوزارة القديمة، في صورتها الجديدة، حيث تحولت إلى ساحة لربط الخيول والحمير والحيوانات ومأوى للمشردين والمجانين، دخل

شارع الخيام، وكأنه لا يعرف أن الشارع تغيّر تماماً، ليس لأن بناية المجمع التجاري لشركات إنتاج وبيع التسجيلات الموسيقية التي إشترى فيها ذلك القرص المدمج الذي إستقر في حقيبته الآن، القرص الذي حوى على أغنية: We never reached Georgia، لم تعد هناك، وتحولت إلى بناية لإنتاج وبيع أقراص أفلام البورنو، إنما صار الشارع كله أكثر شوارع العاصمة خطورة. المكان الذي يحوي على المراكز التي تنطلق منها العصابات وجيوش المسلحين، قبل أن تنتشر في ساعات العصر إلى مناطق المدينة الأخيرة، توزع الخوف والموت والدم والاغتصاب. كلا، لم ير ذلك، إنما سار ببساطة عبر الشارع حتى مدخل صالة السينما الذي يعرفه منذ زمن طويل، من غير المهم إن كانت السينما ما تزال هناك أم تحولت إلى خرائب كريهة، من غير المهم أن يكون الشارع كما كان في عصر ما قبل الحرب، أو تحوّل إلى مجرد شرخ محفور في جسد المدينة. سار، كأنه يسير على أرض أخرى، في أماكن بعيدة، وشوارع عريضة، وقد استحوذ عليه شعور غريب، بالفرح، وكأنه يرى الفراشات ذاتها التي رآها ترقص أمامه على ضوء النهار في الحديقة.

فكر يوسف، ها هو من جديد، يرى نفسه أمام نفسه، يجلس في صالة سينما الخيام، يرى أشياء كثيرة ويتذكر أشياء كثيرة، يرى أشياء أمامه ويرى أشياء في الخيال، يرى أشياء قريبة، وأخرى بعيدة، يرى الكرسي الجالس عليه والكراسي المحيطة به، ويرى كراسي أخرى تحمل لوناً آخر، مقعدها مبطن بالقماش، يرى رسوم مناظر طبيعية على جدران السينما، ويرى مناظر طبيعية بالفعل، يرى بعينين مفتوحتين، ويراها بعينين مغمضتين، يرى فيلماً يدور أمامه، وفيلماً سبق وأن رآه. ها هو يرى فيلمين. الفيلم الأول، بالأسود والأبيض:

مدينة صغيرة، مغلفة بالضباب دائماً، تسير الأمور فيها بشكل

روتيني. في الليل، وعندما يذهب الناس إلى فراشهم، يبدأ شبح بالتجول عبر شوارع المدينة، لا يرى المشاهد غير خياله الضخم. كل شيء فيه ضخم، أحذيته التي تشبه الجزمات العسكرية، يلبس قبعة ضخمة، وحتى السيجار الذي لا يفارق فمه، بدا ضخماً جداً. الشبح يمشي ويمشي، ويدخل البيوت بالدور، بيتاً وراء بيت، كل ليلة عشرة بيوت، وكلما يغادر بيتاً، يُخرج من جيبه دفتراً صغيراً، ثم يخرج قلماً من جيب سترته. حجم القلم يفوق حجم الدفتر. يشطب على اسم في الدفتر، بالتأكيد اسم الشخص الذي زاره في البيت. ثم يزور البيت الجديد. يدخل بصورة عادية، وليس كما يفعل اللصوص أو المجرمون. كلا، يدخل وكأنه يعرف صاحب البيت منذ زمن طويل. وهو الشخص النائم الذي يتصرف بصورة غير طبيعية. يستيقظ مذعوراً، يجلس نصف جلسة، ويبدأ يرتد ويرتد، حتى ينكمش على نفسه، ظهره يستند إلى حافة السرير، عيناه جاحظتان، ليس لأنه فوجئ بالزائر، إنما بدا خائفاً، لأنه يتوقع شيئاً منه، طلباً، سيشكل عبئاً عليه. في تلك اللحظة، يُخرج الزائر دفتراً صغيراً من جيبه، ويشرع بكتابة شيء مجهول. لا أحد يرى وجهه، غير الشخص الذي في الفراش. ولكن كل شيء يوحي أن الرجل يصغي جيداً للزائر، رغم الخوف الذي يبدأ يزداد ويزداد. الزائر لا يتكلم كثيراً، صحيح أنه يتكلم بصوت مبحوح، صعب فهمه، إلا أن كلماته قليلة وحازمة، وهو يتلو ما كتبه على الورقة قبل قليل. وعندما يمد الرجل الذي في الفراش يده إلى الورقة، تتسلط الكاميرا على الورقة، وتظهر الكلمات التي كُتبت عليها على عرض الشاشة، يقرأها من كرسيه في الصالة: «عليك أن تظل يقظاً أربعاً وعشرين ساعة، وتراقب صاحب الدار التالية، جارك، لأنه يدّعي أن حادثاً وقع له، وأقعده وجعله يُصاب بمرض النسيان. راقبه جيداً، وأخبرني ما إذا كان يكذب، اكتب كل شيء يقوم به، وأرسله بالساعة المكتوبة تحت مع

العنوان». فقط الجملة الأخيرة، المتعلقة بالساعة والعنوان كُتبت بخط تصعب قراءته، وربما لهذا السبب لم تترجم مثل بقية الجمل، أو، وذلك جائز أيضاً، كان الأمر مجرد لعبة سينمائية لزيادة التشويق. ثم يغادر. هكذا في الليل، يطوف الزائر بيوت المدينة بيتاً بعد بيت، وكأن البيوت في المدينة ليس لها بداية أو نهاية. أما في النهار، فيذهب الناس إلى عملهم اليومي، يعتقدون أنهم ينجزون أعمالهم اليومية بصورة طبيعية، يتحدثون قليلاً، بصورة مقتضبة، ولكن في كل المواضيع، باستثناء موضوع زيارة الرجل الضخم لهم في الليل، وباستثناء مرض النسيان الذي يُفترض، كما يبدو، أنهم يعانون منه جميعاً. وما إن يصلوا إلى بيوتهم، حتى يبدأ كل جار بكتابة تقرير مفصل عن جاره في البيت، أو جاره في العمل. ثم يخرجون، ويذهب كل واحد منهم في الساعة المحددة له إلى العنوان المكتوب، حتى يصل إلى أطراف المدينة، حيث نرى جداراً عالياً، وبوابة ضخمة، وهناك يدفع التقرير تحت الباب. وعلى هذا المنوال، ينفذ كل واحد منهم العمل المطلوب. وفي سيرهم ذاك، لا يلاحظون خيال الزائر الذي يصاحبهم في رحلتهم اليومية تلك. وفي المساء، وقبل غروب الشمس بساعات قليلة، يطوف رجال يلبسون الأسود، وجوهم تحمل سحنات حفاري القبور، يطوفون على البيوت، يأخذون الناس حيث البوابة الضخمة. ومع الوقت يتكرر هذا المشهد. وبعد سنوات وسنوات، تشيخ الناس وتهرم، تنسى أكثر، وتنجب أطفالاً، ويصير لهم أحفاد، أما الزائر فلا يشيخ، ولا يتعب أبداً. ولا يمنعه حاجز ولا تنهكه مسافة. تكبر المدينة، وتكبر معها رحلة الزائر، ويتضاعف معها عدد الناس، وينتشر مرض النسيان مثل وباء. وحتى عندما يرحلون إلى مدن أخرى، سواء برحلات عمل أو يزورون أقارب لهم، لا ينسى الزائر أن يزورهم. وهُم، الناس، وإن أبدوا خوفاً ظاهراً، أو امتعاضاً، في البداية فقط، فإنهم بعد تنفيذهم المهمة الأولى، أو

المهمة الثانية في أبعد تقدير، يكملون العمل وحدهم، بل يحزنون، عندما يتأخر عليهم الزائر، وكأنه ذاكرتهم الوحيدة التي بقيت لهم، التي تذكرهم أنهم فعالين. ومع الوقت، كلما كبرت المدينة، وكلما نشأت مدن صغيرة على أطرافها، توسعت المقبرة الخاصة بها واستحوذت على أراضي البساتين القريبة. أيضاً مع الوقت، يأمرهم الزائر أن ينجبوا أولاداً فقط، ذكوراً فقط، ويتركوا إنجاب البنات حسب حاجته هو لهنّ، فيفعلون. ومع الوقت، يختلط كل شيء، يصبح من المستحيل التمييز بين الجار وجاره، وكأن شكلاً واحداً استحوذ على المدينة. تحولوا كلهم إلى صورة واحدة. حينها، قال لهم الزائر إنه مرتاح، لأنهم أصبحوا يشبهونه، نسخة طبق الأصل منه، ثم أعلن بصوت واضح: «الآن أستطيع أن أُري وجهي».

بذل يوسف جهداً ليواصل مشاهدة الفيلم، وراح يركز نظره على عجوز يجلس عند بستان صغير، على حافة تل كبير، يشرف على واد كبير، برقت فيه أضوية مدينة كبيرة. جلس العجوز هناك، حوله حلقة أطفال صغار، يقول لهم: تلك هي قصة الشبح أيها الصغار، إنه رجل قوي، ذاكرته تتغذى من نسيان الناس. ثم يشير العجوز للأطفال بيده، ويضيف: خلفنا المقبرة، وتلك هي بوابتها، وتحت في الوادي، المدينة. علينا أن ننزل وننقذهم من الشبح. ثم يسحب خرجاً وضعه في حضنه، ويخرج منه قناعاً صغيراً ونظارة، ويطلب من الأطفال أن يضعوهما على وجوههم، لأنهم، كما يقول لهم، فقط بهذه الوسيلة يستطيعون رؤية الشبح والقضاء عليه.

أخرج يوسف من جيبه القناع الصغير، المزود بالنظارة البنفسجية، ووضعه على وجهه. ها هو يرى الفلم الثاني بالألوان:

رأى عصابة كبيرة، واحداً وعشرين شخصاً يخططون لسرقة محل كبير للمجوهرات، وعندما يصلون إلى المكان، ويدخلون القصر، لا

يعرفون أنهم وقعوا بالمصيدة، كانت الشرطة تنتظرهم هناك. كل ما خططوا له ذهب هباء، والآن على كل واحد أن ينقذ جلده. وبعد معركة عنيفة بكل أنواع الأسلحة، يتمكّن اللصوص من قتل عدد من أفراد الشرطة والهروب. كل واحد منهم يذهب لحاله. ولكن كل واحد منهم، يعتقد أن الآخر خائن. كل واحد يقول لنفسه: «من أين عرفت الشرطة، إن لم يكن بيننا خائن؟». يجب العثور على الخائن. صحيح أنهم نجوا من هجوم الشرطة، إلا أن كل واحد أصبح مشبوهاً كخائن. ليس ذلك فقط، إنما راح كل واحد منهم ينظر إلى العالم بعينين مختلفتين، ففجأة تحول كل شخص يعرفه، قريباً أو بعيداً يحمل ملامح الخائن. الصديق القريب، الزوجة أو الحبيبة، صاحب الحانة أو دكان الخضرة عند زاوية الشارع، العاهرة أو بواب العمارة، قس الكنيسة أو المحامي. دوامة كبيرة بدأت تلف الجميع. كنز الذهب الذي أرادوا سرقته، والذي حلم كل واحد منهم به، تحول إلى كابوس ثقيل، وتحولت السرقة إلى رحلة مجهولة، بين ملاحقة الشرطة لهم، وبين الشعور المتجدد بالخيانة. من فندق إلى فندق ومن مدينة إلى مدينة، تطاردهم الشرطة، وهم يطاردون بعضهم البعض، يدورن حول دائرة مغلقة، حيث لا طريق لا إلى الداخل ولا إلى الخارج، ينامون بعيون مفتوحة، لا يعرفون الفارق بين الليل والنهار، وجوههم شاخت مبكراً، والابتسامة تحولت إلى ذكرى قديمة، ومشاعرهم أخذت تحمل برود جثة. أما الحب، فقد أصبح مرادفاً للموت، والذكرى لحظة يقررها المسدس أو السكين التي يحملها أحدهم في جيبه. حتى أصبح من الصعب على أحد التمييز، بين مَن يقتل مَن، وبين مَن يطارد مَن، بين القاتل والقتيل، وبين الضحية والجلاد، بين المتهم والبريء، وبين الواشي والأمين، بين لون الذهب والتراب، وبين الذئب والحمل، بين الكنز والقبر، وبين الله والشيطان. ومع الوقت، تفشى سوء الظن

والضغينة مثل وباء، مثل العدوى. ليس في الحي الذي يسكن كل واحد منهم فيه، وليس في المدينة التي يعيشون فيها كلهم، إنما في كل المدن والأماكن التي تطأها أقدامهم. أينما حلوا، تحل المصيبة ويسود النحس، يحل القتل وتنبعث الخيانة، يأتي الموت ويتفشى الدمار. عشرات الناس تموت بالخطأ أو عمداً، أشخاص يُعتقد بأنهم الخونة، رهائن يؤخذون بصورة عشوائية، من غير المهم إن كانوا أطفالاً، أم شيوخاً. اللاعبون يزدادون ومعهم يزداد الموت، وينشر ظلاله في كل مكان، أعداد لا تُحصى من الشرطة ووحدات الجيش، وأعداد لا تُحصى من المدنيين. الخونة في كل الأطراف، والقتلة يترصدون في كل الجهات. كل واحد منهم، يعتقد أنه سيجد خلاصه بقتل الآخر. مئات القتلة، وكأن المأزق لا يجد حلاً، إلا بهذا الشكل. المقابر تكبر، والدم يسيل حتى في الأنهار، يمتزج مع ماء الشرب. تمر سنوات وسنوات، والحال لا تتغير إلا نحو الأسوأ. الواحد والعشرون لصاً نسوا حكاية الكنز، شاخوا وأنجبوا لصوصاً صغاراً، أبناء وأحفاداً، وشاة وقتلة، خونة وجلادين، شرطة ومُطارَدين، لكنهم أولاد، فقط أولاد، لا بنات، ليس بينهم بنات، ليس لديهم الوقت الكافي لإنجاب البنات. ومع الوقت تختفي النساء تماماً من المدينة. وعندما يصبح الذكور سادة المدينة، عندما يصبحون هم الجلادين والضحايا، المتهمين والأبرياء، عندما يصبح من المستحيل التمييز بين الشرطة واللصوص، بين الخونة والأبرياء، بين الوشاة والذين يقفون على الحياد، بين الموتى والأحياء، بين الذكور والفحول، عندما تصبح المدينة كلها تحمل وجهاً واحداً متشابهاً، يظهر واحد وعشرون لصاً من جديد، يبدأون بالتخطيط بالبحث عن كنز في أعالي المدينة.

حينها يرى يوسف من مكانه، عجوزاً يجلس عند بستان كبير، يشرف على واد كبير، برقت فيه أضوية مدينة كبيرة. جلس العجوز،

هناك، حوله حلقة من الأطفال، يقول لهم: علينا أن ننزل وننقذهم. ثم يسحب خرجاً ويضعه في حضنه، يُخْرِج منه قناعاً صغيراً ونظارة بنفسجية اللون، ويطلب من الأطفال أن يلبسوا نظاراتهم وأقنعتهم، لأنهم، كما يقول لهم، بهذه الوسيلة يستطيعون رؤية ما لا يراه سكان المدينة، وهم سيعثرون على الكنز قبل أن يجده اللصوص.

عدل يوسف من جلسته قليلاً، وحرك القناع والنظارة قليلاً على وجهه. فكر فيما إذا كان النفر القليل الذي يجلس معه في السينما، يرى ما يراه، وهم هنا لهذا السبب مثله، وإلا لماذا يذهب الناس إلى السينما. تساءل مع نفسه، لو سأله أحد مثلاً، لماذا يجلس هنا، لأجاب، هو يأتي لكي ينسى نفسه، ولكي يجد نفسه في فيلم يفكر فيه وحده. أليس ذلك هو السبب الذي يحمل الناس على الذهاب إلى السينما، لكي يلعبوا أدواراً أخرى. كل واحد منا يبحث عن دوره، سواء كان دوراً يتمناه، أم دوراً عثر عليه لنفسه تواً، وبدأ بتمثيله منذ وقت قريب. وهناك في السينما، يبحث كل واحد منا عن قرينه. هناك من يجده، فيقتنع بما عثر عليه، ويكف عن زيارة السينما مرة أخرى: فيلم واحد يكفيه. والبعض الآخر، يشاهد الفيلم ذاته عشرات المرات، ربما لشك يستحوذ عليه كل مرة، وكأنه يريد التأكد من صحة ظنونه، بأن ما رآه على الشاشة، له علاقة بالفيلم الذي يدور في داخله منذ زمن طويل، القصة التي يتماثل معها، أو لأنه يريد إعلان تضامنه مع تلك الشخصية التي تتحرك أمامه على الشاشة، ويشعر بأخوّة معها. لذلك، نرى البعض يجلس في السينما، عيناه مسمرتان على الشاشة، يردد كل كلمة يقولها الشخص الذي يشعر بقرب معه هناك، يبكي معه، يضحك معه، يصرخ معه. يكره ويحب معه.

يتذكر، أنه كان يفضل دائماً الذهاب إلى السينما وحيداً. وكثيراً ما حاول أن يشرح القضية لسراب، التي ظنت أنه يتضايق منها، وكثيراً ما

قالت له إن معظم الشباب الآخرين يفضلون الذهاب مع صديقاتهم إلى السينما، بسبب الظلام وما يحدث فيه، فكان يجيبها أن السينما ليست غرفة نوم، إنها مكان عمل المخيلة، وهو عندما يرى شخصيات تتحرك أمامه على الشاشة، يريد أن يكون حاضراً معها في كل كيانه، وألا يشغل نفسه بشيء آخر، لا يريد أن يفصل أي جزء من جسمه، كأن يكون ذهنه هناك في الفيلم، ويده تتنقل في حضن امرأة، تعمل في مكان آخر. وعندما كانت تعلق، ولكن ليس كل الأفلام تستدعي عمل المخيلة، فهناك عشرات الأفلام المملة، كان يجيبها أن الأمر، بالنسبة إليه، لا يتعلق بقصة الفيلم أو نوعيته، إنما بالسينما، بالمكان. فهو ما إن يدخل صالة السينما، ويجلس هناك، وما إن تُطفأ الأنوار، حتى يبدأ عالم آخر بالنسبة إليه، ويمكن أن يتصور نفسه جالساً هناك ساعات طويلة، ومرات يخرج لا يعرف بالضبط الفيلم الذي رآه، لأنه يشغل نفسه دائماً بفيلم يراه على شاشة مخيلته، في المسافة الواقعة بين شاشة العرض وعينيه.

من الجائز، وهو يأتي على هذا الجزء من القصة، أنه ظل معلقاً بفيلم الشبح لهذا السبب. ففي ذلك الوقت، عندما كان صبياً، ساعده الفيلم - الشبح على وضع مسافة مخترعة بينه وبين نفسه، في حالته بين يوسف الصبي الذي خرج للتو من سجن الأحداث وبين يوسف الذي كان يتوق إلى أن يكون شخصاً آخر، غير الصبي المتهم بالقتل. واليوم عندما يفكر في ذلك، لا يعرف سبباً آخر، إذ لم يكن هو الطفل الوحيد الذي فرح بتلك المسافة التي وفرها له حصوله على القناع مع النظارة، إنما كل رفاقه الأطفال، وحتى هؤلاء، لم يكونوا وحدهم، إنما شاركتهم أغلبية المدينة الشعور ذاته، إن لم يكن سكان المدينة جميعهم. والآن، عندما ينظر إلى ما حدث، من هذه المسافة البعيدة، يكتشف، كم تكون فكرته صحيحة، بما يتعلق بما قاله لسراب لاحقاً. فهو لا يعتقد بأن الأطفال والناس أعجبتهم قصة فيلم الشبح بحد ذاتها،

ولهذا السبب لبسوا القناع، إنما الشعور الذي استحوذ عليهم، وهم يرون الفيلم من هذه المسافة، التي تفصلهم عن الشاشة: القناع والنظارة رسما خطاً فاصلاً، وإن كان وهمياً، بين المخيلة والفيلم، بين العينين والشاشة. فكما يقول جوزيف كرملي أو جوزيف ك دائماً، «ليس المهم الحدث أو زمن وقوعه، إنما الأهم هو كل ما يحيط بالحدث». ليس من الغريب إذن، إن دمغ فيلم الشبح المدينة كلها، وحوّلها إلى مدينة أشباح. ظل الناس يلبسون القناع مع النظارة، أياماً طويلة، حتى نمت الأقنعة على وجوههم، وتساقط ورقها، بعد أن أصبحت جزءاً من الوجه. كانوا يريدون أن ينسوا، وقدم لهم القناع هذه الإمكانية، التحول إلى أشباح. ويتذكر يوسف، كيف أن أخاه الأكبر منه ظل يلعب معه في البيت اللعبة ذاتها.

كان أخوه الأكبر، يونس، يأتيه في الليل، لابساً قبعة سرقها من المحل الوحيد لبيع القبعات في الباب الشرقي؛ في يديه قفازان أسودان خشنان، وفي فمه سيجار كبير، لا يعرف من أين جاء به. وكان يتحرك ويقوم بكل حركة، صغيرة كانت أو كبيرة، مثل الشبح، ليقف في النهاية عند رأسه، ويُخرج دفتره الصغير، وقلمه الكبير، ويملي عليه ما يريده: مراقبة حركة ابن خالتهم كريم، الذي يأتي لزيارتهم أحياناً مع مجموعة من حمامه. ويطلب منه معرفة عدد الحمام الذي يملكه، وسرقة بعضه، وجلبه إلى سوق الحمام في اليوم الثاني، لكي يبيعه الأخ «الشبح». ثم مراقبة الأم، أين ستخفي محفظة النقود، تمهيداً للسرقة. ثم النزول للشارع، ومراقبة رجال الدين الذين يخرجون من الحسينية القريبة، والذين يأتون إلى محل توما لبيع العرق، وتسجيل أسماء من يشتري زجاجات العرق منهم. ثم مراقبة النساء اللواتي يتحركن، بشكل سري في الليل، وتلك كانت أصعب مهمة يكلفه بها، لأن ذلك يعني، أن يظل يقظاً حتى ساعات متأخرة من الليل، يلتصق وجهه بحديد شباك

البيت، صيفاً وشتاءً، وعليه أن يظل ينتظر هناك، كما أن عليه أن يعصر مخه جيداً ليتعرف على الوجه، حتى يعرف اسم المرأة. وفي تلك الليالي، وكلما ذهب إلى الفراش، كلما شعر برعب كبير يستحوذ عليه. كان يخاف الشبح، وكان يعرف أنه عاجز عن الدفاع عن نفسه، فحتى القناع والنظارة اللذان وضعهما على وجهه في ليال عديدة لم تحصّناه ضد زيارات أخيه، الشبح، وكثيراً ما تساءل مع نفسه، عما إذا كان ما يراه، هو أخوه بالفعل، أم شبح أخيه، أم الشبح ذاته الذي رآه في الفلم، وزاد شكه من طريقة تعامل أخيه معه في اليوم التالي، إذ كما يبدو أتقن الأخ اللعبة تماماً، وكان يتصرف، عندما يسلمه النقود المسروقة، أو يقدم له قائمة أسماء رجال الدين، أو أسماء النساء اللواتي تحركن ليلاً بصورة سرية، يتصرف، كما لو أنه يعرف بالأمر للمرة الأولى. إذ كثيراً ما سأل أخاه، لماذا عليه أن يفعل ذلك، وعندما يخبره بأنه طلب منه ذلك في الليلة الماضية، يجيبه يونس، أكيد أنه زارك شبح يشبهني، فيقول له، نعم، الذي زارني شبح يشبهك. فيضربه أخوه، وينهره، ويقول له بأنه لا يريد أن يسمع منه كلاماً شبيهاً في المرة القادمة. ثم يتسلم منه النقود أو قائمة الأسماء. على مدى زمن طويل، تكررت لعبة أخيه تلك، الشبح. وفي ذلك الوقت لم يجد تفسيراً لبعض طلبات الأخ – الشبح. فإذا كان يعرف، لماذا تسرق الناس النقود، فإنه لم يعرف، لماذا كان عليه تسجيل أسماء رجال الدين والنساء؟ ولا يتذكر الآن، ما إذا سأل نفسه أصلاً سؤالاً مثل هذا في ذلك الوقت. وكان عليه أن ينتظر سنوات لاحقة، عندما سيكبر الأخوان، ليعرف أن أخاه كان يطلب من رجال الدين حصة من أموال النذور التي يحصلون عليها من الناس، مقابل صمته على ما يفعلونه، كما كان يطلب من النساء أن ينمن معه. لكن لعبته كُشفت ذات يوم، عندما تورط مع امرأة ذات نفوذ.

كم بودّه أن يسأل أخاه الآن، عما إذا كان ما يراه في الليل شبحاً بالفعل، أم أخاه بلحمه ودمه؟ وسيطلب منه ألا يروي له قصة أخرى جديدة، فلقد روى له ما يكفي من الحكايات، وهو لم يقل له ذلك آنذاك، لأنه كان يخاف منه، كان شبحاً يستحوذ على حياته، وكابوساً يسيطر على أيامه. وحتى قصة الشبح، سرقها أخوه منه.

يتذكر الآن وهو جالس في السينما، أنهما، عندما خرجا من صالة السينما، وأصبحا في الشارع، علق بأنه منذ اليوم لن يستطيع النوم بصورة مريحة، لأنه بدا منذ الآن بالتفكير في الشبح، وأنه يعترف لهما، لأخيه ولابن خالته، بأنه لا يعرف الآن وسيلة يستطيع عن طريقها طرد الشبح إذا زاره، ولن يستغرب، إذا نفذ كل طلباته إذا زاره، ولكنه سيفكر منذ اليوم، بوسيلة تساعده على النجاح بمقاومة الشبح. وعندما رأى أغلبية سكان المدينة تضع القناع على وجهها، قرر هو خلع القناع، وقال إنه لا يريد أن يكون واحداً من المجموع، أن يملك الوجه ذاته الذي يملكه الآخرون، لأن الشبح بالتأكيد لا يعرف وجهاً آخر، غير الوجه القناع. ثم قال إنه سيحتفظ بصورة احتياطية بالقناع والنظارة تحت الفراش، فربما يحتاج إليهما ذات يوم. ولكنه نسيهما تحت السرير، كل هذا الوقت، ولم يضعهما مرة على وجهه. منذ خمسة وثلاثين عاماً. واليوم، هي المرة الأولى التي لبس فيها القناع والنظارة، بعد كل هذه السنوات.

لمس القناع والنظارة، وقد استحوذ عليه شعور جديد من النشوة. وتذكر، كيف يتساوى التذكر والنسيان في الطفولة. وفكر في أولئك الذين يعتقدون أن الطفل يتذكر، أو ينسى. صحيح أنه لا يعرف كيف يعطي إجابة مفصلة، لكنه يعرف أن الطفولة تحوي الاثنين: النسيان والتذكر. ويصعب عليه أن يطلق عليهما هذين الاسمين. ففي حالته مثلاً، لم ينس القناع والنظارة تحت السرير، إنما تركهما هناك، وكأنه

حدس بأن زمناً سيأتي، وسيحتاج إليهما، ليس لنفسه فقط، إنما لهم، لمن كبروا، ليذكرهم بهما، بأن القناع مجرد لعبة، وأن عليهم خلعه الآن، مهما بدا الأمر عصياً، وهو لا يريد أن يتصور أنه فعل ذلك وحده. وإذا صعب على البعض أن يفعل ذلك، لأنهم نسوا القناع على وجوههم كل هذه السنوات، وأصبح من الصعب فصله عن وجوههم، فربما عليهم اللجوء للعقيد ومرافقه الجندي الشاب، صاحب الماكنة التي تفرز الذكريات السعيدة من الذكريات السيئة. إذ تكفي لمسة كهربائية بسيطة، تسري في الجسم، حتى يستيقظ كل ما هو سعيد عند الإنسان. في تلك اللحظة شعر بنفسه مثل شخص يستيقظ من نوم ما عاد يتذكر كم من الوقت استغرق فيه.

ما إن استيقظ، حتى عدل من وضع جلسته في مقعده. لم يكن القناع بالنظارة على وجهه، إنما كان في حضنه. أما أمامه على الشاشة، فقد رأى وبصورة خاطفة رجلاً يمر من أمامه بسرعة ويضيع في حقل واسع، بين أشجار، يعتقد بأنها أشجار تفاح أو زيتون، لأنه لم ير على أغصانها الأثمار. وفي اللحظة نفسها التي اختفى فيها ظل الرجل، رأى امرأة تركض بخفة، تأتي باتجاهه، تركض وتركض وكأنها تريد أن تخرج من الشاشة ولا تقدر، تمد يديها نحو الرجل، أو نحوه، لأن الرجل ضاع في عمق الشاشة، وهناك خلف الأشجار، يلمح ظلال مدينة بدت بعيدة، بعيدة، وأبعد منها ظلال رجل، فيراه، يرى نفسه، يصعد مدرجات المدينة العالية، يصعد بصوت مسموع، يزفر ويزفر حنقاً شديداً، بالنسبة لرجل حليق الرأس، مريض مثله، هزل وجهه وشحب لونه، وازدادت نحافته، بقلب ضعيف، وذاكرة شبه مهدمة، كل شيء يشير إلى مغادرته المستشفى أو هروبه منه للتو، وبالذات يجب أن يكون مستشفى للأمراض العصبية. المرأة تركض، ويرى الرجل ينظر نحوها،

يرى نفسه، يجلس في مكان صغير. هل هو غرفة أم صالون بيت؟ لا يدري، الرجل يجلس، وكما يبدو استيقظ مبكراً، مبكراً جداً، يراه، يرى نفسه، يجلس منذ ساعات طويلة عند طاولة عليها منفضة سجائر وكأسين وعلبة بيرة وصحيفة محلية، وهو يحضر جهاز التسجيل الذي تركه طوال الليل مفتوحاً يسجل أصوات الأشباح التي تزور البيت عندما ينام، يخرج كاسيت الليلة الماضية ويضع كاسيتاً جديداً، ويمسح العرق عن جبينه، ولبرهة ينهض، ويمسح جبهة المرأة التي وقفت في الصورة، بورتريه امرأته الوحيدة، كما يبدو، المتوفية ربما، أو التي هجرته، من يدري. يراه، يعود يجلس في مكانه، ويرى نفسه، ولا يدري أكثر، لكنه يعرف أنه يرى أيضاً المرأة تركض، والرجل يتحدث مع المرأة التي في الصورة؟ أم المرأة التي على الشاشة؟ لا يدري. يصعب عليه تبين ملامح الرجل، فقط ملامح المرأة تشع بوضوح على عرض الشاشة. لا يرى وجه الرجل أبداً، وهو يعرف أن التخيل يمكن أن يصنع أجمل الوجوه، أو أكثرها استحالة، لكنه لا يمنح ملامح دقيقة، وتلك هي ميزته التي تثير الدهشة. لكن على الضد من ذلك، يقول لنفسه، أستطيع أن أرى تكَوينه الجسدي، وطريقته في المشي، اللياقة القديمة، قبل أن يشيخ ويمرض وينحل وتختل ذاكرته، قبل أن تهجره المرأة أو تموت. يرى ملابسه المغبرة، العتيقة، والتي تشققت في بعض الأماكن، أشياءه المرمية على الطاولة، والحقيبة القديمة التي تحتوي على كل شيء، على حياته، التي كان يحفظ فيها ترجماته لقصص الحب الأجنبية وبعض الرسائل التي لا تحمل اسم مُرسل، ربما واظب على إرسالها إلى زوجته الغائبة أو المتوفية، أو لأصدقاء غادروا البلاد، بلاد المنتصرين والمسحوقين، ومجرد وضع الاسم، يمكن أن يسبب له خطراً أكثر مما كان يفكر فيه. تقترب المرأة من الرجل الجالس عند جهاز التسجيل، لكن الرجل كما يبدو، شغل نفسه بوضع كاسيت جديد في المسجل.

المرأة تركض، تناديه، والرجل ينظر عبر النافذة، الحقل كبير وواسع، يمتد تحت نافذته، والرجل يتكلم، يسمعه يتكلم، برتابة، يعيد كلماته برتابة محبوبة، مثل آلة غزل، صوته يحمل رنيناً معروفاً لسمعه، يروي ويروي كيف يقضي أيامه، يحكي ويحكي عن جولاته عبر المدينة، وهو جالس في البيت، كما يبدو منذ سنوات، منذ زمن ما عاد يتذكره، يحكي للمرأة المبتسمة في إطار الصورة هناك، للمرأة الراكضة تحت نافذته، بعيداً في عمق الشاشة، أو قريباً من جهاز التسجيل الذي راح يسجل كل كلمة يرويها، يحكي ويحكي عن جولات مفترضة قام بها، وأخرى لم يستطع القيام بها، لخوف أو لتعب أو لميل للعزلة، عن أحلام وأوهام وآمال وخيبات، عن صداقات وآلام وأحزان وصدمات، عن الليل وهو يسري، والنهار وهو يجري، عن سماء تفطرت وجبال تشققت، وكواكب اندثرت، عن أزمنة سادت فيها الفوضى، وأصبح القتل هو المعيار؛ عن أصدقاء مفترضين، يصرّ على تذكرهم، حتى لو أجبر نفسه على تبنّي أصواتهم والحديث نيابة عنهم؛ عن بنات يريد تذكّر وجوههن، فتهرب ملامحهن منه؛ عن أغنية سماعها منذ زمن طويل، تُذكره بامرأة شفافة، تظل تلاحقه وتلاحقه، ليس لأنها تشاء ذلك، إنما لأنه يعرف أيضاً، بأنه لا يقدر على العيش بدونها، فلن ينتحر مهما حدث الأمر، ولن يغادر مكانه الجالس فيه، لكي لا يحدث له شيء يجعله يفقد هذه المرأة، إذ من غير الممكن بالنسبة إليه تخيل أن يمر يوم عليه، دون أن يراها تزوره، أو يرى وجهها أمامه، في الصورة أو في كل غرف البيت، تمشي أو تركض، يسمع صوتها، ينادي وينادي عليه، حتى يصبح وجهها كل حياته، يستحوذ على كل مكان يجلس فيه، والرجل فرح، فرح جداً، فرح بالمرأة، بما يحدث له، ويروح يحكي ويحكي، حتى يصل إلى سينما يدخلها، ويجلس فيها، سينما مقاعدها نصف فارغة. يحكي ويحكي، حتى يختلط صوته مع وجوه متعددة.

يتطلع إلى الشاشة، فيرى وجوهاً عديدة، تشكل في النهاية وجهه، الذي لا يعرفه من قبل، لكنه يتعرف عليه مباشرة، فينظر يميناً ويساراً، وكأنه يريد أن يتأكد أنه لا يحلم، فيرى امرأة وحيدة، تنظر مثله إلى الفيلم، غطست في مقعدها. فيتساءل مع نفسه ما إذا كانت المرأة تحاول التعرف على نفسها هناك، أم التعرف على وجه الرجل في الفيلم، أم التعرف على وجه المرأة التي ما زالت صورتها تغطي الشاشة؟ هل تشعر المرأة بالتضامن مع تلك المرأة، التي تحاول وتحاول أن تجعل الرجل يتحرك من جلسته، أن ينهض، قبل أن تظهر «النهاية» بخط عريض، وتشتعل الأضواء، ويبدأ الضجيج.

فكر، أنه يفهم ما يجري هناك، مثلما يفهم ما يجري هنا في السينما، ومن الصعب على أحد غيره أن يفهم الحزن الشفيف الذي يلفه، أو الخيبة التي استحوذت على أيامه، كما لو كان هو وحده، الذي يرى كل شيء، يرى فيلمين: فيلم يدور على الشاشة، وفيلم يدور في داخله؛ وحده يشعر بالعزلة، ويعرف كيف أن المرارة يمكن أن تطحن روح الواحد، وتهرسه مثل عجين، وتلفظه عند أقرب زاوية طريق. صاحبه هذا الشعور طويلاً، حتى عندما غادر السينما وأصبح في الشارع، حيث راح يسير ببطء، يحمل حقيبته، يتوقف في بعض الأحيان، وكأنه يريد تذكر شيء نسيه في مكان ما. وعندما وصل إلى أول واجهة توقف فجأة، لكنه عرف هذه المرة سبب توقفه. تذكر أنه نسي القناع في السينما. لم يشأ الرجوع، فبطريقة ما شعر بشيء من التحرر في داخله، وكأنه إنتهي من قضية ظلت عالقة حتى اليوم، أو كأنه نزع قناعاً حمله على وجهه سنوات طويلة، وها هو وجهه يستعيد ملامحه من جديد، مثل ممثل يخرج من التابلوه، يغسل ماكياجه، ويخرج إلى الشارع، يواجه الناس.

عاين وجهه في الزجاج، ورأى دمعة تسيل على خده الأيسر. متى

بكى للمرة الأولى، بل عليه أن يسأل نفسه، متى لم يبك للمرة الأولى. فكر، مع البكاء يستعيد المرء وجهه، لكنه ما يزال بكاء قليلاً، وهو عنده أطنان من البكاء. بكى، ورأى هناك أمامه على الزجاج وجهه الذي يصر على التغيير. رأى الأقنعة التي عليه نزعها، الأقنعة الكثيرة التي تراكمت هناك وشكلت طبقة كثيفة على وجهه، رأى أخاه، يونس الذي سرق ألعاب طفولته، رأى ابن خالته، يقف وقد غطاه الحمام من كل الجوانب، ثم رآه سائلاً لزجاً في كيس نايلون بسيط، مجرد أشلاء؛ رأى طوابير من الجنود تهرب وقد رمت أسلحتها، تقصفهم الطائرات وينتهون جثثاً محترقة هناك؛ رأى البصرة أكياساً من الرمل، رأى بغداد الحرائق والبصرة الرماد؛ رأى مقابر تمتد وتمتد. رأى أطفالاً تجمد البكاء على وجوههم، يُدفنون بدون ألعابهم؛ رأى حقول ألغام وحيوانات مبقورة وخيولاً تعدو مذعورة؛ رأى نساءً تحاول الهرب لكن يخنقها مغتصبوها؛ رأى أمه تصيح وتولول، تلوح بمنديل أبيض؛ رأى مدناً تندثر وممالك تتهالك على سكانها؛ رأى مريم عارية تجلس مثل لبوة تعبة، تلتف يداها محتضنة أجساد بناتها الأربع؛ رأى رفقة ورحمة وشفقة ورأفة، بجدائل ملفوفة مثل ذيل حصان؛ رأى جلادين، يعذبون ضحاياهم، وضحايا تتوسل، تستنجد صارخة تطلب: رِفقة أو رحمة أو شفقة أو رأفة؛ رأى سراب تخرج من عمق النهر في فجر معتم، تلوح بيديها وتغني لخيال أبيها يرقد منتظراً في مستشفى الشماعية؛ رأى طالبات مدراس يتنزهن مع عشاق سيموتون بعد أيام؛ رأى ملائكة وشياطين يسيرون سوية؛ رأى الله والشيطان؛ رأى أقنعة ومرايا؛ رأى أخاه، مرة أخرى، يونس يعود بأكثر من قناع؛ رأى جوزيف كرملي أو جوزيف ك ينادي عليه بصوت محموم، ويقول له: أنا هارون والي الذي يروي حكايات الخراب، من مكاني البعيد عنكم، لكنني أكثر قرباً مما تتصورون؛ رأى رجلاً، يشبهه، لا يخرج من بيته من سنوات، يجلس في صالون البيت عند

طاولة، وضع عليها آلة تسجيل، يُملي عليها تفاصيل جولات يومية، يتخيل أنه قام بها؛ رأى عبر نافذة الشباك التي شرع الرجل يتطلع منها، أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ورأى نفسه يخرج من غيهب بئر، قناعه ممزق. ثم رأى فجأة وجه امرأة تذكّر أنه يعرفه، يلمع إلى جانب وجهه، للحظات، ثم رآه يتحرك ببطء إلى شماله. حدث ذلك تباعاً مرات عديدة، أثناء سيره عبر شارع الرشيد، ففي كل مرة وقف فيها يعاين وجهه في واجهات المحلات الأخرى، محلات العصير ومحلات بائعي الذهب وتجار الساعات وبائعي الأحذية، ومحلات الأنتيك، محلات بيع الملابس والمكتبات، المحلات الصغيرة والمحلات الكبيرة، حتى رأى وجه المرأة يقف خلفه، يلتصق بوجهه، يخطف وينسحب ببطء، ويختفي أمامه، يسير بسرعة مثل ظلّ هارب، يدور معه أينما ذهب، يسير مع على طوال الشارع، ويصعد معه الجسر، يعبر معه حتى الجهة الأخرى من النهر، يجره وراءه ويرمي به معه، في أزقة ودرابين؛ تساءل مع نفسه، من أين يعرف هذا الوجه؟ هل هذا هو الوجه الذي رآه قبل لحظات في السينما؟ فهو ما إن يحرك رأسه، ليتأكد ما إذا كانت بالفعل هي المرأة ذاتها أم لا، ما إذا كان ما يراه حقيقياً، وليس هو الآخر وهماً من أوهامه، أو تنويعة لوجه تلك البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، التي يحملها معه منذ الطفولة، حتى يهرب الوجه منه، ويرى ظلاً يغيب، يتقدم أمتاراً عنه، وكأنه يحثه أن يسرع ويلحق به ليقبض عليه.

الفصل السابع

في سعادة تقاسم مائدة بصحبة امرأة العمر: مع علبة سجائر وكأس بيرة مثلجة والقليل من الإيروتيك

«لماذا تبعتني كل هذا الوقت؟»

سمع صوتاً يأتيه من ساحة البيت، من خلف الستارة التي فصلت مدخل البيت عن الباب الخارجي، الذي كان مفتوحاً، والذي دفعه بحذر قبل أن يدخل. تردد لحظات طويلة قبل أن يدخل، وخاف أن يحدث له شيء غير متوقع، لأن قدميه - كما يعتقد - تطآن عتبة بيت غريب، ولكنه جمع شجاعته في النهاية، وقرر الدخول، بعد أن استحوذ عليه شعور سري، تغلغل في كل مساماته، يقول له بأنه لا يعرف هذه المرأة وحسب، إنما المكان يبدو له مألوفاً أيضاً.

أزاح ستارة المجاز. رأى المرأة واقفة هناك بثبات، وكأنها تنتظر مجيئه. وعندما رآها تستدير باتجاهه، نصف استدارة، وتتفحصه، نظراتها متسائلة، أراد أن يقول لها بأنه لم يتبعها هي، إنما كان يظنها امرأة أخرى، وأنه سيذهب، لأنه أخطأ، ويرجو منها أن تسامحه، وأن تتفهم ما حدث، فهو مريض، يمكن أن تتأكد من ذلك بنفسها، كل شيء في ملامحه، من رأسه الحليق حتى شحوب وجهه، يشير إلى مرضه، لم ينم منذ ثلاث ليال، أما في الليالي التي سبقت ذلك، فلا يستطيع تسمية تمدده على الفراش بالنوم، لكنه رآها تقترب منه، ثم توقف لتحافظ على مسافة لا بأس بها بينها وبينه.

«سألتك، لماذا تبعتني من جديد؟»

أعادت سؤالها بصوت واثق. اقتربت منه، هذه المرة، لمست يده، ثم سحبتها مباشرة. سارت على أطراف أصابعها، وكأنها تخاف إيقاظ أحد ما.

«لنجلس في الصالون، قبل أن يأتي يونس»

قالت له.

أراد أن يقول لها، عن أي يونس تتحدث؟ لكنه فضل أن يتبعها بصمت.

«لا زلت تدور بالحقيبة ذاتها. ضعها بالمجاز.»

سمح للحقيبة أن تسقط من يديه. ثم تفحص المرأة بحذر. كانت أنيقة، لبست بدلة أنيقة، نظيفة ومكوية، وكأنها ذاهبة إلى حفل، أو إلى دعوة، كل شيء يشير إلى أنها لا تشكو من عوز، حتى الأحذية التي لبستها، أحذية من جلد، بكعب عال. فكر، أن الأحذية هي دائماً علامة على وضع المرء الاجتماعي. الكعب العالي، والرغبة بالصعود.

عندما جلسا هناك، فكر، أن الموبيليات الموجودة في الصالون، ولون الحائط التوركواز، تبدو له مألوفة، وكل شيء هنا متطابق مع صالون بيته.

«هل أعجبك فيلم اليوم؟»

لم يجب. ظل محافظاً على صمته.

«لماذا أسألك، أعرف جوابك. ستتحدث عن فيلم آخر، غير الفيلم الذي دار على الشاشة».

فكر من أين عرفت ذلك، فهي تتحدث وكأنها تعرف كل شيء عنه.

«مرة أخرى تتبعني ولا تريد أن تتحدث عما فعلت اليوم. لا تريد

أن تقول إنك تجولت كما هي عادتك عبر المدينة. كم أحسدك أحياناً، على ما تفعل. على ما تعتقد أنه المدينة. هكذا ببساطة، ظلت المدينة ذاتها التي في ذهنك، وكأنها لم تتغير أبداً. كل شيء بقي في رأسك على وضعه كما تركته ذات يوم. وكأنك تنتقم من هذه المدينة الحقيرة، على طريقتك. . آه كم أكره هذه المدينة العاهرة».

قالت المرأة، ثم أكملت. هذه المرة بدا صوتها يعلو قليلاً، بنبرة حزنه:

«تتجول عبر المدينة، ولا يعنيك الشكل الذي صارت إليه. وكأنك تقول ليس للأماكن وحسب، إنما للآخرين أيضاً، إنكم موتى، وإنني الوحيد على قيد الحياة. الناس تموت، مثلما تموت المدينة، مثلما تموت البشرية جميعاً، مثلما تتهدم الممالك وتندثر القارات، كل شيء يندثر، فقط خيالك الذي يتأسس من جديد، تلك هي الكلمة: خيالك المتخيل وحده الذي يعيش، وكأن الأرض تظل كما هي على حالها كما فعلت دائماً: تدور حول الشمس. ماذا سيعني ذلك بالنسبة لك؟ سواء دارت الأرض حول الشمس أو بالعكس، ما دام البشر والمدن تندثر في هذه البلاد الحقيرة، بلاد المنتصرين والمسحوقين على السواء؟ سواء ظلت هذه المدينة على حالها أم أصرت على التغيير باتجاه وجهها البشع، لتنسف معها الأحلام، البيوت، الأضوية، الأبراج، البوابات؟ فقط أحلامك أنت هي التي تفترش على الطريق، أضوية ثابتة، لا ظلام مطلقاً، أحلامك التي تقودك عبر الطرقات والجسور، مسلحاً بصراحتك الجارحة، كما كنت تردد دائماً: إسمحي لي أن أقول لك ما هو جارحاً: أقول لك الحقيقة!».

عندما قالت الجملة الأخيرة، لمعت عيناها بصورة مفاجئة، في الوقت الذي نزعت فيه حذاءها واستبدلته بنعل. ابتسمت. وضعت كفيه بين كفيها، ثم سحبتهما. نهضت وقالت له، بأنها ستعدّ الشاي وتعود

بعد لحظات. سمع خطواتها تسير بهدوء، تضرب على الأرض. فكر، أن لون الموزائيك والمربعات التي رُسمت عليه، هي ذاتها، التي في بيته. بل حتى المسافة، التي يأتي صوت المرأة منها، هي المسافة ذاتها التي يعرفها، والتي تفصل الصالون عن المطبخ. وعندما وضع يده على الطاولة، رأى طاولة دائرية تشبه طاولة صالون بيته، استقرت عليها آلة تسجيل، وإلى جانبها اصطفت بعضها فوق بعض مجموعة من الكاسيتات. كل شيء هنا يشبه تماماً الموبيليات المحيطة به في صالون بيته. غير أن الستارة هنا مغلقة، ولا يدري ما إذا كانت سحبتها، ففي بيته، وعندما يجلس في الصالون، يتركها دائماً مفتوحة على الشباك الذي يرى عبره حديقة البيت، والبستان القريب الذي يمتد خلف سياج البيت. «الآن، بدأت القضية تتحول إلى أمر جدي»، حدث نفسه، وفكر، أنها ليست مجرد امرأة يعتقد أنه عرفها من قبل، أو مجرد وجه رآه في مكان آخر، أو في مناسبة أخرى، أنها بلا وجه ثابت، قال لنفسه: «العينان، والأنف والجبهة والفم والشعر هي مجرد تشكيلات لتكون هذه المرأة التي تقف أمامي هي المرأة، التي أدعي أو أريد معرفتها».

ولكن عندما رآها تدخل الصالون، تحمل صينية الشاي، وتضعها على الطاولة، فكر، أن كل شيء فيها، ابتسامتها التي تحتفظ بها لوقت طويل، طريقتها المدهشة بالحديث، شعورها الواثق ووقفتها الثابتة على الأرض، طريقتها بحمل الصينية، وبالمشي، يجعله يعتقد بأنه يعرفها فعلاً، بل يجبره على تذكر امرأة واحدة فقط: سراب. نعم، إنها مثلها، عندما تتكلم، ترفع الكتفين في الأول عالياً جداً، ثم تنزلهما دفعة واحدة؛ مثلها لا تستقر في جلستها، حتى عندما تشرب الشاي، تتحرك دائماً، ذهاباً وإياباً؛ حتى يديها لا تستقران على حركة واحدة، تعقدهما أحياناً على صدرها، وفي أحيان أخرى تضرب بهما الهواء؛ وحتى عندما

تتوقف عن الحديث أحياناً، وتنظر إليه بنظرة يمتزج فيها الحب مع الرثاء، نظرة تقترب من الجدية، دون أن تختفي الضحكة تماماً من وجهها.

«يوم آخر مثل باقي الأيام، انتهى بملاحقة امرأة الخيال السينمائي، أم بملاحقتي؟»

تسأل ذلك السؤال، وكأنها خائبة الظن منه، كأنها تعرفه منذ سنوات. تتفحص وجهه، وتنتظر منه أن يقول شيئاً، تصر ألا تستسلم يوماً، تصر أن تكسر صمته، أن تجعله يفتح فمه، أن يقول لها شيئاً، وكأنها توزع صوتها على وجهه، الذي تجمدت أساريره، وكأن كل لامبالاة العالم تجمعت في التجاعيد التي حفرت ظلالها الغامقة والغامضة هناك.

«إنها مثل سراب»، قال لنفسه، «لا تعرف بأنني أحبها. إنها لا تعرف، بأنني جزء منها، وأن زمن الألعاب والقصص انتهى منذ سنوات». لماذا لا تريد أن تسمع. إنه لم يتبع أي بنت أخرى، إنما، كانت هي البنت الأخرى؟ ولماذا تضع نفسها في مكان امرأة أخرى؟ هل تريد منه أن ينساها، ألا يفكر فيها أبداً؟ أن يقول لها، نعم، ظننتك امرأة أخرى، وكفى؟ أم لأنها مثل الآخرين، لا تكون سعيدة إلا عندما لا تكون هي نفسها، إنما تريد أن تكون شخصاً آخر، امرأة أخرى، كما لو أنها تخجل من أن تكون حياتها تقليداً لحياتها الحقيقية؟ وماذا لو قال لها بأنها بالفعل امرأة أخرى، لكنها لن تكون غير المرأة الأخرى التي اسمها سراب. وأنها كلما شكّت في ذلك، دفعت هذه المرأة التي تريد أن تقلدها باتجاه سراب؟

هل يقول لها أيضاً، إن الأمر ليس له علاقة بها بقدر ما له علاقة به، فهو الذي يرى سراب في كل مكان: في غرفة الطبيب، في

المستشفى وفي السجن، في البيت، وفي الشارع، في مكان العمل، وفي المتنزهات، في مواقف انتظار الحافلات، وفي الباصات، في الحلم وفي اليقظة، ومهما أشاح ببصره، فإنه سيرى وجهها مرسوماً في كل مشهد في العالم: على قماش الأثاث الذي حوله وعلى خشب المكتبة، على الجدران وعلى مصاطب الحدائق، في الغيوم التي تعبر السماء، وعلى ملابس البنات، على وجوه الزملاء وعلى وجوه الأصدقاء، على وجوه الغرباء وعلى وجوه الأقارب، على وجوه الخاسرين وعلى وجوه العشاق؛ أينما نظر، يراها أمامه أو على جانبه تنظر معه إلى الأشياء، إلى البلاط، إلى المصابيح، إلى المروحة، إلى الأجهزة الكهربائية الصامتة، إلى الكتب على الرف، إلى الزجاج، إلى الأقلام على الطاولة، إلى المقتنيات، إلى التحف، إلى الأثاث، إلى المجلدات، إلى الدكاكين والمحلات، إلى كل ما يُباع وكل ما يُشترى، إلى أطباق الطعام أو إلى المائدة، إلى مكعب جليد يذوب في العصير أو إلى كتاب تُرك مفتوحاً على الصوفا أو على الطاولة، إلى جهاز التسجيل وهو يسجل كل ما يرويه عن جولاته اليومية المفترضة وغير المفترضة، أو ينظر إلى ظل امرأة يعبر مثل فراشة تلهو مع نور الصباح، أو يعبر مثل سراب. هي فقط التي يراها: سليماً معافى أم مريضاً، سجيناً أم طليقاً، ميتاً أم حياً.

«هل تبعتها، لأنك ظننت بأنني هي؟»

قالت تلك الجملة، بصوت لطيف، وكأنها تتحدث مع شخص مريض، أما الضحكة التي ارتسمت على نهايات فمها، فقد أضافت عليها جمالاً ولطفاً، وكأنها تمد إليه يد النجدة، وتريد منه أن يقبلها كشخص آخر. كأنها تصر، تريد ألا تكون هي، فكر، وكأنها تدفع عنها ندماً قديماً تجمّع عندها كل هذه السنوات، ندماً أن يكون هو مسكوناً بها إلى هذه الدرجة، وأنها تستيقظ في حلم ثقيل، وتكتشف نفسها

بمواجهة شبح تراه للمرة الأولى، وكأنه ضحية خيال امرأة أخرى تنام مكانها في الفراش.

«مرات أقول لنفسي، ماذا سيحدث لو كنت امرأة أخرى، مثل خيال يعبر في فيلم، فلربما كنت الآن أسعد حالاً، وما كنت انتهيت إلى هذا المصير؟».

قالت ذلك، ثم سكتت. لبرهة ظلا صامتين. وكان هو غائباً، مثل شخص يسير في نومه.

«هل أنت سعيد عندما ترى هذه المرأة؟»

وقبل أن يجيب بشيء، أكملت المرأة جملتها بعجلة، وكأنها تخاف أن يجيبها بالنفي:

«لا داعي أن تجيبني. أعرفك جيداً، وأعرف جوابك. وستقول بأنك كنت زوجاً مخلصاً. تحب زوجتك، وأنك تزوجت عن حب. أصدق كل كلمة تقولها. وأعرف حرصك على حياتكما الزوجية، وأنك لست مثل باقي الأزواج، كنت تريد أن تعتني بحياتك مع شريكتك، لا تخرج من البيت، ولا تسهر مع الأصدقاء، ولا تعود سكران. أعرف أنك كنت تريد أن تكون غير الزوج الذي انتهيت إليه؛ لا تدخن ولا تشرب الخمرة، وتقضي وقتك بالقراءة أو سماع الأغاني في المحطات الأجنبية، أعرف كل هذه الفضائل التي تملكها، والتي تدفع ربما أكثر من امرأة، أن تقول: آه ما أسعد زوجته، عندها زوج مثالي. وأنت تعرف جيداً، ذلك هو ديدن الناس، يلتقون بك في الشارع، يسلمون عليك، ويسألون عن أحوالك، وكلهم آذان صاغيّة، لأنهم ينتظرون سماع خبر سيئ منك، لكي يفتعلوا أسفهم، ولكي يبينوا لك أنهم طيبون ومستعدون للخدمة، ولا يدرون بأنك تدري بأنهم يفعلون ذلك عن حسد، ولكي يقولوا لك بأنهم، رغم كل شيء، أفضل منك، ولكن

عندما يسمعونك تجيبهم بأنك في وضع حسن، وليس لديك ما تشكو منه، يهزون رؤوسهم، ويقولون لك: نحسدك. في النهاية، ليس هناك من يقتنع بالوضع الذي أنت فيه، وبالشخص الذي تكونه. كلنا نريد أن نكون أشخاصاً آخرين. في السراء أو الضراء».

توقفت مرة أخرى، وبدت مرتبكة بعض الشيء. جمعت قواها من جديد، وبدأت بالحديث مرة أخرى:

«ماذا أردت أن أقول، أحياناً أفقد خيط الحديث، سامحني. أردت أن أقول، حتى أنا، أتمنى أيضاً أن تكون هي شخصاً آخر. ربما كان ذلك الشخص الذي تخيلتَه يجلس في السينما، والذي تتخيله أيضاً في المدينة، الشخص الذي تتحدث عنه مرات عديدة، والذي تسجل كل شيء عنه، كل صغيرة وكل كبيرة. تسجل حتى تنفسه في الليل، تسجل الصمت والظلام اللذين يحيطان به في الليل، وتسجل حتى الأشباح التي تزوره في الليل. ولو كان بمقدورك لسجلت موته أيضاً. أعرف أنت تتخيل موته أيضاً. ومهما تخيلت وتخيلت، ففي النهاية، أنت لا تملك موهبة التلون مثل أخيك أو مثل أولئك الذين يدّعون أنهم سعداء رغم تعاستهم، ويبدون تعساء رغم سعادتهم، أنت لا تستطيع أن تكون غير أنت. وذلك ليس قدرك وحدك، إنه قدر كل إنسان يريد العيش دون إلحاق الأسى أو الأذى بأحد. ليس هناك أكثر ألماً من الشعور بالخيانة. والألم يزداد عندما لا يعرف المرء مَن خان مَن؟ عندما يعرف المرء أن الجلادين يظلون مع ماضيهم وأن الضحايا مع ماضيهم، كما حدث لنا نحن الأثنين؟».

سكتت. نهضت ببطء من مكانها، ووقفت قبالته، عند الطرف الآخر من الطاولة، نظراتها ساهمة بعض الشيء، بينما راحت تمرر يدها اليمنى على شعرها الأسود الطويل، تحفر هناك، وكأنها تريد أن تنتزعه، ولكن بخفة. رأى سقوط بعض من الشعر على الطاولة، ثم رأى يدها

تنزل وتجمع تلك الشعيرات، التي كانت على الطاولة، ربما منذ أيام سابقة، رغم أن كل شيء يشير إلى أن الصالون لم يُترك لوقت طويل، كل شيء مرتب في مكانه. ثم رأى يدها اليمنى تمتد إلى جهاز التسجيل الموجود على الطاولة، تضغط على زر التسجيل لتغلقه، وترفع الكاسيتات من مكانها، تأخذها كلها في يد واحدة.

«يجب أن يتوقف شريط الألم هذا».

قالت تلك الجملة، وتحركت من مكانها. سارت أولاً باتجاه دولاب صغير وضع عند زاوية الغرفة، حوى أصلاً بعض الكتب، فتحته، وضعت فيه الكاسيتات. مشت باتجاه المطبخ، وراح صوتها يأتيه من هناك، واضحاً، متقطعاً، ولكن مستمراً، ولوقت غير قصير، بالتوازي مع صوت حنفية ماء، تجري بهدوء، لكن ليس بوتيرة واحدة. وكأنها تعد وجبة عشاء، أو تغسل الصحون بشكل هادئ، لكي لا يؤثر على صوتها، بينما تحكي وتحكي، كما لو أنها كانت تحكي عن أمور يعرفها الاثنان، مثلما يتحدث زوجان عند لقائهما بعد غياب في رحلة طويلة، أو مثلما يتحدث صديق عند زيارة صديق أو قريب لقريب له في المستشفى، لأنها بكل ما كانت ترويه، ظلت محافظة على هدوء صوتها ودفئه. مد يده إلى جهاز التسجيل مرة أخرى، وضغط على زر التسجيل، وعدل من جلسته، وراح يصغي إليها، مثل طفل يصغي لأمه.

«مرات عديدة، أقول لنفسي، لماذا أحمل اسماً، بل لماذا يحمل الناس الأسماء. أتذكر عندما كنت طفلة، كنت أقرف من ذلك، وكان أكثر الأسئلة إزعاجاً بالنسبة لي، عندما يسألني أحد الكبار: ها عمو، قولي لي، شنو إسمك؟ وأعتقد أن الأطفال جميعاً يشعرون بهذا الشعور ذاته، ولكي يجيبوا على هذا السؤال، يستغرقون وقتاً طويلاً، لأنهم عندما يُسألون يغيبون تماماً عن المكان إما ألف: يفكرون في أسماء

أخرى لشخصيات أعجبتهم، أو باء: لا يعتقدون بضرورة الإجابة على السؤال، لأنهم سبق وأن أجابوا على السؤال في مناسبات عديدة أخرى، وما زالوا يتذكرون حصيلة رد الفعل: لا شيء مهم، فقط ضحكة من الشخص السائل، وتعليق بإشارة من اليد، كأن يقول الشخص: برافو، أنت فلان. والأطفال لا يعرفون، لماذا يقول الشخص ذلك، لماذا هذه البرافو، وهم لم يطلقوا هذا الاسم على أنفسهم، إنما حصلوا عليه مع الولادة. أو جيم: كثيراً ما يتساءلون، لماذا أسمّى بهذا الاسم، وليس بذاك؟ الأطفال يعرفون أكثر من غيرهم، أن الاسم يحدد الشخص، يعطيه تعريفاً معيناً، يمنحه مضموناً ما رغم عنه. تخيل معي بعض الأسماء وما توحيه.

ولكن بقدر تعلق الأمر بي، فكم كرهت اسمي، رغم ندرته، وكل ليلة، كلما ذهبت للفراش، تخيلت نفسي، أنني سراب لنفسي، أنني وهم غير موجود، مثل الوهم الذي يستحوذ عليك، ولا تستطيع منه فكاكاً، فأتساءل، لماذا أحمل هذا الاسم، وأتذكر الملائكة، وأتذكر أن جدتي رددت في أكثر من مناسبة، إن عدد الملائكة هو تسعة عشر ألفاً، وإنهم لا يحملون أسماء، إنهم ملائكة فقط، يحرسون الأطفال ويعتنون بكبار السن، ويقومون بأعمال الخير، وهم لا يريدون أن يطلق عليهم أحد اسماً. وعندما حصلت على أول لُعَبي، لم أمنحها اسماً ما. كانت عندي حوالي عشرين دمية على ما أعتقد، وكان أبي يجلب لي دائماً الدمى الجديدة، من سفراته الطويلة، فقط كانت هناك دمية وحيدة تحمل اسماً. كانت تملك ذراعين طويلين، وساقين رفيعتين، خاطت جدتي من بقية الصوف الذي كانت تغزله، بمغزلها، شعراً لها. كان اسمها، «جرح ثاني»، وأعتقد أنها جدتي التي منحتها هذا الاسم. وعندما سألتها ذات مرة، في ليلة شتائية على ما أذكر، حيث جلسنا حول منقلة الفحم، وكانت هي تغزل، سألتها، لماذا هذه اللعبة الوحيدة التي تملك اسماً،

أجابت أنها الوحيدة التي تملك شعراً، وشقاً صغيراً في جهة القلب، وكأنه جرح في قلب كل واحدة منا: إذن هو جرحنا الثاني. فعلقت، صحيح أنني لا أملك شقاً عند جهة القلب، حتى ذلك الوقت على الأقل، إلا أنني أنا الأخرى، لدي شعر، وضحكت جدتي، وقالت، وهل تعتقدين بأننا قرعات. ولو لم أكن أحب جدتي، لوجدت هذا الاسم كريهاً أيضاً، لكني ربما قبلت به، لأنها كانت تناديني به أيضاً، وأعجبني، لأنني كنت أشعر بأنني شخص ثانٍ، بنت أخرى، أو لأنني تعودت عليه، مثلما يتعود الواحد منا على رائحة الموبيليات والبيوت القديمة. ولكن عندما كبرت، عرفت لاحقاً، أن الناس يعجبهم أن ينادوا باسم ثان. يفعلون ذلك بدون وعي. إنه شعورهم الذي يقول لهم، بأنهم فقط بهذا الشكل يحققون أنفسهم. يحتاج الإنسان إلى زمن طويل حتى يقتنع بأنه: بالفعل فلان وليس فلاناً. بينما يكافح في زمن الطفولة بقوة ضد أن يكون مجرد فلان، وخاصة إذا سمع من الجدة بأن الملائكة لا يحملون أية أسماء، وبأنهم يتحولون إلى هيئات وأشكال جديدة حسب الحاجة. عندما كنت طفلة، كنت أقول لنفسي، وقبل النوم، سأتحول أنا الأخرى إلى ملاك، فأتذكر اسمي، وأحزن، فابدأ باختراع أسماء جديدة لي، وأقول لنفسي، غداً، سأطلب منهم أن ينادوني باسمي الجديد، أو عندما أكبر سأذهب إلى دائرة النفوس وأطلب تغيير اسمي. ولكني لم أفعل ذلك لا في طفولتي، ولا في الكبر، عندما عرفت أنني أحمل الإسم ذاته التي حملته البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء. في الطفولة، كنت عندما أستيقظ في اليوم الثاني، أنسى ما فكرت فيه في الليل. وعندما كبرت، انشغلت بأمور أخرى. أو وتلك هي المصيبة، أو سمّها ما شئت، تآلفت مع اسمي، أو أعجبتني هذه المعركة مع اسمي منذ أن تعرفت عليك، وكأنني كنت أخشى، أن أصاب بالملل، في حالة تغييري له، أو أن

أشغل نفسي بمعركة أخرى، إذا تخليت عنه: كان نوعاً من الرهان مع نفسي، أن أنجح في إقناعك، أن تنسى قصة تلك البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء. تفكير طفولي ليس إلا. لكني أصارحك، بأنني ما زلت طفلة، سواء بلبسي الفانيلة الزرقاء، أو بشدّ جدائلي مثلها، كما ترى الآن، أو بما يتعلق بقضية الأسماء عموماً. كم بودي أن أغير أسمي، وأقول لك تعال لنتعارف من جديد. ولكن ماذا نستطيع أن نفعل، إذا كانت بين اسمي واسمك، قصص وحروب وسجون ومطاردات؛ وقصص حب وخيانات وآمال مؤجلة تأمل أن لا تقتلها السيارات المفخخة التي تتكاثر مثل نبات الفطر في هذه الأيام».

لا يدري كم مضى من الوقت على جلسته في الصالون، يصغي إليها. ولا يدري ما إذا غفا قليلاً، أو شعر بمجرد خدر بسيط. ففي لحظة ما، ما عادت أذنه تسمع صوتها، ولا يدري ماذا حدث له، لدرجة أنه بدأ يشك، أنه مثل كل مرة، ربما دخل البيت أثناء غيابها عنه، وهي أمنيته، أن يراها تتنقل بهذه الألفة، ما يجعله يتخيلها تتحدث معه بحميمية.

لبرهة شعر بجذعه ينزلق في الكرسي الذي جلس عليه، وبيد تلمس كتفه، لتحط بعدها بقليل على جبهته، يد امرأة يعرفها. كم هي جميلة هذه اليد، قال لنفسه، تريد أن تكون حيادية، مثل يد طبيب، يقيس حرارة مريضه، تضغط على الجبهة، وتظل دقائق أو ثواني هناك. لم يتحرك، ولو قليلاً، وكأنه يخاف أن يحرك اليد من مكانها. أغمض عينيه، وكأنه يريد القبض على الذكريات التي بدأت تعبر أمام عينيه، والتي أثارتها لمسة تلك اليد، والتي لا تذكره بكل شيء فقط، إنما تجعله يشعر بالتآلف مع كل الأشياء المحيطة به، وكأنه يستعيد عن طريق رائحة تلك اليد، كل الروائح التي تركتها الذكريات عالقة هنا، في

البيت، في الصالون، وعلى الطاولة. وفقط عندما شعر باليد تبتعد عن جبهته، شعر بالحمى تغزوه. وعندما رأى المرأة تدير وجهها نحوه، وتنظر إليه بتساؤل، شعر بالحمى ترتفع أكثر، وبغصة تقف في البلعوم، تطبق على لسانه، وتغلق فمه.

«مرة أخرى، الحمى، وكأنهم حقنوك من جديد بآلاف الأبر والحبوب والأمصال، متى يكفون عن تعذيبك؟»

سمعها تقول له، قبل أن تتحرك نحو الشباك، تسحب الستائر، وتقف هناك، مولية ظهرها له.

«لماذا لا تتكلم؟ هل توقّفت عن الكلام إلى الأبد؟ انظر إليّ، أنا هنا، ولست الشبح الذي رأيته في السينما».

جاءه صوتها يحمل نبرة دافئة، يعرفها، ويعرف أنه لا يستطيع العيش بدون أن يسمعها، أو بدون أن يتخيل أنه يسمعها.

«كلا، أنت لست شبحاً»، أراد أن يقول لها. كلا، حتى وإن كنت شبحاً، فأنت شبح تلك البنت الصغيرة، التي تحمل اسمك، تلك البنت التي بالتأكيد ظلت قبل أن تموت غدراً، يقظة لليالي وليالي طويلة، لا تنام، تتذكر مغزل جدتها، فتغزل مثلها ولكن في الرأس، تغزل أسماء، أسماء ملائكة وبنات، تعيش في مدن بعيدة، وجنات متخيلة، وتنام ببطء، محتضنة لعبها، وعلى وجهها ارتسمت ضحكة تجمع كل صلوات العالم ومعابده. كلا، حتى وإن كنت شبحاً، فأنت تختصرين ملائكة هذه الأرض، ويدك حمامة سلام، تحيي الموتى وترمم كل خراب وتعب في هذه الروح. كلا، حتى وإن كنت شبحاً، فأنت تلك البنت الصغيرة، التي تأخذ بيد ذلك الطفل، الذي نسي اسمه عندك، الذي أسلم روحه لك، الذي تحطم العالم أمامه، منذ أن رأى خيالك يتحطم، وينحلّ في الهواء، ويختفي، تقتله الألعاب الشريرة. كلا، اقتربي،

وستعرفين، أي جمال يحمله وجودك، وأي لمعان ترميه عيناك، وسط العتمة، عتمة هذا العالم، وعتمة كل الأرواح المنكسرة؛ أية رائحة يرشها جلدك في فضاء الغرفة، وفي فضاء العالم. كلا، حتى وإن كنت شبحاً، فأنت ملكة الجنات المفقودة: أنفاسك خليط من نسيم ربيع دائم وروائح حقول أعشاب وبساتين ثمار؛ ريقك رائحة قداح ورحيق؛ قدّك أكثر رشاقة وحيوية من قدّ غزالة؛ عضدك أكثر من مبرم ومعه الساعد والمعصم؛ أصابعك أقلام ياقوت؛ حاجباك زج وعيناك دعج؛ حركة قدميك، مثل وقع قطرات ندى في فجر رائق. كلا، حتى وإن كنت شبحاً، فأنت الطفلة التي لا يريد ذلك الطفل، رفيقها الذي كانه، أن يتوقف عن الحلم بها، فهو يعرف أن موته يبدأ حين يكف عن رؤيتها. كلا، حتى وإن كنت شبحاً، فأنت الهواء الذي يتنفس به، والعين التي يرى فيها، والقلب الذي ينبض به. وهو لا يريد التنازل عنك، بعد كل هذا العمر، وبعد كل هذه الرحلة، وبعد كل هذا الخراب. كلا، حتى وإن كنت شبحاً، فأنت، في النهاية، تلك البنت الصغيرة، التي لعب معها، وأخذوها منه عنوة، ولَم يشبع من اللعب معها؛ أنت البنت الصغيرة، طالبة المدرسة الابتدائية، التي خط اسمها على مصاطب ورحلات المدرسة، التي حفر اسمها على لحاء الأشجار، التي أينما ذهب، قادته خطواته إليك؛ أنت البنت الصغيرة، التي كتب لها رسائل الحب الأولى، والتي فصلوه في إحدى السنوات من المدرسة بسببها، والتي ظل ينتظر خروجها ليتبعها مثل الظل حتى باب بيتها. أنتِ التي رسم صورتها على أسفلت الشارع، وعلى حيطان المدرسة والبيوت، التي سرق صورتها من سجلات المدرسة، وعندما ضبطوه فصلوه مرة أخرى لمدة سنة بسببها. كلا، حتى وإن كنت شبحاً، فأنت الصورة التي حملها دائماً في الجيب الأعلى، أو خبأها تحت مخدة نومه، حتى عندما كبر وذهب إلى الجامعة أو ذهب لأداء الخدمة العسكرية الإلزامية، وحتى

في سجنه أو في المستشفى، في التعذيب وفي مرضه، كنت دائماً معه، صورتك تكبر، وتصير أكثر رقة. كلا، حتى وإن كنت شبحاً، فأنت البنت الصغيرة التي راح هو يشكّل نفسه على صورتها، يضحك مع ضحكتها، ويحزن مع حزنها، ينام مع تعبها، ويحلم مع نومها، ويتخيلها ملاكاً، حورية بحر، ونجمة نهار تتلألأ، حتى في الحر القائظ، في تموز أو آب. حتى، وإن كنت شبحاً، فأنت محفوظة في بستان أحلامه، مغلفة بورق أغصان شجر النبق، ينمو حولك، لكي يحميك من شرور العالم ومن هجوم ذئاب الليل ومن مكر بنات آوى. كلا، حتى وإن كنت شبحاً، فأنت صدفة أن يعيش، ومفاتيح فراديس مهجورة، فراديس طُردوا أو طوردوا أهلها، أنت سلام يأتي ونهار دائم، تغفين إلى جانبه، حيث الساقية البعيدة، يحيطك بذراعيه، يلفهما حول كتفيك اللذين ينوءان بثقل، وحول ذراعيك الهشين، اللذين من الجائز جداً أن ينكسرا في كل لحظة، ويقبلك، على جفنيك اللذين لا يقاومان حتى النسمة الخفيفة، أو على شحمة أذنك، التي تصغي لهدوء الزمن الذي يمر بسرعة، يداعب شعرك، ويدفن أنفه هناك، يشم رائحة الخريف القديمة التي نثرتها الفراشات عليك في صباحات مليئة بالضوء، في أزمان بعيدة، أزمان طفولة سعيدة وبعيدة، أزمان بلاد تشبه فردوس أضعناه، بلاد يمكن أن تكون أي بلاد، باستثناء بلاد الحروب هذه، بلاد المنتصرين على أنفسهم، بلاد الخاسرين والمسحوقين برضاهم؛ ويقول لك، انظري، حبيبتي، أنا الآن إلى جانبك، أحبك وأخاف عليك، حتى من نفسي، أدثرك بشراشف قبلاتي، وأجعل جسدي حصناً، لن تصلك أية سكين أو طلقة ضالة، ولن يُسمك أحد أو يخنقك أو يرميك في بئر منسية؛ يقول لك: أحبك، ولن يضيع العالم هذه المرة من أيدينا، ثم يلمس ثدييك، اللذين يستقران في يديه مثل قبرتين متمردتين، لا تخافان، فتغمضين عينيك، وتحلّقين معه، إلى بلاد جديدة، تصنعانها

من جديد، تشكلانها مثلما كنتما تشكلان في الطفولة أشكالاً من الطين، أو مثلما كنتما ترسمان بأقلام الباستيل أو بالأقلام المائية، مناظر لبيوت وبساتين وحقول متخيلة، لا يراها أحد غيركما. وسيقول لك أيضاً: كلا أنت لست شبحاً، اقبضي عليّ بيديك الهشتين، لكي تعرفي أنني أعيش، وبأنك هنا، على قيد الحياة معي، بأننا لم نقتل، ولم نمت، وبأننا، من غير المهم، أي أسماء نحمل، ما زلنا نتحصن بكل ما أبقته لنا الطفولة من ذكريات. عانقيني، ولن أطلب من العالم شيئاً آخر، فلا يقدم لي كل هذا العالم في الخارج عزاء، غير عناقك؛ ماذا تقدم لي الشوارع، المحطات، المتاحف، الحدائق، الأشجار، السينمات، الحانات، بل ماذا تقدم لي المدن، الكتب، البيوت، المصحات، العيادات الطبية، إن لم أجد صورتك فيها؛ حبيبتي، ماذا يقدم لي الأصدقاء، الزملاء، الأقارب، نشرات الأخبار، التمثيليات، الكلمات المتقاطعة، إن لم تحمل اسمك؛ عانقيني، واحتفظي بصورتي عندك، مثلما احتفظت بصورتك كل هذه السنوات، قبليني، واحتفظي بطعم قبلتي، وتذكريها، مثلما بقيت محتفظاً بذكرى القبلة الأولى التي أتذكر كيف طبعتها البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء على خدي، تلك البنت الملاك، التي لم تشأ أن أمنحها اسماً آخر، لأنني خفت أن تتحوّل إلى سراب فعلاً؛ هل تتذكرين حبيبتي؟ هناك، تحت شجرة النبق العالية، الشجرة العجوز التي تقدّر جداتنا عمرها بثلاثة آلاف سنة، الشجرة العجوز التي تصر على شبابها، في الحقول الممتدة خلف الطاحونة القريبة، خلف بناية المدرسة، حيث بيت الطحان العتيق، وحيث كنا نهرب من ملل وضجر مقاعد مدرستنا، ونذهب لنلعب هناك مثل فراشات تلعب مع نور الصباح، ما زال طعم تلك القبلة على فمي، وما زالت تلك الكلمات، أجمل كلمات سمعتها في حياتي، ما زالت مسجلة في أذني، هل تتذكرين الشفاه التي تقترب ومعها تقترب العيون:

حبيبي. . حبيبي. . حبيبي. . ، اسمعي معي، كيف يخفق قلبانا على إيقاع تلك الكلمات، ولْتَرِيْ بعينيكِ كيف تطير على إيقاع صوتها كل طيور الخريف، تطير مرحة، تتخيل ربيعاً قريباً يأتي، انظري كيف نطير معها، نحلم نحن أيضاً، بربيع قادم، وفراديس لا تضيع، وأطفالٍ ملائكة بلا اسم. كلا، حتى وإن كنت شبحاً، فأنت حاضرة، ولا تحتاجين إلا أن تلتفتي، حتى تتأكدي بنفسك. حبيبتي: التفتي، أرجوك التفتي فقط.

لكنها لم تلتفت، إنما بقيت في مكانها هناك، كما رآها، عندما بدأ مناجاته. وقفت مولية ظهرها إليه، تتطلع عبر النافذة بعيداً، وكأنها هي الأخرى مشغولة بمناجاة خاصة. كان بإمكانه أن يرى من مكانه ضوء غروب الشمس الذي بدأ يستحوذ على الحديقة، الممتدة عند الشباك. وكان يمكن أن يتخيلها، تنظر إلى لبعيد، البعيد.

«هل تعرف؟»، سمعها تبدأ بالحديث مرة أخرى، ولكن هذه المرة بدا صوتها أكثر هدوءاً، ساهماً، وكأنها كانت تهمس مع نفسها، لا تتحدث إليه، هو الجالس عند الطاولة.

«كلما نظرت عبر النافذة، في ساعات الفجر الأولى، أو في المساء، في ساعات غروب الشمس، كلما تذكرت تلك القصة التي حكيتها لي مرات عديدة، قصة البنت الصغيرة، طالبة المدرسة الابتدائية، الصف الخامس الابتدائي، ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، البنت النحيفة، الرقيقة التي حملت اسمي، والتي أراد صديقها الصبي أن يعطيها كعكة صنعتها أمه هدية، ولم يعرف أنه أعطاها الكعكة الخطأ، كعكة الموت التي أراد أخوه أن يعطيها لكلب الجيران كما ادعى، تخيلت هذه البنت هنا، تجلس معي. من غير المهم، أن تكون القصة مخترعة أم حقيقية، من غير المهم أن تقول إنك قرأتها ذات يوم في كتاب أو في مجلة، أم أنها حدثت لك بالفعل، وإنك كنت هذا الطفل، الذي وقع في غرام البنت الصغيرة هذه، وكسب

عداوة أخيه يونس، منذ أن جاءت إلى مدرستكم مع أبيها المعلم، البنت الوحيدة التي كانت تجلس هناك في الصف. هل تعرف؟ من غير المهم كل ذلك. كل قصص الحب متشابهة في العالم، والكتّاب ينقلون عن بعضهم البعض، مثلما ينقل العشاق قصص العشق عن بعضهم البعض. الناس يمكن أن تختلف في كل شيء، باستثناء، أن تختلف بموضوعة الحب. وفي ما يخصك، فأنت كلما حاولت إبعاد القصة عن نفسك، محاولاً إقناع نفسك بأنها حدثت لغيرك، أو أنها قصة أدبية، حملت نبرة صوتك قناعة أكثر، أن تكون القصة تخصك، أنت وحدك، وكل ملامح وجهك تحمل من يسمعك على التفكير في أنها حدثت لك وليس لغيرك. بل وكأنها حدثت، أمس، أو اليوم، هنا، تحت شباك هذه النافذة. ولا تستغرب من قولي هذا، فأنت منذ أن رويت لي القصة، جعلتها حاضرة هنا، معنا، نحن الاثنين. القصة توقفت أن تكون ماضي منذ أن سمعتك ترويها للمرة الأولى، عندما تعرفنا على بعض. أنت لم تأت في ذلك اليوم وحدك، إنما جئت مع تلك البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوينوالجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، لتجعلها توأمي الروحي. وطوال كل هذه السنوات، وأنت تخاف أن تفقدني لأنك لا تريد بفقداني أن تفقدها مجدداً، تخاف حتى أن تسهو لحظة، تتلفت أحياناً مذعوراً، وكأنها ذهبت عنك، أو كأنك سلمتها كعكة موت جديدة، وتقول يا إلهي، كيف أخطأت الكعكة، كيف استبدلتها؟

طوال كل هذه السنوات وأنت تهرب من العالم، كل مرة تحاول الابتعاد أكثر، تغلق عليك البيت، وتحتمي بالعزلة، لكي لا يفسد عليك أحد عالمك الذي شيدته من ذكريات ورغبات، تريد أن تبقي على تلك الصورة الأولى؛ ورغم كل ما حدث في محيطك من خراب ودمار وحروب وقتل، تريد ألا يكون ذلك على علاقة بك، أن يظل كل شيء على وضعه، في مكانه، كأنك تخاف أن تسبب موتاً آخر لأحد ما.

طوال كل هذه السنوات، وأنت لا ترى هذه السنوات تمر، لأنك ما زلت تعيش في تلك اللحظة، وتُلبس أخاك ثوب القاتل، لأنك تعتقد أنه هو الذي وضع المسامير في الكعكة لقتل البنت، لا تريد أن تكون أحد هؤلاء الناس الذين يحتفلون بقتل بعضهم البعض، الحرب وراء الحرب، تخيل الموت والقتل يحيط بك، وأنت ما زلت ترتعش رعباً بسبب وَهْم أن تكون أنت القاتل بالفعل؛ تريد طرد هاجس أنك أخذت دور القاتل دون إرادة منك؛ أعرف كم كان يقلقك هذا الهاجس، أعرف قلقك وخوفك، مثلما أعرف أن لي أصابع عشرة. كم مرة عليّ أن أقول لك، بأنني أحببت معك البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، وأن الماضي مهما كان، مجرد ذكرى تعيش غداً».

رآها تنحني فجأة، وترفع ورقتين سقطتا من حزمة الورد التي وضعتها كما يبدو قبل أيام عند الشباك، في واحدة من زياراتها المتكررة للبيت. دعكتهما بيديها، ثم رمتهما عبر النافذة. في الخارج بدأ الليل مثل حدود سوداء، تحمي الحديقة والبيت من الحرارة والعالم المجهول في الخارج؛ وفي الغرفة، فاحت رائحة ياسمين. فكر، إذن كانت حزمة من ورد الياسمين. يعرف، أن البنات الشابات يستخدمن الياسمين وليست سراب وحدها. تذكر، عدد المرات التي شمّ فيها هذه الرائحة، في بيت أهله. وعبر شباك غرفة نوم زوجة أخيه، مريم. وتذكر أن تلك الرائحة كانت تتسرب إلى خياشيمه من الحديقة إلى السرير، وأنه كثيراً ما تساءل ما إذا كانت مريم تستعمل عطر ياسمين، أم أنها رائحتها الطبيعية. أغمض عينيه، وسمع صوتها من جديد.

«منذ متى نعرف بعضنا؟ خمسة وعشرين عاماً؟ أكثر؟ أقل ؟ لا يهم لم تعد هناك أهمية للسنوات، ما دام الموت يغلف حتى الهواء الذي نتنفسه في هذه البلاد التعيسة، بلاد المنتصرين والمسحوقين، كما تقول

أنت. المهم أن البنت الصغيرة نمت معنا. صدقني، أنا أراها أمامي، امرأة ناضجة السن. شعرها أسود طويل وليس جدائل شقراء، عيناها ليستا خضراوين، بل سوداوين، كبيرتين، تبرقان تحت الشباك هنا، نحيفة، رشيقة، شفتاها عريضتان، وأسنانها بيضاء مرصوفة بعناية، فانيلتها زرقاء، مثل الفانيلة التي ألبسها الآن، انظر إليّ! يا إلهي، كل شيء في هذه البنت كامل، لا ينقصها شيء، حتى الاسم، تخيل، أنها تحمل اسماً خاصاً بها: سراب، كم أحسدها، إنها لا بدّ أن تكون سعيدة، لأنك تحبها. لم أسمعها يوماً تشكو، فأتمنى أن أحل محلها. أن أكون أنا البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، التي كانت تمرح معك في المدرسة وتقلب معك مجلات الأطفال المصورة. هل تريد أن أذكرك بالقصص التي كنا نستخلصها من رؤية الصور، لأن المجلات كانت باللغة الإنكليزية. سأقص عليك قصة واحدة، تعرفها».

رآها تترك مكانها الملاصق للشباك، وتتجه نحو الطاولة. الآن وتحت ضوء المصابيح الواهن الذي يأتي من الخارج، لاحظ أن وجهها الهادئ، الجدي جعلها تبدو أكثر شباباً، وسيكلفه عناء كبيراً، تخيل، أنها إحدى تلك النساء، اللواتي يُطلق عليهن، «بنات الهوى»، اللواتي يعملن في البيوت المجاورة لسينما الخيام، في منطقة البتاوين، رغم أنه لم يعترض يوماً على تسمية شاعرية بهذا الشكل.

جلست قبالته من جديد. أخذت نفساً عميقاً، ومدت يدها إلى جهاز التسجيل، قرّبته منها، وعندما أرادت الضغط على زر التشغيل، عرفت عدم حاجتها لأن تفعل ذلك. كان الجهاز أصلاً مفتوحاً. عدلت من نفسها، وجعلت جذعها يغرق قليلاً على الكرسي، ثم بدأت بالحكي:

«كان يا مكان، حدث في قديم الزمان. كان هناك أمير صغير

السن. عمره إحدى عشرة سنة تقريباً. وكان طفلاً مجتهداً جداً في المدرسة. كان الأول في صفّه. وكانوا يعلقون في صدره ميدالية فارس الصف، ويطلقون عليه لقب: قدوة الصف. وكانت حياة الطفل تمر بهدوء، مثل الحياة في البلاد عموماً. كان الطفل مشغولاً بالمدرسة، وبكتابة واجباته المدرسية. حتى في تلك الأيام التي تنقطع عنهم فيها الكهرباء، كما كان يحدث ويحدث الآن، إذ كانت أمه تشعل له شمعة يدرس ويكتب واجباته المدرسية على ضوئها. وكثيراً ما عبرت أمه لوالده عن خوفها عليه من عين الحسود. وكان الأب يطمئنها، ويقول لها، إن ولدنا شاطر، أفضل من أخيه الأكبر، المشغول باللعب دائماً، والشجار مع أولاد الجيران. وعلى عكس الأخ الأكبر الذي كان يصر على التطوع في الجيش أو في الشرطة عندما يكبر، كان الوالدان يحلمان، أن يكبر الطفل الأصغر ويدرس الطب ويصبح طبيباً. وكان يمكن أن يسير كل شيء بهذا الاتجاه، لو لم يحدث انقلاب في حياة الطفل، يقوده للسجن وهو صغير. وإذا سألتم كيف وقع ذلك، فالإجابة بسيطة. وقع الطفل بالحب. ولا يسأل أحد، لماذا وكيف؟ فالحب ظاهرة ليست لها علاقة بالزمان والمكان، لها علاقة بالقلب والعين والأنف والأذن وكل الحواس. وهذا ما حدث بالضبط للطفل، فذات صباح، دخل الصف فجأة، المعلم الجديد، معلم اللغة الإنكليزية، ومعه ابنته، طفلة صغيرة، جعلت حواس الطفل تضطرب جميعاً وفي الوقت نفسه: بدأ قلبه يخفق، عينه اليمنى بالذات بدأت ترف، أنفه راح يشم رائحة غير مألوفة جعلت هواء الصف عَطِراً والصف تحول فجأة إلى بستان، الأذن سمعت صوتاً يحمل رنيناً لم تسمعه أذنه من قبل، مثل الصدى الخفيف الذي يبعثه ناقوس الكنيسة الوحيدة في المدينة، والذي يأتي من البعيد، مثل صوت إلهي مجهول. وقع الطفل بحب البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين الجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء. وقد لفت الطفل نظر البنت، لأنه كان

الأكثر ذكاء في الصف، وكان أبوها يقول له دائماً: برافو، وعندما أدرك أنه يتعلم اللغة الإنكليزية بسرعة، قال له الأب: الإنكليزية هي مفتاحك للبوابة التي تدخل عن طريقها للعالم. وكان الأب يثق بالطفل، ولم ينزعج عندما كان يرى ابنته الصغيرة تجلس مع الطفل، تحت شجرة المدرسة الوحيدة، تتصفح معه المجلات المصورة. وكان يمكن أن تسير حياة الاثنين بسعادة، ولكن كما في قصص المجلات المصورة والأفلام، يتربّص الشر بالطيبين. والشر في هذه القصة، لا يسكن بعيداً عن الطفل. إنه أخوه الأكبر. لم يعرف الطفل بذلك، ولم يتصور يوماً أن أخاه يمكن أن يكون شريراً بهذا القدر. كان عليه أن ينتظر حتى يذهبوا في رحلة مدرسية، إلى قرية قريبة. هناك، وبينما كان الطفل يجلس مع البنت، عند شجرة النبق، خلف الطاحونة البعيدة، عند بيت الطحان العتيق، وعند الساقية الكبيرة، أخرج الطفل من خرجه كعكة صغيرة، صنعتها له أمه للرحلة المدرسية، قال لها: كلي معي، اقضمي أنت قطعة منها وأنا وراءك. ففعلت البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين ووالجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، ولكنها قبل أن تكمل الأكل وتسلمه القطعة، قفزت من مكانها، تركض، تمسك يدُها برقبتها، بينما جحظت عيناها. لم يفهم ماذا حصل. كانت البنت تؤشر بيدها إلى بقية القطعة التي سقطت على الأرض، فرأى مسامير في الكعكة. ورأى حلقة من زملائه الأطفال تطوقهما، قسم يسحب البنت، والقسم الآخر يسحبه، وعندما أراد الطفل أن يتخلص منهم لنجدة البنت، شعر بيدين تطوقانه، التفت ليرى أخاه الأكبر، وهو يصيح بالأطفال: خذوا القاتل. كان يجب أن يمر وقت طويل لكي يعرف أن أخاه استبدل الكعكة عمداً، ووضع في مكانها كعكة أخرى فيها المسامير، وعندما سأله عن السبب، أجابه أنه يريد أن يطعمها أصلاً لكلب الجيران الذي لا يتوقف عن النباح، وصدق ما قلته، كأن كلاب هذه البلاد مدللة تأكل

الكعكات. كان أخوه في ذلك اليوم مثل رئيس عصابة، تشبه عصابة الواحد والعشرين، التي رأيتها في السينما. ماتت البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء في اليوم نفسه. صحيح أنها اختفت، اختفت. . .لكنها لم تختف من رأس أبيها. المسكين، جُن فأخذوه إلى مستشفى المجانين بعد الحادثة بثلاثة أيام. كان يصرخ، وباللغة الإنكليزية: "She is my only angel". منذ ذلك اليوم توقف عن الحديث باللغة العربية تماماً، وظل هناك وحيداً، يحدّث نزلاء الشماعية عن تناسخ الأرواح، وانتحال الناس لهويات البعض، رأيته مرات كثيرة هناك، في سنوات عمره الأخيرة، عجوز يهذي باللغة الإنكليزية فقط، يلعن ويسبّ العالم. كان وحيداً، لم يزره أحد حتى مات، فلم يكن عنده في العالم غير البنت الصغيرة هذه، ماتت أمها عند ولادتها، وأصبح رجلاً وحيداً، مات بحزنه، ولم ينافسه في حزنه إلا حزن ذلك الصبي الذي حبسوه في سجن الأحداث لسنوات، قبل أن تُكتشف القصة، ويُلقى أخوه بدلاً منه. ومع السنوات، يكبر الناس، ويعتقدون أن مصائبهم تكبر أيضاً، فلم يعد يتذكر أحد منهم قصة الأب وقصة البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، وبالذات البنت الصغيرة هذه، لم يعد أحد يتذكرها، باستثناء شخص واحد، مواطن واحد من بلاد المنتصرين والمسحوقين هذه، أصر أن يبقى يقظاً، ألا يقبل بأنها ماتت، رجل هو الآن في السادسة والأربعين من عمره، يعيش في بلاد لعنها الله وقلبها على بعض، وسلط عليها جلادين بسحنات بدوية، وجعلها مباحة لكل جيوش العالم، ولكل ما يمكن أن يحويه العالم من قتلة يمارسون فيها ساديّتهم بكل ما يمتلكونه من حرية؛ رجل أصر على العيش، رغم العسكر والسجن والمرض وخراب الأديان؛ رجل فعل المستحيل لكي يظل على قيد الحياة، دون تهمة القتل التي أُلصقت به منذ الطفولة، حتى

اضطر إلى تبديل اسمه؛ رجل أراد أن يحصن نفسه ضد العالم الخارجي، بحيث لا تصله حتى سكينه هو، ولكي يحتفظ بسنوات الطفولة تلك، وبصورة تلك البنت الصغيرة التي لا يتذكر أنها كانت تحمل اسماً، أو ربما لا يريد أن يمنحها اسماً، عندما يتذكرها، لكي لا يفقدها، دون أن يدري بأنه سيفقد زوجته بهذا الشكل؛ رجل أراد أن يلعب أيضاً دور البطل مثل الباقين في بلاد المنتصرين والمسحوقين، كما يحلو له أن يسميها، فلعب دور أخيه لكي ينقذ أمه وزوجة أخيه، دون أن يدري أنه بهذا الشكل تنازل عن هويته واسمه لأخيه، وأنه لم يعد يعرف من هو».

بصبر وبصمت، ظل يصغي إليها، يتأملها في وقفتها عند الشباك.

"She is my only angel"، قال لنفسه، «لماذا تروي لي قصة أعرفها»، وتذكر بحزن، البنت الصغيرة، التي حملت اسمها. كان الطلاب عندما يسخرون منها، يصيحون خلفها: سراب، سراب، سراب صرنا وطِرنَا سراب، وفي لحظات الجد ينادون عليها، باسم ابنة الأستاذ كريم، على اسم أبيها، معلم اللغة الإنكليزية. ولم يشكّ يوماً، في أن البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء كانت السبب الذي جعله يتفوق منذ ذلك الوقت، وطوال كل هذه السنوات، في مادة اللغة الإنكليزية، وأن يذهب إلى الجامعة لاحقاً، إلى قسم اللغات الأوروبية، ويتعلم اللغة الألمانية واللغة الإسبانية، بالإضافة إلى الإنكليزية، التي أتقنها منذ الدراسة الثانوية، مثلما هو على يقين أيضاً، أنه على قيد الحياة حتى الآن بسببها أيضاً. كان لا يريدها أن تموت، وكان يعرف أنه عندما يتوقف عن تذكرها، تموت. كل هذه السنوات، أصر على الاحتفاظ بها حية أمامها. كأنه طوّر تكنيكاً خاصاً به. وهو ليس كما يعتقد الآخرون، أو كما قالت له سراب ذات ليلة بلحظة غضب، طور استراتيجية ذكية، تجعل عيشه

اللاحق قابلاً للتحمل، لأنه يبعد ذنباً ارتكبه، إنه هو في النهاية الذي قدم لها الكعكة بيديه، وكلما يتذكر أخاه، يكرهه أكثر. فتقول له، إنك تقدم عزاء لنفسك، لأنك سكتّ في البداية، وقلت لهم إنك قتلتها خطأً، وليس أخاك، أردت أن تلعب دور البطل. دائماً تريد لعب دور الله البطل. يعرف كم كانت سراب على حق، وكانت ستهجم عليه أكثر، لو عرفت أنه لا يتحدث دائماً عنها بصيغة الغائب، إنما كان يكتب لها رسائل، وينشد لها أبياتاً شعرية، كما لو كانت هي هناك أمامه، حاضرة معه، طوال اليوم، يقول لها، كم هو مرعب ما حدث لها، وإنه لم يستطع فعل شيء، وإنه كان بلا حيلة، «وسنظل نحب بعضنا، خلف حدود كل العوالم»، وإن «القدر ضربنا ضربة قوية». بعض الأحيان فكر في قتل نفسه، لكنه كل مرة، يقاوم إغراء اللحاق بها إلى العالم الآخر، لأنه يريدها أن تعود إلى عالم الأحياء. حينها يستعيدها أمامه، فينسى الموت، ويتذكر الحياة. إنه ببساطة، لم يصدق يوماً، بأنها ميتة. وذلك أيضاً ما جعله يتفهم زوجة أخيه، مريم، عندما لم تصدق موت أخيه أو اختفاءه. ذلك ما جعله ينام معها بوجد. ليس لأنه إنتقم من أخيه بهذه الصورة، إنما لأنه كان يجد نوعاً من التضامن بين الأموات والأحياء. كان، هو ومريم، في عداد الأموات، وكل ليلة كان كل واحد منهما، يموت ويحيا مرات عديدة. وفي كل الليالي، عندما كان يعانق مريم، أو ينظر إليها، مستلقية على الفراش، تتوسل، وتصيح «يونس، يونس. . .تعال يا يونس»، يتذكر البنت الصغيرة.

يتذكر البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، تجلس إلى جانبه، تحت شجرة المدرسة الوحيدة، وتقول له، بأنها احتالت على أبيها وهربت من غرفة المعلمين، حيث كان يأخذها معه في أوقات الفرص. يتذكر، بأنهما، يجلسان، صامتين، يقلبان صفحات المجلات الصغيرة التي كانت تحصل عليها عن طريق

أبيها، لا يعرفان ماذا تقوله الشخصيات المرسومة هناك، لأن كل شيء مكتوب باللغة الإنكليزية، لكنهما مع تقليب الصفحات، كانا يقومان برحلة مع الشخوص. لا يتذكر الآن، أية أسماء حملوا، لكن لماذا الأسماء؟ سراب تقول، الأسماء ليست ضرورية، والملائكة لا يحملون أسماء، يتغيرون دائماً. كان الشخوص في الرسوم يتغيرون دائماً، ويأخذانهما معهم، عبر غابات كبيرة، وجبال عالية، ومدن تزدحم بالبشر والسيارات والعمارات العالية، عبر موانئ تزدحم ببواخر كبيرة، عبر بحار تمخر فيها سفن شراعية، عبر محطات تزدحم بقطارات لم يرها في حياته. كل مرة، عندما يحدّقان بالصورة، تصيبهما الدهشة، وكأنهما يريانها للمرة الأولى.

وعندما كان يحزن، لأنه لا يستطيع قراءة ما موجود فيها، تطمئنه البنت، وتقول له، بأن أباها علمها أن تنظر إلى الصور فقط، وأن تستخلص منها القصة، والقصص هذه تعلمنا بأن الخير ينتصر دائماً، وأن لا مكان للشرير، وعندما يعلن لها عن شكّه في ذلك، تشير له بإصبعها، وتقول له، انظر إلى هذا الشخص، ألا ترى الطيبة بعينيه؟ أو على العكس، تقول له، انظر إلى هذا، ألا ترى الشر بعينيه؟ ثم يروح يفكّر كيف سيبعد عنها كل شر وحزن. وكان، عندما يفعل ذلك، يخفق قلبه بقوة، كما لو أن نبضه يريد أن يخرج من جسمه. يعرق، ثم يهمس بأذن البنت الصغيرة، بصوت خافت، لا يسمعه غيره، ويقول لها، عندما نكبر، سنزور كل هذه المدن، وسنعبر كل هذه البحار، فيحمرّ خداها، وتنظر إليه بعينين ناعستين، أو تضربه بالمجلة على رأسه بخفة. ويظلان جالسين هناك، لا يحسان بالوقت يمضي، حتى يسمعا صوت الجرس يدق، أو خطوات أبيها، القادمة باتجاههما.

وعندما كانت تغادره، يحزن، يخاف من أنه قد لا يستطيع أن يحميها من الأشرار، مثلما يفعل أبطال المجلات، وكأنه يعرف ما

سيحدث لاحقاً، أو كأنه يخشى أن يأتي زمن آخر، يستحوذ فيه الأشرار على كل المجالات، ولا يعود أحد يستطيع فيه أن ينقذ حتى نفسه. ولكنه في ذلك الوقت، عندما كان طفلاً، لم تكن له القدرة على تخيل ما سيجلبه المستقبل، لا النقطة الزمنية ولا التجربة التي يستطيع عن طريقها حدس ما يمكن أن يحصل للبنت في مستقبل قريب، أو ما سيحصل له ولسراب ولمريم، ولمحيطه، للناس وللبلاد وللعالم، في مستقبل أبعد. لم يتصور يوماً أن حروباً ستحدث، وسيارت مفخخة ستنفجر وتطير مسامير قنابلها في الهواء، وأن القتل سيتحول إلى روتين يومي يتبارى الجميع بإنجازه في الأول. ولكنه الآن، في هذا المساء، وهو يسمع المرأة الواقفة هناك عند الشباك، المرأة التي حملت اسم البنت الصغيرة، تتحدث عن تلك السنوات، التي كل مرة يظن بأنه انتهى منها منذ زمن طويل، لا يستطيع أن يملك صورتين، عليه أن يختار بينهما: إما أن يهرب من هذا البيت، ويقبل العيش في شخصية أخيه، أو أن يظل جالساً هنا في صالون البيت، دون أن يعرف من هو بالذات، ويتعلم كيف يموت مثل أي شخص نكرة آخر: بلا اسم، بلا هوية، بلا ملامح، بل بلا إرث.

لبرهة ظلا صامتين. سكتت، وجلست هادئة، تنظر إلى لاشيء، كما لو أنها تتفحص ظلال صورة انطبعت على غطاء الطاولة.

«لا يمكن تخيل حياتي بدونك، حتى لو أخذوك للمستشفى مرة أخرى، ودمغوك باسم آخر، وكأنهم لم يكتفوا بما ألحقوه بنا، من إذلال ومهانة، حتى لو أغلقوا الباب عليك هناك. أنا مثلك، لا أريد أن أنسى قصتي معك، مهما هرمت».

«تقول مهما هرمت. وكأنها هرمت بالفعل»، قال لنفسه، «وكل شيء في وجهها يدل على أنها دخلت للتو في الأربعين من عمرها، وتتحدث عن الهرم». هل تشعر بالتعب لهذا الحد؟ هل تشعر بالهرم،

لأن جسدها بدأ يكبر؟ أم لأنها تريد تغيير نفسها عن طريق شكلها الخارجي، ألا تكون مثل سراب التي تعرف عليها، عندما كانت ما تزال امرأة شابة، في الجامعة. كل شيء في وجهها يشير إلى تعبها.

«لكني تعبة. سامحني، إذ أقول لك ذلك».

بدا صوتها منكسراً، وكأنها تبذل جهداً استثنائياً، لكي تحبس دمعة تريد أن تقفز من عينها.

«أصارحك، بأنني أفكر أحياناً في أن أغادر البيت ولا أعود مرة أخرى، لكني كلما فكرت في ذلك، زاد إصراري على البقاء، لأنني أعرف أنك ستأتي مرة أخرى. نوع من الصراع غير المتكافئ بيني وبين نفسي. ودائماً ننتصر نحن الاثنين، أنا ونفسي، فأبدأ أكره نفسي. وأفكر، لماذا لا أنجح في أن أكون شخصاً آخر. نعم امرأة أخرى، أية امرأة باستثناء أن أكون أنا، كم أتمنى أن أكون امرأة أخرى. سابقاً، كنت أحسد مريم، زوجة أخيك. ولكن من أين لي أن أعرف، أنها ستدفع حياتها ثمناً لقوتها ولحريتها؟ في ذلك الوقت حسدتها على ثقتها بنفسها، وعدم ترددها. لم تتوقع في حياتها الفشل مطلقاً. كانت حتى قبل اختفاء أخيك، عندما كان عسكرياً، تقول لا أعرف ما إذا كان هو الرجل الصحيح. أعرف أنه يفهمني ونحن نعرف بعضنا منذ الطفولة، لكنني أريده هنا، معي، عند مائدة الطعام وعلى الفراش، أريد رجلاً، رجلاً هنا في البيت، حاضراً، وليس رجلاً غائباً دائماً، بحجة أنه يقوم بواجبه. حتى في الشارع،، أنا أخاف من الناس في الشارع، عندما أسير وحدي، ويقولون، المسكينة، زوجها بعيد، وأعرف أنهم سيتهامسون بينهم، ويقولون، لا نعرف ماذا تفعل في غيابه. كم أحسدها، أحسد هذه الجرأة. أن تستيقظ يوماً، وتقول سأعتبر أخاه كما لو كان هو زوجي، وعندما تملّ من اللعبة، وعندما يلتبس الوضع أكثر مما يجب، تقول لنفسها: خلاص، انتهى كل شيء، لن أبقى هنا. سأجرب في

مكان آخر. إنها تضحية كبيرة، أن تظل الواحدة منا، مسجونة في بيت صغير. كم حسدتها، عندما حملت بناتها، أربعاً من بنات الزوجة الأولى، والخامسة بنتها، في البطن، وقالت سأذهب. وذهبت. لم تأخذ معها شيئاً. فقط الذهاب. وأنا أردت أن أقلدها. قلت غادر يوسف، وترك أخاه يحمل اسمه، لأفعل مثل مريم. ولم أدر بأنني في كل ما كنت أفعله، كنت أقلدك أيضاً. فعندما رأيت أخاك بعد اختفائك بسنوات طويلة، يظهر ذات يوم فجأة، يدفع باب البيت الذي انتقلنا إليه قبل فترة قريبة ويدخل، كأنه صاحب تلك الدار، ويسأل عنك؛ قلت لماذا لا أتعامل معه وكأنه زوجي. بالفعل ناديته باسمك، وقلت له، إنك تمزح، هل عدت إلى انتحال الأسماء والهويات من جديد، أعرف أن الفكرة ستعجبه، لأنني أعرف مكره وشره، كل الناس تعرف ماذا يفعل، منذ تطوعه في الجيش، زوجته الأولى فضحته، وقالت إنها لا تريد العيش مع جلاد، أطلق أسماء بناته على صراخ وصيحات السجناء: رفقة، رحمة، رأفة، شفقة. كل الناس تعرفه، باستثناءك، أنت لا تريد أن تعرف. ولكني أردت أن أقلد مريم، فناديته باسم زوجي الغائب، زوجي الذي لم يكتفوا برميه من سجن إلى سجن، إنما ألقوا به أخيراً في مستشفى الأمراض العصبية، في الشماعية. ماذا تعتقد تستطيع أن تفعل إمرأة مثلي: أبوها جُنَّ وزوجها جُنَّ هو الآخر؟ وحولها البلاد كلها جُنّت؟ نعم، لم يبق لي إلا أن أناديه باسمك. كانت أزمان صعبة، كانت أزمان الجلادين والقتلة واللصوص وقطاع الطرق؛ وأخوك بارع في كل هذه الأصناف، أشاع عن نفسه، أنه اختفى، بينما كان يقوم بخدمات سرية؟ هل سمعت كيف صعد نجمه فجأة في هذه الأيام، هو الذي لم يكن غير جندي أول في الجيش؟ يملك أكثر من صحيفتين محليتين، وشركة طباعة، بدّل جلده بسرعة، دخل مع القوات الأجنبية، حمل اسمك، سرق تاريخك، بل وسرق مهنتك، قال لهم، إنه صحفي

مشهور، وقد نال ما يكفي من مظالم السلطة السابقة، فسمحوا له أن يستحوذ على المطابع الحكومية. لم يكتف بذلك، إنما سيطر على كل مزابل القمامة المحيطة ببغداد، أصبح مقاول مزابل أيضاً، يبيع للأطفال كل ما هو موجود من قمامة هناك. أخوك الماكر هذا، ملك القمامة، صفن قليلاً، وحدق بي بمكر. حرك فكه المعوج، ووجهه الذي كما يبدو شوهته إحدى الطلقات الضالة في الكويت أو الشمال، أو في عاصمة أخرى، لا أحد يعرف، التمع بريق في عينيه، بالتوازي مع لمعان صلعته الكريهه، عرفت أنه يوافق على السير معي باللعبة. أعتقد أنه فكر بعمق، ووجد الفكرة مناسبة. أجبر زوجته الأولى أن تأخذ بناتها، وأن تشيع أن أباهن جنّ، فرضخت بل فرحت في أن تنفذ له ذلك مقابل مبلغ بخس يدفعه لها شهرياً. أنت تعرف، كم مرتشون هؤلاء الناس، كيف يستخدمون الرشوة! ماذا تبقى له إذن؟ فها هو يحمل اسمك! ولا ينقصه إلا زوجتك، والطفلة الخامسة التي أخذها من مريم، لكي يصبح كل شيء متطابقاً، ولكي يعيش ويعمل باسمك، لكي يقدم نفسه ضحية، نظيفاً وسجيناً سابقاً وأباً رحيماً وكريماً. ومن يقف في طريقه، يرفسه. دفع مبالغ بسيطة لتصفية مريم، التي تعرف من هو؛ أنت تعرف، الناس تقتل في هذه الأيام مقابل أبخس الأثمان، تعرف براعة أخيك، وتعرف الإثم الذي يحمله ماضيه، لا يعوزه العثور على قتلة محترفين. الآلاف من أمثاله فعلوا ذلك، سواء من الذين كانوا هنا، أو من الذين جاءوا من الخارج، القتلة لا يفرقون بين الداخل والخارج. ذلك هو قدر الجلادين. لقد تحولوا ببساطة إلى ضحايا، وعليك أنت أن تتحمل الدور الذي تحولت إليه بالقوة، دور الجلاد. أعرف أنها مفارقة مضحكة، لكن لا مفر من ذلك، سيقتلك إن فكرت في غير ذلك. كل واحد منكما تحول إلى حجر عثرة في طريق الآخر: سيرفسك. على أحدكم أن يختفي الآن. إما أن يختفي الضحية أو الجلاد، هو الآخر

يقول ذلك. غسل يديه بمهارة، ودمغك باسمه. وقال، أنه هو مؤسس مستقبل البلاد، هو من وضع حجر أساس الصباح الأول، والصباح الجديد! ذلك هو ديدنه. فمن يتعرف على القاتل بثوب كاهن؟ ومن يصدق امرأة مثلي في هذه البلاد، بلاد المنتصرين والمسحوقين، كما يحلو لك تسميتها؟ صدقني إنه لم يغفر لك ما يعتقد أنك ألحقت به، حتى البنت الصغيرة التي تركتها مريم وراءها، والتي يعرف أنها ......، أنها....، آه، لماذا أروي لك هذه القصة، فمن الأفضل أحياناً أن نحتفظ لو بسرّ واحد، حتى نهاية القصة، وليكن ما يكون».

رآها، تتوقف عن الكلام للحظة، وتمسح دمعة سقطت على خدها، لتنظر إليه بنصف ابتسامة، ثم تفتح حقيبتها التي رمتها عندما دخلت، على الطاولة، لتخرج منها علبة سجائر وولاعة وضعتهما على الطاولة.

«سامحني، إن ذكرت أمر البنت الصغيرة، إن أسمعتك هذا الهذر الفارغ. أردت أن أحدثك أيضاً عن نفسي، ومهما تعتقد بأنك تعرف عني أكثر، إلا أن هناك جانباً من القصة يظل بعيداً عنك. أنت تعرف، ديدَننا نحن البشر، نخترع لأنفسنا أكثر من سلوك، لكي نجعل هذه الحياة - حياتنا - قابلة للعيش؛ جرح ثانٍ، كما قالت جدتي. نتذكر وننسى، ننسى ونتذكر، أو كما تردد أنت دوماً: ننسى بأننا نتذكر، ونتذكر بأننا ننسى. مهما تصرفنا، ننسى، وننسى، حتى يخطر على بالنا يوماً، أننا مثل طير يطير في هاوية، وأن هذا النسيان، مثله مثل التذكر، بئر لا ينضب ماؤها. وكلما سكت واحدنا، ازدادت هذه البئر عمقاً. حتى تصبح الذكرى، أو القصة غريبة، عليه نفسه. هذا هو إحساسي كل مرة، كلما انتظرت مجيئك إلي. وكلما أردت أن أخرج عن صمتي، كلما فكرت، أليس من الأفضل لي أن أصمت، لكي لا أجرحه؟ لأنني ربما لن أقول الحقيقة. الخوف من ألا يقول واحدنا الحقيقة، هو الذي

يشلّ، رغم أن من المستحيل، أن يقول أحدنا الحقيقة كاملة. ليس لأنني أريد أن أخفي شيئاً، إنما لأن الحقيقة تُقال دائماً بالتقسيط، ولأن الذكرى نفسها تغرق مع الحلم الموجود هنا»

عندما وصلت إلى كلمة «هنا»، رآها تضم قبضتها اليمنى، وتضرب بها على الجهة اليسرى من صدرها.

«عندي رغبة أن أحكي قصتي، من هنا، من المكان نفسه، لأنني على يقين أن طريقتي في رواية القصة لك قبل قليل لم تعجبك. أرى ذلك على وجهك. دعني إذن أرويها لك بشكل آخر».

فجأة، رآها تبعد رأسها، تضحك نصف ضحكة، كما لو أنها قالت نكتة صغيرة، وتسمر نظراتها خارج الشباك، وكأنها تخاطب شبحاً أطل برأسه من هناك، لتبدأ من جديد.

«كنت أعرف أن الحظ ليس إلى جانبي دائماً. لكن تلك قضية تخص العقل، أما القلب فقضيته قضية أخرى، فمهما حصلت له من خيبات، لن يتنازل عن كبريائه حتى آخر ضربة في نبضه. ولكننا نحن النساء، لا يخيب حدسنا عادة. يقولون إنها الكيمياء التي تجمع اثنين معاً. لا أدري مدى صحة ذلك، لكني أدري، سأحدثك عن حب، عن رجل الأحلام، وكيف أنني عندما رأيته للمرة الأولى، عرفت، أنه هو وليس غيره، الرجل الذي سيجعل الحظ إلى جانبي دائماً. عندما تقدم مني في حديقة مقهى السنتر البريطاني في بغداد، أو البريتش كونسيل كما يسمونه، وقال لي: منذ طفولتي، وأنا أردد اسمك: سراب، تلك الجملة التي لم أنسها، أصبح الأمر منتهياً بالنسبة لي، وكما يبدو أنه شعر بذلك. عرف أنه قبل أن يقول شيئاً، استحوذ على قلبي بنظراته، من نظراته صدر الأمر وكفى. يكفي حضوره. وفي الحقيقة كان هو أكثر وقوعاً في الحب، مني. في كل القصص التي حكاها لي. كل قصصه

مليئة بالوجد، حتى قصة تلك البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، التي رضيت بأن أكون أنا هي. ومنذ ذلك الوقت، تغيرت عاداتي؛ أختار ما يحبه هو، حتى اللون الذي كنت أختاره لملابسي: أزرق، مثل لون فانيلة البنت الصغيرة تلك. أقسم لك، إنني لم أتعرف في حياتي، لا قبله ولا بعده، على رجل مثله. أصبحت شبه مجنونة به، أسير باتجاه حظي أو تعاستي، كيف لا، وأنا سمعته يقول لي: «منذ طفولتي، وأنا أردد اسمك: سراب»؟. هكذا تزوجنا بعد سنة من تعارفنا، وعشنا سنة بسعادة فائقة، رغم وضعه الصعب، ورغم مطاردتهم له، وهروبه من الخدمة العسكرية، وعيشه تحت أسماء مستعارة عديدة. لم نؤمن بالأوراق الرسمية، لكننا كنا متزوجين أكثر من كوننا زوجين على الورق. لم يقل لي يوماً كلمة سيئة. كنا سعداء، نحب بعضنا بجنون، لكننا، وأتذكر ذلك حتى اليوم، لم نقل يوماً لبعضنا: أحبك للأبد، وكأننا نعرف أن هذه الأبد، لا توجد في هذه البلاد، بلاد المنتصرين والمسحوقين، كما كان يحلو له أن يقول. لكننا كنا سعداء، حتى بهذا السر. ومهما نسيت، أتذكر الحد الذي يفصل بين سعادتنا وتعاستنا. ذات يوم قبضوا عليه وساقوه للخدمة العسكرية من جديد، ولكن تحت اسم آخر. لكننا قلنا، حمداً لله، انه على قيد الحياة، وإن كان بإسم آخر، فذلك ليس جديد بالنسبة إليه، سوى أنه لم يحسب حساب هذا القدر التعيس. أراد أن يبدأ معي باسم آخر، لم يشأ أن أسمع يوماً قصة البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، فزوّر هوية باسم جديد، ولم يعرف أنهم سيلقون عليه القبض لأن صاحب الهوية كان هارباً من حروبهم وبلادهم، يعيش خارج البلاد، بينما كان عليه الالتحاق بوحدته العسكرية. منذ ذلك اليوم، ستملك سعادتنا تاريخاً، لم نحدده نحن، تاريخاً حددوه خارجنا، وتعرف أنت، كم هم بارعون هنا في اختراع

المنغصات، في تلويث حتى القليل المتبقي من الهواء النقي. سعادة يوم الجمعة، أو ليلة الخميس على الجمعة، مثلاً، أيام نزوله من المعسكر. وعندما تندلع الحرب ستملك سعادتنا تاريخاً أبعد، أيام الإجازة فقط. كان جندياً، وكان يستيقظ مبكراً. وأنا كنت أعدّ له الفطور، وأتأمل وجهه الدائري الذي بدا يشيخ مبكراً، نظراته التعِبة، والتجاعيد التي بدأت تنحفر تحت عينيه، وظهره العاري، بعد أن يأخذ دوشاً ويجلس نصف عارٍ في غرفة الضيوف، أقول لنفسي، هل يصح، أنني لن ألمس هذا الجلد ذات يوم؟ ما أزال أرى نفسي واقفة خلفه، دون أن يلاحظ هو ذلك، كما أفعل اليوم. كم هو شيء رائع عندما أفكر الآن، صباح يوم جمعة، وراء صباح جمعة، أحصيتهم جميعاً، إذا أردت أخرجهم لك من حقيبتي، كتبتهم على ورقة: عدد أيام سعادتي التي بقيت لي فقط من الحياة. صباح الجمعة، ضجيج الأطفال في الشارع، وهو يجلس هناك، مثل جلستك، ويدخن سيجارته ويشرب بلذة، ويتصفح المجلات القديمة، مجلات الأطفال فقط. كان يقول في أيام الحرب، يجب قراءة مجلات الأطفال فقط، وبلغات أخرى. تنقّل من وحدة إلى أخرى، سجنوه ثم أفرجوا عنه، وفي كل ذلك، وبعد كل فترة غياب أو انتقال، ننتظر أول خميس على يوم جمعة، لكي نحتفي بسعادتنا من جديد، لطقسنا الذي لم يستطيعوا تدميره، رغم الدمار والخراب الذي طال البلاد والناس. وعندما سُرِّح فرحنا كثيراً، كنا نعيش في بحبوحة معقولة. كنت أدرِّس في مدرسة قريبة، وكان راتبي يكفينا نحن الاثنين، خاصة وأن أبي ترك لي ثروة لا بأس بها بعد وفاته في المستشفى. كانت أيامنا تمر بشكل روتيني. فكرنا، أن ينتهي من قصة استبدال الأسماء، لكنه كان حزيناً بسبب اختفاء أخيه، أو موته كما قيل له، لا يعرف حقيقة ما كان يقوم به أخوه، أو ربما لم يشأ معرفة ذلك، كأنه نسي ما فعل أخوه مع البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء

والفانيلة الزرقاء، عندما كانا طفلين. كأنه عن طريق تغيير اسمه دفن القاتل الذي ارتبط باسمه القديم، كأنه صدق أنه ارتكب ذلك وليس أخاه. ذلك هو ديدنه، منذ طفولته يصرّ على لعب دور البطل القديس، ولم يشأ أن يلعب دور الله، لأنه يعرف أن الله لا يعفو متى شاء وحسب، إنما يعاقب أيضاً. كانت أمه تأتي إلينا تزوره، وكان يحزنه منظرها، هكذا قرر أن يتحول إلى شخصين، يلعب دور أخيه، يزور زوجة أخيه في الليل. كانت زوجة أخيه تُقنع أمه، أن زوجها لا يستطيع البقاء حتى النهار، بسبب الواجبات التي عليه القيام بها، ثم يصارحني ذات يوم عن رغبته في حمل اسم أخيه بالكامل، لأنه تعب من المطاردة والتخفي، لكنني لم أدرِ أنه قرر أن يذهب بعيداً، في تلك اللعبة. حتى حدثت الكارثة ذات يوم، والتي أريد أن أنهيها اليوم. حدث ذلك في يوم خميس. كان من المفروض أن يأتي. لكنه لم يأت. لم أحتمل الانتظار حتى اليوم الثاني. عند العصر، أجرت تاكسياً وذهبت إلى بيت أهله ومكان عمله. قالوا لي، لم يعد هناك، ولا أحد يعرف ماذا حل به، مريم فقط، قالت لي بصراحة، إن أخاه المتخفي وراء اعتقاله، لقد وشى به، ولا يعرف أحد في أي سجن أو زنزانة تعذيب ألقوا به، فعرفت أن شيئاً حدث له، وأصبح من الصعب إنقاذه بعد الآن. لبستُ الأسود وقلت، سأظل أتذكره، مثلما كان يتذكر تلك البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، التي كان يفرحه دائماً أن يروي قصتها، أريد أن يعود لي حياً، يجلس في صباح يوم الجمعة، يدخن سيجارته ويشرب كأسه ويتصفح مجلات الأطفال. كان يجب أن يمر وقت طويل، وتأتي أزمان أخرى لأعرف، بأنه خرج من السجن، ولم يعد للبيت، استبدل اسمه ثم انتقل من مدينة إلى أخرى، يستبدل وظائفه، ويستبدل أسماءه، حتى تغير الوضع وانقلبت الناس على نفسها، وانقرضت حكومات وممالك، ودخلت جيوش العالم جميعاً،

وحل ما يشبه اللعنة على هذه البلاد، وبدل أن يعود لي، كما أملت، عرفت أنهم سجنوه مرة أخرى، ليخرجوه ويُلقوا به في مستشفى الأمراض العصبية، في الشماعية، لأنه يرفض أن ينادوه بالاسم الذي ألحقوه به، قال لهم: أنا يوسف، ولست يونس. لم يصدقه أحد، باستثناء طبيب واحد، تحول إلى صديق له. ألا ترى معي، ما زال هناك في بلاد المنتصرين والمسحوقين، بقية ملائكة؟ لم يمنع وجود الطبيب هروبه. فهرب من المستشفى، ليعود أخيراً إلى ملجئه الأول، ويسكن في البيت الذي تركه هو وزوجته ذات يوم، والذي اشتراه حموه لهما في أيام تخفّيه الأولى، لا أحد يعرفه هناك، ومنذ زمن ما عاد يتذكره، سجن نفسه لا يخرج، سلم جهاز الراديو والتلفزيون لأول لص جاء يسرقه، يقضي أيامه يكتب ويكتب، يريد أن يروي قصته وقصة أحبائه، قصة الجلادين وقصة الضحايا، قصة القتلة بثوب القديسين، قصة الماضي وقصة الحاضر وقصة ما سيكون، كل تلك القصص التي تدور حوله، القصص المخترعة والقصص الحقيقية، القصص المتخيلة والقصص الواقعية، يكتب كل ذلك وكأنها فرصته الأخيرة لأن يبوح بكل ما ما أراد أن يبوح به منذ زمن ما عاد يتذكره، يكتب ويسجل أيامه على آلة تسجيل قديمة، وفقط في يوم الجمعة: يجلس بمواجهة النافذة، يدخن سيجارته ويضع علبتي بيرة، يشرب بلذة يقرأ مجلات الأطفال، وكأنه يسترجع كل أيام الجمعة تلك، أما زوجته التي حاولت عبثاً نسيانه، تصلي ليل نهار، أن يعود إلى نفسه، لكي تقف إلى جانبه من جديد سعيدة، تحاول استرجاع لذة يوم الجمعة وليلة الخميس، لذة سيجارة وكأس بيرة وتصفح مجلات الأطفال».

رآها تمد يدها إلى علبة السجائر، تخرج سيجارة، تعطي واحدة له، فيأخذها. ثم رآها تنهض، وتخرج مرة أخرى ابتسامة قصيرة، ثم تنحني قليلاً نحوه، لتقبله على وجنته، دون منح أي انطباع خاص،

وكأنها تعلن عن حيادها هذه المرة، ولكن في كل الأحوال كان حياداً أمومياً، حتى عندما أشعلت له السيجارة، ثم لتشعل سيجارتها وتذهب إلى الثلاجة، وتعود بعلبة من البيرة وكأسين، تضعهما على المائدة، وتفتح العلبة، وتصب البيرة له ولها، وتقدم له كأساً، وتجلس في مكانها السابق، تنظر له عبر دخان سيجارتها.

«في بعض الأيام أزوره في البيت، لحظة يكون نائماً، أحياناً أرمي نفسي إلى جانبه، بودّي أن أظل هناك طويلاً، أخاطب روحه في الحلم وأطرد عنه الكوابيس. كم بودّي البقاء إلى جانبه طويلاً، لكني أخاف أن أغفو، ويصحو فيجدني هناك إلى جانبه، فيتعلق بيَ من جديد. غالباً ما أشعر أنه يعرف أنني أزوره. يأكل كل ما أطبخه له أو أتركه له في الثلاجة، صحيح أنه لا يتحدث معي، لكني أعرف بأنه ما يزال يحبني، مثلما أحبه. أرى ذلك في عينيه، وفي كل حركة يقوم بها. فما زال ينام في الفراش، وكأنني أنام إلى جانبه، حريصاً حتى على ترك مكان واسع لي، أتقلب عليه في نومي. أعرف أنه يحبني، وأحبه أكثر، عندما أراه يجلس في صباح يوم الجمعة: يدخن سيجارته ويشرب البيرة بلذة، بينما يتصفح مجلات الأطفال».

ثم رفعت قدحها، وقالت:

«صحة. بصحتنا».

شرب جرعة من القدح، وفكر، كم تبدو جميلة، حتى بثوبها الأسود. ما زالت جميلة، رغم أنها تبدو عصبية ومضطربة بعض الشيء. هل تشعر بالمسؤولية؟ بالندم؟ هل ستندم غداً، لأنها تجلس معه، لأنها سمحت له من جديد بالاقتراب منها؛ بل هل تخاف، تشعر بالخطر على نفسها من مسامير أخيه؟

«لماذا لا نذهب إلى غرفة النوم. ففي النهاية، لا يعود هذا الجسد لي، أقسم إنه ملكه منذ ذلك اليوم، منذ أن قررت أن أبقي عليه حياً.

تستطيع أن تفعل بجسدي ما تريد. إنه ليس لي منذ سنوات طويلة، منذ سنوات الكارثة. لتفعل به كل ما يخطر في ذهنك. ليس هناك مانع. إنها فرصتك الأخيرة، فلا أعتقد بأنني سأعود ثانية. صحيح أنني عثرت عليك أخيراً، لكن واجبي أن أختفي أيضاً، عليّ أن أحافظ الآن على نفسي وعليك، أن نبقى أحياء، لن أحتمل موتك، علينا أن نختفي، كل واحد منا بطريقته أو إلى طريقه، وإذا لا نسمح لجسدينا أن يلتقيا من جديد اليوم، فإننا بالتأكيد سنندم على ذلك غداً، أو في الحياة الأخرى».

فكر، لماذا تتحدث عن الغد والحياة الأخرى، وكأنه يملك غداً أو حياة أخرى، وكأنها نسيت أنه ومنذ سنوات طويلة، ثبت مسماراً في الزمن وعلقه هناك بعيداً، منذ أن تحول الحاضر إلى حفلة عذاب، منذ أن نسى أي اسم عليه أن يحمله، وبأي اسم سيموت أو يُقتل. كان دائماً غائباً عن نفسه، عن اسمه، لا أحد يعرف بذلك غيره، في الجبهة، أو في زنزانات التعذيب، بل حتى في مستشفى الأمراض العصبية، لم يكن هناك معهم. حتى عندما هرب وتنقّل من مدينة إلى أخرى، منتحلاً الاسم وراء الاسم، لم يخف أن يأتوا إليه ثانية أو يقتلوه. لكنه الآن يسمع صوتها المتوسل، المألوف والغريب عليه في الوقت نفسه، مثله مثل صاحب الصوت الذي يحذره من قيام الساعة، ويقول له، إن على القاتل تسديد ديونه!

«أقول لك للمرة الأخيرة، دعنا نذهب إلى غرفة النوم. أو حتى هنا في الصالون. ألا تريد؟ أهديك جسدي كله، هل نسيته؟ أنت تعرفه، تعرف مساماته، تعرف كل انحناءة فيه، تعرف كل خفاياه، كل تضاريسه، تعرف كيف تجعلني أصرخ باللذة، وكيف تجعلني أغرق بالماء، وأنسى جفافي. بالله عليك تعال، وصدقني أنني لا أفعل ذلك بسبب خيبة، أو لأخذ ثأر من أحد، إنما أفعله لنفسي. أنهكني الجفاف،

ودمرني العطش. لا أحد غيرك يسقي هذا الجسد الجاف، لا أحد غيرك يمنح هذا الجسد الناحل روحاً».

رآها تشرب كل ما تبقى في قدحها دفعة واحدة، تنهض وتقترب منه، تلمس جبهته. شعر بشفتيها تقبلان جبهته. ثم رآها تبتعد عنه. تذهب إلى النافذة، تغلقها، وترجع لتقف قبالته، وتفتح أزرار قميصها.

«انظر إلى صدري. انظر إلى جسدي. تعال إليّ. فعلى الأقل ستصبح عندك قصة جديدة ترويها. على الأقل تصف مشهداً ينبض بالحياة، بالإيروتيكا كما يقولون، وليس دائماً كتابة كل هذه المشاهد الحزينة، التي تقبض على الروح. ألا تحب الكتّاب الحسيّين. ألم تحك لي عنك، أو عن صديقك الروائي، «هارون والي»، كيف أنه في بداية أيام الخدمة العسكرية، كان يكتب القصص الجنسية للجنود، وكان يعيش من ذلك. وأنت ستروي عني هذه المرة. ليس قصة جنسية، كما كنت تفعل سابقاً، قصة مليئة بالآهات والغنج، كما تفعل صديقاتي، من أجل إغراء الرجل بالزواج. إنما ستكتب قصة مليئة بالوجد والمعاناة. إنها فرصتك الأخيرة، قبل أن أختفي».

تذكر، أنه سمع هذا التوسل أو ما شابه من زوجة أخيه، مريم، في الليلة الأخيرة قبل أن تأخذ بناتها وتغادر البيت، عندما نادته باسمه للمرة الأولى: «يوسف، يوسف، يوسف، تعال أرجوك، قبل أن أذهب، أريد منك بنتاً خامسة، وسأسميها كما تشاء». ظلت تلك الجملة تتردد في جنبات مخه، حتى بعد انفصال جسديهما عن بعضهما. لكنه يتذكر أيضاً، أن صوت مريم احتوى على توسل أكثر، وكان يحمل في نبرته تلك النبرات التي تحملها نساء البورديلات، كان يحوي على شيء من الكراهية أيضاً، وكان كل شيء يقول إنها ما عادت تحتمل العيش هناك، في البيت، أو إنها ما عادت تحتمل الكوميديا التي اخترعتها هي لنفسها. بل قالتها بصراحة، وما زالت جملها تطنُّ في أذنه، «آه لو كنت تعرف،

بأنني منذ أيام، منذ أكثر من أسبوع، اكتشفت الحقيقة، لكنني لا أعرف ما هي حقيقة ما اكتشفته بالنسبة لك. من طرفي حتى اليوم لم أعرف بذلك. تصور، ولأني أحمل هذا الاكتشاف في داخلي، أجره معنا للفراش منذ مدة طويلة، توقعت منك، بأن تعرفه أنت الآخر. وبأنك ستأتي إليّ يوماً، وتقول لي، بأنك اكتشفت الحقيقة أيضاً، بأنك لست يونس، بأنك يوسف. ولكنك تأتي كل ليلة إليّ، وتلعب اللعبة ذاتها معي. قبلت بكل شروط اللعبة التي وضعتها أنا. ولكنك تريد هذه المرة أن تضع أنت الشروط. لا تنطق حرفاً واحداً. ألا تلاحظ بأن كل شيء ما عاد كما كان، ما سيكون، سيكون أكثر خراء مما كان». صحيح أنه كان يعرف، أن الأمر تغير، لكنه كان ينظر إلى هذا التغير ويشعر به بشكل آخر. وهو لم يردّ عليها، ولم ينطق بحرف واحد، لأنه عرف بأنها اتخذت قرارها بالمغادرة، لم ير ذلك على وجهها الحزين، الغاضب، إنما في الحقائب التي جمعت فيها ملابسها وملابس البنات. سمعه من أمه أيضاً، عندما أخبرته ذات مرة في إحدى زياراتها الخاطفة والسرية له، بأن مريم ما عادت تأكل معهم منذ أسبوع، وهي بالتأكيد ستغادر البيت، وإذا أخذت البنات، فلن يبقى لديها سبب آخر للعيش. لم يأخذ كل ذلك الكلام على محمل الجد، حتى عندما طلبت مريم منه في غرفة النوم، أن يقترب منها، بعد أن خلعت ملابسها، واستلقت على السرير، لترفع على عادتها فخذيها، وتفتح بأطراف أصابع يديها، طرفي فرجها، تصيح به بتوسل، لكنها تناديه على غير عادتها: «يوسف، يوسف، يوسف تعال أهديك جسدي للمرة الأخيرة قبل أن أختفي». لم يصدقها، حتى عندما فاجأته بمناداته باسمه، رغم أنه يعترف في دخيلته، بأنه صدق جنونها كل هذا الوقت، لكنهما، كانا مثل سجينين، في زنزانة انفرادية، لم يكن أمامهما بديل آخر غير اللجوء لبعضهما. كان هناك، هذا الالتباس الذي يحدث للناس جميعاً، وخاصة عندما يستحوذ عليهم

وَهْمٌ ما، عندما يصغون دائماً إلى الأنا الآخر الذي يعلن عن نفسه دائماً بإلحاح وفي الأوقات الحرجة، ذلك الأنا، الذي يملي على المرء نوعاً من الأمل، والندم، ويمنحه وهماً متخيلاً لا يتوقف. ففي تلك اللحظة، اللحظة التي دخل فيها، وشعر بذراعيها يخنقانه، وبمخالب أظافرها تنغرس في ظهره، وبالدم يسيل من ظهره، ظن بأنها لم تتخذ قرارها بالمغادرة نهائياً وبشكل جدي. كان عليه أن ينتظر ليلة اليوم الثاني، عندما عاد من الحانة على عادته ولم يجدها، لكي يصدق قرارها الذي اتخذته. وبعد حوالي أسبوع، عندما توقفت أمه عن زيارته على عادتها في بيته، ذهب ليعرف، وما إن وطأت قدماه عتبة البيت، حدس ما حصل. وجد خالته وحدها، فقالت له وهي تبكي: «ذهبت مريم والبنات، وأمك ماتت، أصرت على الخروج للسوق، رغم قصف الطائرات، ماتت هناك من الحزن. أنت تعرف ضعف قلبها». فقال لنفسه: «عجيب كيف يموت التعساء في هذه البلاد، بلاد المنتصرين والمسحوقين، بسرعة».

الآن، ماذا يقول الأنا الآخر، عندما يرى هذه المرأة، التي تختلف تماماً عن مريم، المرأة التي ظلت شاخصة في يقظته وفي نومه، تقف أمامه، تخلع ملابسها، تتوسل أن ينام معها؟ من الصعب عليه أن يعرف. ثم سمعها تقول:

«من العبث أن أتحدث وأنت تسكت طوال هذا الوقت. أنا هنا معك في البيت. أتحدث معك، وأنت ساكت. لا أعرف وقع كلامي عليك، ولا أهمية سعادتي بالنسبة لك، أو تعاستي. أعرف، أنها تعاستي أنا، أن أستمر بالمجيء إلى هنا، وأسمح لنفسي أن أسمع كل هذه القصص منك، المتخيلة والحقيقية، الكاذبة والصادقة، المخترعة والمكتشفة، كل تلك القصص التي تسجلها على جهاز التسجيل، أو تلك التي تطير في الهواء. ربما كل شيء مخترع مني، هل تريد أن

نذهب سوية إلى مستشفى المجانين؟ ربما أنا لا أريد أن أصدق بأنني مجنونة بالفعل. إذا كنت مجنونة، فلن أعاني، إذا رحلت عنك، وإذا لم أكن مجنونة، فأنا أستحق كل هذه المعاناة. ألا تريد الحديث. لا أريد أن تقول لي بأنك ندمت، بأنك قلت لي ذات يوم: أحبك. لا تقل لي، أرجوك، إنك تركتني، ونمت مع زوجة أخيك لشعورك بالإثم، إنك خنت البنت الصغيرة تلك، سراب، مع امرأة أخرى، وإنك بهذا الشكل قتلتها للمرة الأولى بالفعل، لأنك بهذه الطريقة تقتلني مرة أخرى. من الأفضل ألا تقول كلمة. ومن الأفضل أن أرحل، وألا أسمع كلمة منك غير هذه الكلمة، لكني أريد أن أرحل وأحمل معي لمسات أناملك. تعال، بالله عليك تعال».

إنها الأنا الأخرى، التي شعر بها تلحّ عليه هذه المرة، أكثر إصراراً، وتقول له، إن المرأة جادة بكل ما تقوله، وإنها لا تتوسل إليه، إلا لأنها مقبلة على فعل خطير، ومن واجبه منع حدوثه.

نهض من مكانه. اقترب منها. رفع إحدى يديه ولمس خدها، فرآها تغمض عينيها تماماً. لبرهة رآها تبتعد عنه، تحدق بوجهه، تضحك ضحكة خفيفة، فيها نشوة. إنها الضحكة البيضاء، الفرحة، الواسعة، الخاصة بها، الضحكة التي تجعل وجهها أكثر شباباً. إنها ضحكة سراب فقط. وعندما رآها تبتعد عنه، وتتوجه صوب غرفة النوم. تبعها.

عندما دخل الغرفة، شعر أن غرفة النوم تشبه غرفة النوم في بيته. السرير العريض، دولاب الملابس، المرآة والكومودين الصغيرة، حيث اصطفت عدة الماكياج. بل حتى البساط ذاته، والضوء الخافت أيضاً. هناك شيء يحبه في الغرفة، هذه الألفة مع الأشياء. وكأنه يعرفها منذ سنوات، وكأن كل شيء هنا، أصبح جزءاً منه. فقط، هي المرأة، التي رآها تتمدد عارية على السرير، بدت له غريبة بعض الشيء.

اقترب من السرير، وفكر أن عليه التأكد من وجودها أولاً، فمن الجائز جداً، أنه اخترع وجودها، ومددها على السرير، مثلما يفعل دائماً مع مئات الأشياء. وعندما جلس على حافة السرير، ومد يده ليلمس جلدها، وقعت يده على الشرشف الذي غطى النصف الأسفل من جسدها، فشعر أنها شراشف جديدة. انحنى على المرأة بنصف جذعه، ورأى شفتيها العريضتين تنفتحان، وتهمس له، وقد ألقت يديها خلف رأسها، تمسك أطراف السرير:

«ها أنا مستسلمة لك تماماً، افعل بي ما تشاء».

فكر، متى رأى سراب بهذا العري، متمددة على السرير، أمامه؟ من الصعب عليه تذكر ذلك. ولماذا يريد تذكر ذلك الآن. من الأفضل له أن ينسى أنه تذكر، أو ليتذكر بأن عليه أن ينسى، وأن عليه الآن أن يتوحد مع هذه المرأة، التي تتحرك أمامه، والتي أزاحت الشرشف عن جسدها. لينسَ، لينسَ ما حدث وما سيحدث. فكر في ذلك، وانحنى عليها، يقبلها، ويتمدد إلى جانبها في الفراش.

«بهدوء جميل.. بهدوء جميل. انسَ كل شيء أرجوك».

سمعها تطلب منه بصوتها الرقيق، عندما تمدد إلى جانبها.

فكر، «لماذا تطلب مني أن أنسى؟ هل تريد أن تبعد عني الشعور بالاعتقاد بأنني أخون أحداً، تلك البنت مثلاً، البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء؟» ثم تساءل مع نفسه، ما إذا كانت هي الأخرى تفكر مثل الآخرين، بأن الوفاء والإخلاص، يعني الاتفاق بين شخصين بعدم السماح لأنامل شخص آخر أن يلمسهما؟ ثم تساءل مع نفسه، أي صنف من النساء هي؟ هل تريد أن يتعامل معها بصفتها جسداً جديداً، يتمدد إلى جانبه، أم باعتبارها امرأة يعرفها منذ سنوات طويلة، قبل أن تحدث الكارثة، أو

قبل أن يسود الخراب؟ هل تريد امتحانه، أم هي الأخرى لا تريد أن تتساءل الأسئلة ذاتها مثله؟ لأنه حتى عندما مد يده إليها، شعر بأنه لا يستطيع القبض عليها، كما شعر وخاصة في البداية بأن هناك دائماً اضطراباً وحيرة ودوخة وشكّاً، في حركات جسدها، وفي أنفاسها التي تخرج منها، وهي مهما ادّعت بأنها أسلمت نفسها إليه، وهذا ما يراه، في لحظة قبض يديه عليه، وشعوره بخفة وزنه، إلا أنها تتصلب في بعض اللحظات، في لحظات الشد والالتفاف، التفاف الساقين، التفاف الذراعين، أو في لحظات تقبيل الأعضاء، أو عضها. ولكنها، ربما، عندما تنتبه لنفسها، تتحول إلى جسم خفيف، مثل ريشة، يقلبها كما يريد. إنها تلك اللحظات، التي يراها تسمح فيها لأصابعها أن تبحث عما تريده، وأن تنتهي حيث لا بد لها أن تنتهي، تلك اللحظات التي رآها تفعل مثله، عندما تتوقف عن الحركة، وتظل تراقبه بعينيها، بكل بريقهما اللماع في عتمة الغرفة، أو في تلك اللحظات عندما تتوقف عن ملامسته، وتطلب منه أن يهدأ للحظات، مستلقية على ظهرها، على مسافة ستين أو سبعين سنتمتراً، تتطلع للسقف، وكأنها تهيّئ نفسها لهجوم جديد. كانت تلك اللحظات التي فكر فيها أيضاً، فيما إذا كانت تشعر بهذا الرجل الذي يكون تحتها مرة، وفوقها في المرة الأخرى؟ هل تشعِر بالشيء ذاته؟ من يدري، ربما لا تفكر في الشيء ذاته، ربما لا تفكر مثلما يفكر هو، «ألا نفكر نحن في الموضوع ذاته بطريقتين مختلفتين، ومن يقول إن الآخر يفكر في الموضوع ذاته الذي نفكر فيه، حتى وإنِ كنا متلاحمين في السرير، نفعل الشيء ذاته»؟

«لماذا لا تُقلِع عن التفكير وتأتي إلي؟»".

كان يجب أن يسمعها تقول هذه الجملة، لكي يعاود الهجوم من جديد. هجم عليها، وقرر أن يتوقف عن التفكير فعلاً. اضطرب. وكأنه طوال حياته لم ينم مع امرأة، أو كأنه لم يصدق بأنه عثر عليها من

جديد. راح يقبلها على طول جسدها، وكأنه تأكد للتو، بأنها هي بالفعل، وتتمدد على السرير معه؛ أو كأنه يخاف أن يفقدها بعد لحظات. يعضّها في بعض الأحيان، وكأنه يريد أن يحتفظ بطعم جلدها العرقان، الغارق في الملح، الذي افتقده منذ زمن طويل. ها نحن، نكتشف بعضنا من جديد، ها نحن نكتشف كم نصلح لبعضنا، قال لنفسه، وطلب من نفسه، أن يتوقف عن التفكير، أن يصغي فقط، لإيقاع جسدها، إيقاع حركاته التي تتوازى مع حركات جسده، أن يأخذه قطعة بعد قطعة، يتنقل من مكان إلى مكان، أن يكتشفه كل مرة من جديد، وإذا هجم عليه الشك للحظة، فليتطلع في مرآة الدولاب المواجه للسرير، وليرَ الزوجين الاثنين، أمامه: متلاصقين متداخلين مع بعض، ومكملين لبعض، وكأنهما لم يلتقيا منذ سنوات طويلة، منذ أن بدأ الخراب؛ سيرى كيف أنهما لن يخرجا عن إيقاعهما؛ في كل وضع جديد، سيرى الفخذين، الذراعين، الكتفين، الحوضين، يجدان بعضهما بأكثر قوة، بأكثر وجد وإتقان؛ سيرى كيف أن الاثنين يستعيران من بعضهما الرغبة، يتسابقان بإعارتها لبعضهما؛ سيرى، كيف أن الرغبة تتصاعد كل مرة بصورة أعمق؛ سيرى شعرها الطويل يغطي وجهها، وسيرى بريق عينيها، يلمع وينطفئ، وسط عتمة الشعر؛ سيرى توحدهما العميق، وبالأشياء تنمو حولهما، هناك في عتمة الغرفة، كل ما يحيط بهما يشكل نفسه، باتجاه المستقبل غير المعروف، مستقبل اللحظة التي تأتي، أو تلك اللحظة التي انتهت للتو، ولا يريد لها أن تتحوّل إلى ماضٍ. كل حركة تصدر من جسديهما تدافع عن نفسها، ضد الخرس الذي يجلبه الماضي، وضد التفكير في المجهول، وضد الرعشة الأخيرة التي تسري في الرجلين، الرعشة المصحوبة بالخوف من وحشة الليل، والسقوط في وحشة النوم، وتسليم النفس لكابوس جديد أو لموت قادم.

«قل إنك تشتهيني».

سمعها تقول تلك الجملة. وما كادت تنهي تلك الجملة، حتى سمعها تشهق شهقة عميقة، وشعر بأظافرها تخرمشه، وبانفتاح فتحة فرجها المصكوكة، العاضة، الماصة على قضيبه بحركة واثبة سريعة.

راحت يده تبحث عنها، نصف جسمها التحتي ما يزال فوق فخذه العلوي، فيما استقر رأسها فوق المخدة. لبرهة ارتعش جسدها، ثم هدأ، لتخرج صوتاً مثل ماكنة تعبانة، لتتوقف عن الحراك بعدها، لا يسمع ضربات قلبها إلا بالكاد، «تك.. تك.. تك»، حتى أنه شعر بكلماته، أياً كانت، تضيع مع عتمة الليل. كان هو الآخر مرهقاً، ولا يدري كم كانت الساعة، عندما سمع صوته يتمتم للمرة الأولى والأخيرة في تلك الليلة:

«أشتهي كل شيء فيك».

قبل أن يتوقف عن التفكير تماماً وينام.

الفصل الثامن

في العودة منه إليه: زيارة الحانة السرية، حانة المدينة ووداع الأصدقاء

عندما استيقظ من جديد، أدرك مباشرة، بأنه لم ينم إلا دقائق قليلة، لم يعرف ذلك فقط بسبب التعب الذي سيطر على كل عضلات جسمه، إنما لأنه شعر أيضاً، أن عيناه في الحقيقة لم تغمضا، لدرجة أنه يستطيع أن يرى نفسه نائماً، في الوضع ذاك، الذي يدل على شيء فقط، على أنه ربما حاول النوم مرات عديدة، لكنه توصل أخيراً إلى القناعة البسيطة، أن يتوقف عن محاولته: كان ينام على جنبه، أدار ظهره إلى النصف الثاني من السرير، استقر رأسه على كفه اليمنى، وعيناه تحدقان بالفراغ، بظلام الغرفة. ربما مضى عليه وقت طويل، وهو على وضعه ذاك، لكنه عندما نهض ولبس ملابسه المكومة إلى جانب السرير، فكر، أنها المرة الأولى التي لم يزره فيها صاحب الصوت الغريب، وأنه يستيقظ وقد استحوذ عليه شعور جديد مختلف تماماً. فكر، أن كل شيء يأتيه بصورة مألوفة، وكأنه حلم به في الليلة الماضية. صحيح أنه لا يستطيع تذكر تفاصيل الحلم الذي رآه، لكنه يستطيع على الأقل، تذكر نهايته، التي سمع فيها صوتاً أنثوياً، يقول له: أنت في بيتك. وعندما تطلع من نافذة الصالون، لكي يتأكد من ظنونه، وجد أنه يرى الظلام ذاته الذي رآه في نومه، يراه الآن يسيطر على محيط البيت. لم

يشأ إشعال الضوء، لأنه ما زال غير متأكد مما يحدث، غير متأكد من المكان الذي هو فيه. لكنه عندما دخل غرفة الحمام وغسل وجهه، وعاد مرة أخرى للصالون، عرف بأنه من غير الممكن ألا يعرف المكان. فمن تمتد يده بصورة أوتوماتيكية إلى عتلة الباب، من يحرك الأبواب باتجاه معين، يعرف بصورة لا تقبل الشك، بأنه يتحرك في مكان يعرفه. كانت إحدى تلك اللحظات الغريبة، التي رغم تعوّده عليها في الأيام الأخيرة بصورة خاصة، إلا أنه لم يستطع سبر أغوارها. فهي ليست المرة الأولى التي يشعر فيها، بأنه عند قيامه بأي شيء، يقلد نفسه، وليس كما كان يحدث له سابقاً، عندما ينتحل شخصية أخرى. كان من الأفضل لغريمه ذاك، أن يقول له، بأنك تنتحل نفسك. لأنه اكتشف مرات عديدة، بأنه لا يقلد حركاته بنفسه فقط، إنما يخترع حتى الأماكن التي يتحرك فيها. وكأن هناك شخصين اثنين: أحدهما يقيم في بيته هناك، والآخر مقيم في الأماكن التي يشعر بأنه يتحرك فيها. ولو كان كاتباً، وحصل على فرصة كتابة رواية عن نفسه، لمنحها عنوان: «نزهة عبر أماكن مألوفة». لكنه يكره العناوين الشاعرية، وما يحصل له بالذات، ليس له علاقة بالعناوين الشاعرية، بقدر ما يثير الألم والذكرى عنده. كل شيء حقيقي، حتى الوهم الذي يستحوذ عليه. والمرأة؟ فكر، نعم ماذا عن المرأة؟ ومن يثبت أنها لم تكن هنا، وغادرت بعد أن تكون تركت له رسالة أو ورقة صغيرة؟ هل هي الأخرى ذهبت، لتقوم بـ«نزهة عبر أماكن مألوفة»؟.

نظر يوسف في الصالون، فرأى حقيبته التي حملها في الليلة الماضية. ثم تطلع إلى الطاولة، فرأى وسط الظلام، علبتين من البيرة، ومنفضة سجائر، ومجلات للأطفال، إلى جانب آلة التسجيل، برق ضوء أحمر خفيف منها. أطفأ آلة التسجيل، وسحب السلك الذي يربطها عند الحائط، وطواه حولها، ثم رفعها ليمسكها بيده. ثم راحت يده الأخرى تبحث عن ورقة ربما تركتها المرأة وراءها. كانت هناك ورقة متروكة

على الطاولة وإلى جانبها قلم أيضاً، إلا أنه عندما قرّبها إلى عينيه، رأى قلباً رُسم عليها، وكلمات قليلة كُتبت بخط كبير:

«أحبك . . . . . وداعاً».

فكر، كأنه يقرأ كلماته ذاتها التي أراد أن يكتبها لسراب. وضع الورقة في جيبه مع القلم. ثم عاين غرفة النوم، تحرك باتجاه مجاز البيت، رفع الحقيبة، ثم أسقطها إلى الأرض، وبعد تردد قصير، عزم أن يتركها هناك، لسراب، ربما ستحتاجها هي أكثر منه، فليس ثمة ما يتركه لها يُذكره به، أكثر من تلك الحقيبة. أما في ما يتعلق به، فإنه لم يعد بحاجة للحقيبة، بعد اليوم، وأن كل ما يهمه منذ الآن: آلة التسجيل وحسب. قرر مغادرة البيت.

عندما أصبح في الشارع، كان الظلام في أشده، كان بودّه معرفة الساعة، فتذكر أنه نسي ساعته ذات الأرقام الفسفورية في البيت، ولم تكن عنده رغبة في أن يسأل أحداً. في كل الأحوال كان هناك القليل من الناس، الذين يمرون به في تلك الساعة، وكانوا يعودون إلى بيوتهم، يسيرون في الظلام الذي تعودوا عليه بسبب انقطاع التيار الكهربائي، وكأنهم يسيرون للمرة الأولى على أرض كوكب آخر. فكر، في أنه شخصياً ومنذ سنوات طويلة، لم يعد للبيت في مثل هذا الوقت، لأن هذه الساعة بالذات، هي ساعة مغادرته له عادة، ليس خروجه من البيت فقط، كما خطر على باله، إنما بأنها أيضاً ساعة خروج كل رفاقه «الليليين»، أو «طيارو الليل»، كما أطلقوا على أنفسهم، والذين اعتادوا رؤية بعضهم البعض في الحانة السرية: حانة المدينة. كأنه ورواد الحانة التي أطلقوا عليها ليس بدون معنى: حانة المدينة، يملكون زمناً خاصاً بهم، يختلف عن زمن بقيّة الناس.

شعر بالغبطة، وهو يسير باتجاه الحانة، فليس أحب إليه من رؤية أصدقائه الذين «يتقاسمون مائدة يأس واحدة»، كما أحبوا التعليق على

تسمية لقاءاتهم هناك. وبينما كان يتخيل لقاء الليلة، وكأنه عاشق يذهب للقاء حبيبته، سمع صوتاً لم يكن غريباً عليه، فالتفت إلى مصدر الصوت، ورأى الرجلين اللذين رآهما في مدينة الطب، يلوحان له بجرائد اليوم التالي، وهما يصيحان:

«هروب ثلاثة مرضى خطرين من مستشفى الأمراض العصبية؟»

اشترى منهما بعض الصحف المحلية. وسألهما ما إذا كانا توقفا عن الذهاب للعمل في مدينة الطب، فسلماه الصحف، وهما يضحكان.

«أنت قصاص ممتاز، يا أستاذنا، كل مرة تخترع لنا قصة جديدة، غداً سترجع وتسألنا عن آلة النسيان ؟».

تذكر، أنهما وكلّما مرَّ بهما في مثل هذه الساعة، يلوحان له بالجرائد، ويناديان بالنداء ذاته، ويستنكران تهمة أنهما يعملان في مدينة الطب، وفي بعض الأحيان، لا يكتفيان بجملتهما تلك، إنما يعلقان أيضاً:

«يبدو أنك تكتب رواية جديدة».

كان كثيراً ما يضحك، ويوضح لهما، بأنه لم يفكر في حياته بكتابة قصة أو رواية، لكنه يعرف صديقاً له، يخترع القصص، ويطمح أن يتحول إلى روائي كبير، يتحدث عنه العالم، لكنه ولسوء حظه، يعرف بأن صدى قصصه لا يتعدى حدود بوابة الحانة السرية، التي أطلق عليها أيضاً: حانة المدينة. وعندما يسأله الصبيان، عن النهاية التي فكر صديقه فيها لهما، يجيبهما، أن عليهما أن ينتظرا، أو أن يذهبا بالفعل للعمل في مدينة الطب. يأخذ الصحف منهما، ويدخل مطعماً صغيراً عند زاوية الشارع، اعتاد الصحفيون الأجانب الجلوس فيه. جلس في الزاوية التي اعتاد اللجوء إليها، وطلب من صاحب المطعم أن يأتي إليه بنصف نفر من الكباب، والسلطة. وبينما كان ينتظر مجيء الأكل، راح يقلب

الجرائد بسرعة، ولم يثر انتباهه لا العناوين التي حملتها الصحف ولا الصور التي تصدرت الصفحات الأولى، حتى عندما جلب له صاحب المطعم صحون الأكل، وقال له متسائلاً.

«هل ألقوا القبض عليهم؟»

سأله من يعني، دون أن يرفع رأسه، علق الرجل:

«الهاربون من مستشفى المجانين المجاور، يقولون عنهم، إنهم كلش خطرين».

اكتفى بهز رأسه، وظل محافظاً على وضعه، بل دون أن يسمع جيداً جواب صاحب المطعم، وبدا غير معني لا بمن يعنيه صاحب المطعم ولا بما حملته الصحف بالفعل من عناوين بارزة. كانت عيناه تبحثان عن شيء واحد فقط، ولم يشغلها الأكل عنه: صفحة الأخبار المحلية. هكذا فرش على الطاولة صفحة الأخبار من كل جريدة، ليبحث بدقة، بينما راح يلوك لقمة الخبز الملفوفة بالكباب. وهناك عند زاوية كل صفحة، بالضبط تحت وجد الخبر، مكتوباً بحروف صغيرة، باستثناء جريدة «الفجر الجديد»، فقد طُبع بأحرف كبيرة، تصدر صفحة الأخبار المحلية: «قصة الجلاد يونس ماني الهارب من مستشفى المجانين»، إلى جانب عنوان كبير:

«حوار مع الأستاذ يوسف ماني وما يعرفه عن خفايا أخيه يونس».

قلب الجريدة من جديد وألقى نظرة على الصفحة الأولى، حيث خُط عنوان الجريدة، هنك قرأ اسمه:

صاحب الإمتياز ورئيس التحرير: يوسف ماني

طوى الصحيفة. نهض وغادر المطعم بعد أن دفع ثمن العشاء. ثم سار باتجاه الحانة. في الطريق، فكر في أن أخاه يذهب هذه المرة في اللعبة إلى مداها الخطر، وأن الخبرين هما إنذار له، قبل كل شيء.

كانت الساعة الثانية صباحاً، عندما دفع باب الحانة السرية. ذلك ما عرفه من صاحب الحانة، وهو يعلق بمرح معلناً عن دخوله: «الساعة الثانية، ساعة وصول بطلنا من جولته المألوفة». ليس صاحب الحانة فقط، إنما الرواد الباقين أيضاً. استقبلوه بود مألوف، وبعبارات يتبادلها الأصدقاء الحميمون، رغم أنهم لم ينتظروا منه جواباً. فهو ومنذ أن اهتدى لهذه الحانة، الوحيدة التي تفتح أبوابها شبه السرية، على مدى الأربع والعشرين ساعة، ما عاد يفكر في التنازل عن زيارة هذا المكان. ليس لأنه لا يعرف مكاناً آخر، يقدم المشروبات منذ إعلان الحملة الإيمانية في البلاد وإغلاق الحانات ومحلات الشرب، إنما لأنه لم يشغل باله بالبحث عن بار آخر، بل لم يفكر أصلاً في طرح السؤال. وهو في تصرفه ذلك، لم يختلف عن رواد الحانة الباقين. ففي ليلة ما، في يوم ما، في تاريخ معين، ظهروا هنا واحداً بعد الآخر، وكأنهم بزغوا من جدران الحانة، وكأنهم كانوا مرميين هناك منذ ولادتهم أصلاً، وأزيحوا من المكان بصورة مؤقتة وحسب، أو كانوا ينتظرون اللحظة المناسبة للعودة إلى أماكن طفولتهم. لم يشعر يوسف ماني في الأيام الأخيرة بمكان آمن، مثل هذا المكان، حتى في بيته. وكان كثيراً ما يقول لنفسه، هنا تنتهي الكوابيس، وتبدأ الحدود الآمنة، أو كما يقول صاحب الحانة بفخر: «هنا تبدأ منطقة الحياد الإيجابي، بينك وبين نفسك».

ما زال، يحتفظ بالشعور الآمن ذاك، وبالفرح اللذيذ، الذي أحسّ به منذ دخوله في الليلة الأولى. ويتذكر، أنها سراب التي قالت له، بأن هناك، قريباً من بيتهم «خلف ساحة المتحف، كما يبدو حانة تظل مفتوحة على مدى الأربع والعشرين ساعة»، وكان عليه أن ينتظر سنوات أخرى، ليعرف بأنها عرفت ذلك عن طريق أبيها، الذي كان زبوناً مدمناً على زيارة ذلك المكان ولسنوات طويلة، قبل أن ينتهي به الأمر إلى

مستشفى الشماعية، وكانت سراب، التي كانت تعيش وحيدة في البيت، تضطر في بعض الليالي لأن تتوجه إلى هناك، تأخذ تاكسياً، لكي تجلب أباها، الذي لو تُرِكَ الأمر له لما امتنع عن البقاء هناك ليس حتى الصباح فقط، إنما أياماً وليالي. وهو لم يعرف القصة من سراب ذاتها، إنما سمعها من صاحب الحانة، الذي تحدث عن قصة والد سراب وابنته التي كان يصحو ما إن يراها، دون أن يعرف أن يوسف على علاقة بسراب. وربما، حينها، عند سماعه القصة من صاحب الحانة، ندم، لأنه لم يسأل سراب عندما ذكرت الحانة للمرة الأولى، من أين عرفت ذلك، بل إنه لم يمنح جملتها في تلك الأيام أية أهمية. ربما فعل ذلك، وهذا ما يعتقده، بأنه لم يسألها، لأنه خاف أن يسمع، أنها دخلت الحانة ذات يوم، أو وذلك أكثر رجحاناً، لأنه شعر بأن وجود الحانة لا يعنيه، كما أنه لم يفكر أبداً في أنه سيحتاج يوماً إلى هذا النوع من الأماكن.

في ذلك الوقت، كان مجرد تذكر هذا النوع من الحانات يثير عنده الامتعاض، والذكريات السيئة. كان يذكره بتلك الليالي التي كان يجلس فيها في حانة حقيرة، عند الباب الشرقي، يقتل فيها الوقت، لكي يعود للبيت متأخراً، فلربما تكون مريم، زوجة أخيه، نامت. ولاحقاً، عندما غادر البيت، وتنقل من مدينة إلى مدينة، نسي أمر الحانات، وأصبحت بالنسبة إليه مثل ذكرى قديمة، بعد أن بدأت النوادي تدخل قاموسه. ففي كل المدن التي ذهب إليها تقريباً، كان هناك نادٍ لفئة معينة من الموظفين. وكان عادة يواظب على زيارة نوادي الموظفين. لكن على العموم، من غير المهم، إن كان يدخل الحانات، أم النوادي، كان هناك دائماً طريق واحد يسير عليه كل ليلة. لم يكن في حياته مثل أولئك الأشخاص الذين يستبدلون الحانات، ليس كل يوم، بل كل ليلة. وظل أميناً للحانة التي يزورها، أكثر من أمانته لنفسه. بل ظل أميناً حتى للمائدة التي اعتاد الجلوس إليها. ولكن ليس كما كان يفعل عند جلوسه

في الحانة القديمة أو في النوادي المهنية لاحقاً، إنما هذه المرة، كل شيء يقول له، بأن الأمر يختلف. فهناك كان يمضي لياليه وحيداً، يُقطّع الليل بالعرق والألم. ليس لأنه لم يكن هناك أحد يريد التقرب منه، على العكس، كانوا ودودين معه، لكنهم كلما حاولوا الحديث معه، كان ينأى عنهم أكثر. كان هو الذي يسعى إلى وضع تلك المسافة بينه وبين الآخرين، حريصاً على المحافظة على سرية وضعه. أما هنا، في الحانة السرية: حانة المدينة، شعر منذ البداية بقوة تجذبه للآخرين، وكأنه اكتشف شيئاً مشتركاً بينه وبينهم. القصص، هي التي تجمعه مع هؤلاء. إنهم ماهرون جميعاً برواية القصص، ولم يسأل أحدهم الآخر عن مصدر القصة التي يرويها، وعمّا إذا جرت بالفعل أم أنها مخترعة. كلا، إنهم حكواتية بارعون، لا يتعبون من الحكي، والخمرة تزيد الوجد عندهم. وحتى عندما يعيدون رواية القصة ذاتها، كل ليلة، فإنهم سيروونها بوجد وبشكل مختلف، وكأنها قصة جديدة. وهو المكان الوحيد الذي لا يحتاج فيه أن يروي قصة. كل واحد منهم بارع باختراع قصة له وللآخرين.

جلس إلى إحدى الموائد، وفكر أن يجلس لبعض الوقت وحده، ثم ينضم إليهم. وضع آلة التسجيل أولاً على المائدة، ثم أخرج الصحف المطوية في جيبه، ليرميها إلى جانب آلة المسجل.

«كما جرت العادة».

سمع صاحب الحانة يخاطبه، وهو يضع ربعاً من العرق وصحناً من الباقلاء. ابتسم، وأشار برأسه، بنعم، وهو يعرف مزاح صاحب الحانة، وهو لا يقصد كمية العرق التي يشربها كل ليلة مع صحن المزة، إنما يقصد أيضاً، جلوسه وحيداً في البداية، قبل انتقاله إلى مائدة أخرى، أو قبل انتقال الآخرين إلى مائدته، والذي نادراً ما يحدث، لأنهم عندما ينشغلون برواية القصص أو بالحديث، ينسون أنفسهم والعالم المحيط

بهم. وليس من النادر أن يظل جالساً في مكانه، يتأملهم، بينما يسمع قصصهم، فها هو صاحب الحانة، يتحدث، عن البارات العلنية: «على طول شوارع عديدة في مختلف مناطق المدينة، في ساحة الميدان والكرادة، وشارع الربيعي والصناعة، صف من صناديق الفلّين البيضاء، تجاورها ألواح الثلج، مملوءة بأنواع المشروبات الروحية، وصبية وشيوخ كهول يشربون بحرية. رأيت ذلك بالأمس بعيني. تخيلوا، يمكننا تغيير شعار المرحلة، من الحملة الإيمانية إلى الحملة الخمرية. البلاد كلها في حالة نشوة وسكر. لكن طبعاً، ليس هناك خمر ألذ وأطيب من خمرة هذه الحانة، لأن كل قطرة من هذه الخمرة تُذَكر شاربها بالأيام العصيبة السوداء، وبكل ما التهمته الرياح. ألست على حق عندما أطلقت عليها: حانة المدينة؟».

وقبل أن يسمع صوت الآخرين، وخاصة صوت العقيد وصاحبه الجندي صاحب آلة النسيان، اللذين كان يلتقي بهما أينما ذهب، يأتيه مثل صوت جوقة، يلقيان عليه التحية من مكانهما، ولا يجيب، رأى هذه المرة معهم رجلاً يتطلع به، يجلس لصقهم، ولكن بشكل شبه خفي، وكأنه يريد أن يخبئ وجهه، أو كأنهما حاولا أن يحجباه عن طريق جلستهما بعناية. لكن يوسف استطاع أن يتبين طرفاً من وجهه. فكر مع نفسه، وهو يعمر الكأس الأول، أليس هو جوزيف كرملي أو جوزيف ك أو كما أراد أن يكون: هارون والي؟ ولكن لماذا يخبئ وجهه؟ إذن ربما يكون، طبيب مستشفى الشماعية، الذي تحدث معه ذات مرة، عندما زار العم عاصم، ولكنه ما عاد يتذكر ملامحه بالضبط، يتذكر فقط بعض جمله، عندما صرح له ذات مرة، أنه سيشفي العم عاصم، مثلما شفى بقية مرضاه: عن طريق رواية القصص لهم، قصصهم بالذات، حتى وإن اضطر إلى انتحال شخصية عزيزة عليهم، صديق غائب عنهم، صديق يحبّونه ويصغون إليه، وإذا رفضوا أو

هربوا، فإنه سيلحق بهم، يلاحقهم أينما ذهبوا، ويرجعهم إلى أنفسهم بهذه الطريقة. وعندما سأله، لماذا يعتقد أن الآخرين سيصغون إليه، خاصة وأن المجانين أو كما يُقال مرضى الأعصاب، حالات ميؤوس منها في هذه البلاد، بلاد المنتصرين والمسحوقين، كما حدث للعم عاصم، الذي رفض حتى موته هناك سماع أية قصة، أجابه، بجملة ظلت عالقة في ذهنه حتى هذه اللحظة، لحظة دخول الحانة: «نحن حيوات تروي بعضها»، ومن لا يعتقد بذلك، إن لم يجنّ، فإنه سيموت مبكراً.

رأى الرجل يلوح له من مكانه، وكأنه يقول له، إنه هنا، «يا إلهي، أين رأيت هذا الرجل»، تساءل يوسف مع نفسه، وهو يراه هذه المرة يتطلع به، يبتسم له، وكأنه يقول له هو الآخر: «هل نعرف بعضنا من قبل؟»، ثم يدفع جذعه إلى الخلف، لكي يسنده إلى الكرسي، فتصعب رؤيته.

دفع يوسف الكأس إلى فمه، وراح يتمعن جيداً بالرجل لكي يتأكد من ظنونه. لبس الرجل نظارات سميكة، جلس بشكل مائل، وسط حلقة رواد الحانة الذين صفوا كراسيهم حول مائدته على شكل دائرة. كان من الصعب له أن يتبين ملامحه بشكل كامل، لكن القليل الذي يراه من الرجل: الجزء الجانبي من وجهه، نظاراته السميكة، طريقته برفع القدح إلى فمه، وتدخينه للسيجارة، ثم صوته الذي خرج بشكل هادئ، مجبراً المحيطين به أن يصغوا إليه، كل ذلك يشير إلى أن الرجل لا يدخل الحانة للمرة الأولى، وأنهما يعرفان بعضهما من قبل.

بدأ الرجل حديثه بصوت عال، وكأنه تعمّد أن يصل صوته إلى مسامعه، ليوضح لهم بأنه يزورهم للمرة الأولى، لكن ذلك لم يمنعه من القول بأن لديه شعوراً شبه أكيد، بأنه سبق وأن زار هذه الحانة، وإنه يعرفهم واحداً واحداً، وخاصة العقيد وصاحبه الجندي، وأنه يشجعهما

على حماسهما باختراع تلك الآلة الخاصة بالنسيان، فهي بالتأكيد ستلعب دوراً لاحقاً، لكن حاسماً في مستقبل البلاد. هذا الثناء جعل العقيد والجندي، يعبران عن امتنانهما بصوت عال. وقبل أن يذهب في ظنونه بعيداً، سمع الراوي، يخاطب الجالسين، قائلاً، إن هذا المكان، في الحقيقة، هو المكان الذي يبحث عنه منذ سنوات طويلة، وإنه نادم جداً، كيف لم يخطر على باله أن يأتي إلى هنا، وكيف أنه أضاع كل هذه السنوات الجميلة من حياته، حابساً نفسه في البيت، يقاتل الوحدة والخراب، عزاؤه الوحيد تصديق القصص ذاتها التي يخترعها لنفسه، وإنه لم يشأ أن يصدق يوماً، بأن هناك بالفعل في هذه البلاد، بلاد المنتصرين والمنتحرين واليائسين، بدائل لحبس المرء لنفسه في البيت. ثم أضاف الرجل، أنه عرف لاحقاً - وسيأتي على هذا الموضوع -، أنه ليس الوحيد الذي كان يعيش هذا الوضع، إنما هناك الكثيرون مثله في هذه البلاد. وهو عندما يقص لهم ما جرى له، عليهم ألا يأخذوا الأمر بحذافيره، ويعتقدون بأن كل تلك الأشياء جرت له شخصياً، ومن يفعل ذلك لن يفهم القصة التي يرويها، على المرء التعلم من السينما. هل تزورون السينما كثيراً؟

رآهم يوسف يهزون رؤوسهم للراوي بالإيجاب. ثم رأى الرجل يدفع جرعة من كأسه، ويواصل الكلام، لماذا أسألكم، أردف الرجل، منذ سنوات طويلة وليس هناك ما يستحق رؤيته من الأفلام، ليس عندنا فقط، لكن تلك هي المشكلة الوحيدة، التي لا تخصنا وحدنا فقط، لكنها طبعاً، مثل كل المشاكل الأخرى، الموجودة في بقية العالم، تأخذ عندنا بعداً تدميرياً أكثر. ولكن ربما بما يتعلق بالسينما، عزاؤنا الوحيد أنها تشتغل على الصور، وكما تعرفون من الصعب أن تمّحي الصور. نحن نفكر جميعنا في الصور. كل شيء يزول، الصور فقط هي الباقية. ومن تعوزه الصور عليه أن يسرق الصور من الآخرين، أن يصغي لهم

بشكل جيد، أن يلغي نفسه، ويبدأ بتشكيل الصورة لنفسه. على المرء لكي يعيش ويفهم ما يجري، أن ينظر إلى تجارب الآخرين، طريقتهم بالعيش، نظرتهم للعالم، وليجعلها خاصة به بعد ذلك. كما فعل هو ذاته من قبل، وكما يفعل في هذه اللحظات، فمن الخطأ الظن بأنه يتحدث عن نفسه، فهو في الحقيقة، يروي لهم قصة شخص يعرفه، منذ سنوات طويلة، شخصٍ منحه هو ذاته في البداية اسمه، قبل أن يمنحه أسماء عديدة أخرى، ظناً منه أنه بهذا الشكل سينجح في إنقاذه من الجنون والموت، لكنه للأسف لم ينجح في مسعاه، فقد فقده منذ زمن طويل. ولكن قبل أن يبدأ برواية قصة صديقه، يحذرهم مرة أخرى من الاعتقاد بأنه يتحدث عن نفسه، لأن صديقه هو الآخر حكواتي ماهر، لا يكذب فقط، إنما يخترع القصص ويحولها إلى روايات. وسيكون مضطراً أن يمنحه لقب المنتحل عند الحديث عنه، رغم أن صديقه الذي لم يترك شيئاً في حياته ولم ينتحله، يمكن أن يُلحق به أي لقب، باستثناء هذا اللقب. فلا أحد يدري ما إذا كانت الروايات التي ينقلها للآخرين منتحلة بالفعل، أم أنه يقول ذلك لكي يزيدنا تشويقاً لسماع أكاذيبه. لأن مشكلته ومنذ أن كان طفلاً، أنه يريد تقليد الكبار، أن يحل محلهم، وأتذكر جملته المشهورة، عندما اعتقلوه ذات مرة، بسبب كتابة القصص الجنسية للجنود مقلداً صديقاً له، اسمه «هارون والي» سألوه عن سبب كتابته هذا النوع من القصص الكاذبة الضارة، لماذا يعرّض نفسه للمخاطرة، ويكتب القصص؟ فأجاب، بأنه لم يفكر في هذا السؤال من قبل، وأنه بدأ بالكتابة، مثلما بدأ بالتدخين، هكذا هو الأمر ببساطة، قال لنفسه، إذا كان صديقه يكتب، فلماذا لا أقلده وأكتب أنا أيضاً، خاصة وأنه اكتشف أنه عن طريق تلك القصص كان يجعل رفاقه الجنود سعداء، ينسون ولو لوقت قصير ما يحيط بهم من وحدة وخراب وقذارة. لا ضير أن تكون تلك القصص «القذرة» منتحلة من حكايات

الجنود أنفسهم. ولاحقاً، لم ينقطع عن التفكير في ذلك الشعور. كان مصراً على الاعتقاد، بأن ليس هناك شيء أصلي، الابن يسير على خطى أبيه، والبنت على خطى أمها. كل شيء مركب من الانتحال. والجميع يعرف ذلك، ويشعر بنشوة أنه يعرف ذلك. كل البشرية تسير بهذا الاتجاه. الآباء والأمهات يصنعون الأبناء والبنات، والكتّاب يكتبون الرواية تلو الرواية، والفنانون يرسمون اللوحات، والعشاق يسرقون قصص الحب من بعضهم. الجميع يفعل كل ما في وسعه، لكي يقلده الآخرون. ويفرحه أن يعرف أن هناك من يقلده. هكذا راح الكتّاب الكبار يولدون كتّاباً كباراً، الشيء نفسه حدث في الفن. ففي كل انتحال تكمن لمسة خاصة بنا، تجعله يرتبط بنا، نحن الذين يُعتقد أننا انتحلناه. تلك الحكمة تعلّمها، والحق يُقال، من صديق له، ينتحل صور المشاهير ويبيعها بأسعار عالية، اسمه جوزيف كرملي، لكنه أطلق على نفسه اسم «جوزيف ك»، تيمّناً باسم شخص تعيس آخر، عاش في مدينة براغ وتعرف عليه صدفة في إحدى الروايات التي أدمن على قراءتها. ولكن المنتحل، صديقنا، يملك وراءه قصة. فلكي يصل المرء إلى هذه الحكمة الحزينة، التي تقول: كل شيء منتحل، يجب أن تكون عنده أسبابه المقنعة. ولكن قبل أن أبدأ يجب أن أحذر بعضكم. فمن يعتقد أنني سأروي قصة ستنتهي إلى نهاية سعيدة، عليه أن يغادر الحانة منذ الآن، لأنني سأروي قصة صديقنا كما حدثت بالفعل، وليس كما اعتقد هو أنها جرت له. لأننا - وهو لا يختلف عن الباقين - كما تعرفون، نولد، ونُرمى في الحياة، دون قرار منا، وننجز يومياً أفعالاً مختلفة، تتحول إلى روتين يومي، ولا يخطر على بالنا، أننا بهذا الشكل نحول حتى الأشياء اليومية الجميلة، إلى أمر مألوف. نواصل أفعالنا، وكأننا في «نزهة عبر أماكن مألوفة»، كما أراد تسمية روايته التي يقول إنه يكتبها، نزهة يومية لا نرى فيها شيئاً يختلف اليوم عن البارحة. نعتقد أننا

نستيقظ، كما نفعل يومياً، حركاتنا لا تختلف بشيء عن الليلة الماضية، وأن يومنا سيكون مثل اليوم الفائت. وإذا تطلعنا في المرآة، فسنلاحظ بأننا، نحن، والتبدلات هي مجرد تعديلات بسيطة، نجريها، على خصلة الشعر مثلاً، أو تبديل لون الشعر، لكي يعرف كل الناس، كل من حولنا، بأننا نحن. في الحقيقة إذا جردنا صديقنا من اسمه، سواء أطلقنا عليه يوسف أو جوزيف، يونس أو هارون، اسمه الأصلي أو المُخترع، الحقيقي أو المنتحل، القديم أو الجديد، فإننا سنجد شخصاً لا يختلف كثيراً عن باقي البشر الذين ما يزالون على قيد الحياة، بما يتعلق بهذا الموضوع، سواء ظل مقيماً في هذا البلد أم غادر إلى خارجه ولم يعد؛ سواء عاش حراً طليقاً، أم سجيناً مثل بقية شركائه بالمواطنة والسجون؛ سواء تمتع بصحة جيدة وعقل صافي أم مريضاً مثله مثل ملايين سكان هذه البلاد المرضى بالأعصاب، خاصة وأنتم تعرفون أن الجنون نافس البواسير وأصبح المرض الأكثر شعبية في بلادنا؛ سواء ظل على قيد الحياة ام مات بسيارة مفخخة أو بطلقات عائلية أو صديقة؛ سواء كان قاتلاً أم قتيلاً، جلاداً أم ضحية، فإنه يظل هو هو، ذاته، مختوم بالماركة المحلية، تصنيع هذه البلاد: بلاد المنتصرين والمسحوقين أبداً . وفيما يتعلق بصديقنا، فإذا سأله أحدكم عن نفسه، فسيجيبه وببساطة، ليس هناك ما هو مثير في حياتي، أنا رجل في أواسط الأربعين من عمري. وُلدت في هذه البلاد، مثل أي مواطن آخر، أنهيت دراستي بشكل عادي، وأديت الخدمة العسكرية، عشت حروباً نسيت عددها، وليس من الضروري معرفة عددها بدقة، وما هي فائدة ذلك إذا كانت لم ولن تتوقف، متزوج منذ سنوات طويلة، فمتى أحصينا عدد سنوات زواجنا في هذه البلاد، والآن نعيش حياة ليس من الخطأ القول إنها حياة عائلية سعيدة، ليس لأننا بقينا على قيد الحياة جميعاً، إنما لأننا وبعد كل ما جرى لنا، وللمحيط الذي نحن فيه، عثرنا على بعضنا

البعض. ببساطة: نحن عائلة عراقية سعيدة. ولا ينسى أن يقول إنه لم يقترف أي إثم في حياته. رغم أنه لا يجافي الحق، فمن يجرؤ أن يضع نفسه في مكان الله!

لكن ما لا يقوله صديقنا، رجل الآلام، في شريط التسجيل، الذي يتركه يدور طوال الليل والنهار، والذي اعتمدت عليه في رواية هذه الحكاية، والذي تركه لي لأرويه بعد أن أسمعه، ليس لأنه لا يجرؤ على رواية قصته بنفسه، لكي لا يشعر بإثم، إنما كما قال لي وأكد في كل قصة رواها، من الصعب على أحد أن يروي قصته بغير حيادية، ومن الأفضل أن يضع أحدنا نفسه في مكان شخص آخر، حتى لا ينحاز إلى نفسه. ويضيف، يحتاج الإنسان إلى قليل من الكره والكثير من الحب لنفسه ، لكي يروي ما حصل له، ولمحيطه بخط مستقيم. رغم أن ما أقوم به الآن ليس تعبيراً عن كرهي له، على العكس، إنما لأنني عن طريق كتابة هذه القصة التي سأمنحها العنوان الذي يعجبني: «صورة يوسف»، أو «سورة يوسف»، إذا أراد أحدكم اللعب بالعنوان قليلاً، وستعرفون أسبابي وتفهمونها، فأنا أقدم له عربون صداقة. الصداقة هي أن يروي كل واحد منا قصة الآخر. حتى إذا ظن هو العكس. على أية حال، ليقل ما يريد أن يقوله، فالأمر لن يؤثر على القصة التي أرويها عنه، ولا على طريقة قصها، فأنا عزمت ومنذ سنوات على رواية قصته، منذ أن قادوه إلى مستشفى الأمراض العصبية مكبل اليدين، ورموه وقالوا: الحذر من كذبه، من خطر جنونه. وزاد فضولي أكثر وتعاطفي مع قصته، بعد أن دلّني على الحانة التي فضلها على كل الحانات، بل ومنذ أن جلست معه في تلك الحانة السرية: حانة المدينة، كما أطلق عليها صاحب الحانة، ورأيته مخموراً، صوته متهدج، وعيناه نصف مغمضتين. ربما استحوذ عليه النوم، خاصة وأنه ما عاد يميز بين الليل والنهار، بين الماضي والمستقبل. أتذكر الآن، أن الحاضر فقط، كان

موجوداً في كل جملة يقولها. وفي كل حركة يحاول القيام بها. يعرف أن عليه، لكي يتخلص من كل هذا التعب والخدر اللذين هجما عليه، أن يتحرر من كل هذا العبء، الذي راح يفيض في تلك الحانة، حيث جلسنا، أمام مائدة قذرة، اصطفت عليها كؤوس العرق الزحلاوي وصحون المازة، وغطست في دخان السكارى، وصراخ الأصوات التي تحاول عبثاً إخراج ألحان أغان، تقترب من العويل، الهادئ والصاخب أحياناً، مثل عويله الخارج على شكل كلمات وصور، لم يسمعها أحد غيري من قبل، كلمات أحولها لكم، قصصاً أرويها عنه، مثلما فعل أثناء رواياتها، عندما ظل يلح على استخدام ضمير الشخص الثالث، الغائب، «الهو»، وكأنها حدثت لشخص آخر غيره.

رأى يوسف الرجل يأخذ جرعة أخرى من كأسه، بينما كان يشعل السيجارة من السيجارة أثناء حديثه الطويل. فكر، إنها استراتيجية الرواة، الكأس والسيجارة، لأنهم يعتقدون أنهم بتوقفهم المؤقت في هذا الشكل، يستحضرون صوراً جديدة، دون أن يعرفوا، أنها تلك اللحظات فقط، هي لحظات النسيان، أنهم يسلمون أنفسهم للنسيان لا غير، لأنهم في تلك اللحظة لا يفكرون إلا في طعم الكأس والسيجارة. وهذا ما ظنه الراوي بالتأكيد، فهو لم يشأ منح الانطباع بأنه نسي القصة التي يريد أن يرويها، هذا إذا كانت عنده قصة أصلاً، من غير المهم أن تكون حقيقية أو منتحلة؟ ولكن من الجانب الآخر، فكر مع نفسه، أنها بالفعل لعبة غريبة بين من يروي وبين من يستمع للقصة، فهم أيضاً لا يجدون غضاضة في التوقف لحظة عن سماع القصة، الطرفان يبدوان متوثبين، يتربصان لبعض، يتسابقان في لعب دور الوحش وفريسته، كل واحد منهما يظن بأنه هو المهاجم، والآخر في وضع الدفاع. والطرفان يفعلان ذلك بلذة. فمن ينظر إلى الجميع، لن يشك في متعة الرجل الذي يشعر بالانتصار على جمهوره وهو يروي حكايته، وجمهوره الذي أعجبه أن

يمنحه الرجل كل هذه الأهمية، ويروي لهم قصة صديقه، القصة التي بالتأكيد مثلها مثل كل القصص التي تدور في هذه البلاد، ستتحدث عن الخراب والوحدة، عن الحب المفقود والهجران والألم وليس عن الحب الذي يعثر عليه المرء، والسعادة والأمل. نعم، يستطيع التكهن بنهايتها منذ الآن، والتي لن تكون نهاية سعيدة بالتأكيد، ليس لأن كل شيء في ملامح الراوي يشير إلى ذلك، طريقته في ارتشاف كأس العرق، وكيف يدخن السيجارة ونفث دخانها بحسرة عميقة، نظارته الطبية السميكة، ارتعاش صوته، ليس كل ذلك فقط يشير إلى الكارثة التي ستنتهي إليها القصة، إنما لأن الراوي حذر جمهوره منذ البداية، ألا يخطئوا ويظنوا بأنها قصته، وهو لا يأتي بجديد، فتلك طريقة سبقه إليها معظم الروائيين من قبله، وهو مثلهم، يريد أن يخلط الأوراق بهذه الطريقة، لكي لا يعرف الآخرون نواياه وأهدافه من رواية القصة. لكن وعلى الرغم من اعتقاده بوقاحة الروائي، وبأنه لو كان عنده ذرة من الخجل، لما تجرّأ على رواية قصة صديقه أمام الآخرين، الغرباء، فإنه اكتشف أنه هو الآخر، كان مشدوداً لسماع ما يرويه الراوي، دون أن يشغل أذنيه بسماع صوت آخر غير صوته، ودون أن تغيب عيناه لحظة واحدة عن النظر باتجاه المائدة الأخرى. مثله مثل بقية المستمعين، يشعر بلذة شربه العرق بالتوازي مع سماع القصة.

بدأ الروائي بوصف شخصية صديقه المُنتَحِل، بأنه ومنذ طفولته بدا مختلفاً عن أقرانه من الصغار. وكان يبدي ميلاً خاصاً لقراءة القصص، رغم أنه ومع الوقت، استغنى عن الكتب، بعد أن تحول ذاته إلى قصّاص ماهر. وربما ساعدته موهبته وهو طفل على اختراع القصص. من الصعب التكهن ما إذا كان الكذب هو شرط مهم لكتابة القصة. ولكنه كان ينجح دائماً في جذب الأطفال إليه، ويقنعهم بكل القصص التي اعتاد اختراعها. والمدهش في الأمر، أنه في أغلب الأحيان، يكرر

القصة ذاتها، ولكن بطريقة أخرى، ذكية، دون أن يلاحظ ذلك أحد. ربما لأن الأطفال يملكون قدرة على النسيان، أكبر من القدرة على التذكر. كانت براعته تكمن في التفاصيل الصغيرة التي يبرع في وصفها. وعندما كان يتحدث عن الهدايا التي يجلبها لها أبوه من سفراته المتكررة إلى مدن أخرى، كان يسهب بوصفها، رغم أن أباه في الحقيقة لم يغادر مدينتهم يوماً، ولم يجلب له أية هدية على الإطلاق، إلا أنها بالتأكيد رغبته في سفر أبيه ، وشوقه للحصول على هدايا، هما اللذان كانا يجبرانه على الحديث عن سفرات أبيه المتعددة وعن تلك الهدايا التي كان يود الحصول عليها. ولم يكن معنياً أبداً، بما إذا كان وصفه للأشياء يتطابق بالفعل مع الأشياء كما هي في الواقع، وكأنه طور حساً خاصاً بتشكيل الأشياء على هواه، أو وذلك هو الأشد إثارة للاهتمام، امتلك موهبة التنبؤ بما ستكون عليه الأشياء في المستقبل. فمثلاً روى لزملائه الأطفال ذات مرة، بأن أباه اشترى له دراجة كبيرة، وعندما سألوه، أين هي؟ أجابهم بأنه يحتفظ بها في دولاب الملابس، وعندما سألوه، كيف يمكن وضع دراجة في دولاب الملابس؟ أجابهم، بأنها إحدى تلك الدراجات الثمينة النادرة، ذات التقنية العالية، التي يمكن تصغيرها بلمّ أجزائها إلى بعضها. بعد ثلاثين سنة من تلك القصة، صُنعت بالفعل دراجات من هذا النوع. في مناسبة أخرى، قال للأطفال، سأقول لكم سراً كبيراً، إننا توأمان، وإنكم تلتقون كل يوم بشخص مختلف. وعندما قال له الأطفال، إنه يكذب، وإن عنده أخاً واحداً يكبره بسنوات، قال لهم، سيذهب وينادي أخيه. يذهب بالفعل، يستبدل ملابسه، ويغير تسريحة شعره، وحركات يديه، ويأتي للأطفال، ويقول لهم، أخي أرسلني إليكم، لماذا لا تصدقون أننا توأمان؟ ومع نموه، نمت القصص وتطورت، حتى أصبحت لحمه وعصب حياته، لدرجة أن الأمر التبس لاحقاً، بالنسبة إليه وبالنسبة للآخرين، عندما لم يعد من السهولة التمييز

بين ما هو واقعي وما هو خيالي، بين ما هو حقيقي وما هو مُخترع. فمن يبني حياته على أساس الحكايات منذ البداية، من الصعب عليه، القبول لاحقاً بما يدور حوله، في الحياة الواقعية. هكذا لم يعرف المنتحل، أن إصراره على البقاء في عالمه المخترع ذاك، جعل علاقته بأهله تنتهي للقطيعة، وجعله يفقد الأصدقاء واحداً بعد الآخر، أصدقاء تعبوا من محاولاتهم معه بمساعدته العثور على نفسه من جديد، ثم وتلك هي القمة، فإن العيش بالخديعة، سيقوده لأن يستيقظ ذات صباح ولا يجد زوجته في البيت. كان من الممكن أن تسامحه زوجته، على خيانته لها، عندما راح ينام مع زوجة أخيه، لكنها لم تستطع تحمّل تلك القصة التي جعلها تبريراً لخيانته، تلك القصة التي كان يرويها دائماً عن بنت أحبها في طفولته وفقدها مبكراً بسبب أخيه، وأنها كانت تحمل الاسم ذاته الذي حملته زوجته.

كانت البنت في الحادية عشرة من عمرها، وكان هو الآخر بمثل هذه السن. وكانت معه في المدرسة. كانا في الصف الخامس الابتدائي، وكانت هي الأخرى مثله تحب قراءة القصص. وكان أبوها مدرساً للغة الإنكليزية، وكان يحصل عن طريق صديق له، يعمل في إحدى السفارات الأجنبية، السفارة البريطانية، على المجلات المصورة. وكثيراً ما كان الصغيران يجلسان عند شجرة النبق الكبيرة، على طرف ساحة المدرسة، يقلبان المجلات، ويضحكان. ولا ينسى المنتحل تلك الأيام أبداً، رغم أنها لم تكن أياماً طويلة. خمسة أسابيع وثلاثة أيام فقط. لكنها كانت كافية لجعله يتذكر تلك البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء.

خمسة أسابيع وثلاثة أيام فقط، قبل أن تموت البنت في إحدى السفرات المدرسية، بسبب أكلها كعكة صغيرة حُشيت بالمسامير، في ظروف أضاف عليها صديقنا المنتحل غموضاً أكثر. ربما لميله المبكر

للقصص التراجيدية. إذ ظل يعتقد بأن أخاه ومعه عصبة الصغار هم السبب في موت البنت الصغيرة. من الصعب معرفة الحقيقة، لأن أخاه الأكبر ما يزال يدَّعي العكس، يقول، بأنه ومعه عصابة الصغار حاولوا إنقاذ البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء من الكلب الشرس الذي كان يملكه أحد الجيران، والذي انقضَّ عليها وعضَّها. هكذا حشوا مسامير في كعكة أرادوا تقديمها للكلب. وأن صديقنا المنتحل أخذ الكعكة سهواً، ظناً منه أنها قطعة الكعك التي لفتها أمه له في اليوم نفسه، وللأسف عندما عرف بذلك وصل مع بقية الصغار متأخراً.

على أية حال، سواء صدقت إحدى القصتين أو كلاهما معاً، فإن صديقنا المنتحل ظل منذ ذلك اليوم يشعر بالذنب لموت البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء. ولم يتوقف كل هذه السنوات، عن تذكرها وكتابة اسمها في كل مكان. وعندما التقى بزوجته وعرف اسمها، فكر في أنه ها هو يتعرف على فتاة أحلامه، صحيح أن شكلها لا يتطابق تماماً مع شكل البنت الصغيرة، لا لون عينيها ولا لون شعرها، ولا طريقتها بالمشي، وغيرها من الأشياء الخاصة التي يحلم بها كل شخص، إلا أنه كان يملك شعوراً، بأن ليس الاسم فقط له علاقة بالبنت، إنما هناك شيء ما في زوجته، يذكره بها. وأن البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، لو حدث وأن عادت للحياة، ستبارك له هذا الزواج.

لم يحدثها في البداية عن قصة البنت الصغيرة. وكان يمكن أن يمر كل شيء على ما يرام، وأن تستمر حياتهما السعيدة، لأنهما كانا سعيدين لدرجة أثارت الحسد عند أقرب الناس إليهم. كان الأزواج عندما يرونهم، يقولون لأنفسهم، هكذا يجب أن تكون الحياة الزوجية. كان المنتحل وزوجته يشعران بنظرات الآخرين لهما، وكثيراً ما أبدت الزوجة

مخاوفها من المستقبل، وصارحته بأنها تخاف الآخرين. ولأنها تعي ذلك، فإنها ستبذل كل ما في وسعها لكي تحافظ على علاقتهما. هو الآخر وعدها بذلك، واعترف لها، بأنه لا يمكنه أن يفكر في امرأة غيرها، مهما حدث. هكذا جرت الأمور، حتى اندلاع الحرب والتحاق صاحبنا بوحدته العسكرية.

«في الجيش؟»، ذلك هو تعليق المنتحل، على كل من يسأله أين قضيت كل هذه الفترة من السنوات. رغم أنه لم يظل في وحدته العسكرية مدة طويلة. كان يلتحق ويهرب، ويزوّر هوية جديدة، ولم يصعب عليه ذلك، لأنه ومنذ طفولته، اعتاد لعبة انتحال الهويات والأسماء مع أخيه وابن خالته. كان يمتزج فيما يفعله الثلاثة الجد مع اللعب. هكذا وصل الأمر بصاحبنا ذات مرة أن ينتحل شخصية صديق له، مزور هويات، كان قُتل في السجن إثر وشاية من الأخ الأكبر لبطلنا المنتحل، المقصود صديقه الرسام، الذي ذكرناه قبل قليل، جوزيف كرملي أو جوزيف ك، ويذهب مع بحار برتغالي يعرفه، على متن إحدى السفن، قبل أن تحدث حادثة غامضة في الخليج، ويُتهم بالقتل من جديد، وكأن قدره إثبات براءته دائماً، ويتم تسليمه إلى السلطات المحلية هنا، ليخرج بعد حين وبأعجوبة، ثم يلتحق من جديد بالجيش ويهرب. ويزوّر الأوراق من جديد. ولكن عندما غاب فترة طويلة وعاد، سألته زوجته، أين كنت طوال هذه الفترة، أجابها «في الجيش». ذات مرة قرر صاحبنا أن يظل في الجيش فعلاً. ووعد زوجته بالكتابة الدائمة لها. كانت تلك الفترة التي نُقل فيها إلى المديرية العسكرية للعناية بالجثث. مئات الجثث كانت تصل يومياً إلى هناك. جثث المدنيين وجثث العسكريين، جثث الشيوخ والأطفال. جثث مشوهة، وجثث هي مجرد سائل في كيس نايلون، جثث تحمل اسم الجثة فقط، جثث لا تحمل أسماء، كانوا يضطرون إلى تزويدها ببعض الأسماء. كانت

الحرب، ولا تسألوني أية حرب منها، فحروب هذه البلاد لا تُحصى ولا تنحصر في تاريخ معين. ولأنها الحرب، كان عليه أن يظل أحياناً هناك يعمل أياماً طويلة، لا يحصل على الإجازة أبداً. وكانت أيامه تزدحم بالجثث، لدرجة أنه لم يستطع الوفاء بوعده بكتابة أية رسالة لزوجته، التي لم تعرف هي الأخرى، ماذا حدث له، وأين كانت تخدم وحدته بالضبط، وما هو العمل الذي كان يقوم به. لحين استلامها أول رسالة منه، يخبرها، عن عمله، وعن الجثث التي تحيط به. في تلك الرسالة، عرفت للمرة الأولى بأمر البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، لأنه عندما كتب لها أنه رأى طفلة مقتولة، وهو على يقين أنها البنت ذاتها، البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، التي اعتقد أنها ماتت وهي طفلة. وكانت تلك أيضاً، البداية لسلسلة رسائل لاحقة، يحدّث فيها زوجته، كيف أنها تذكره بتلك البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، ولا يستطيع هذه المرة إخفاء الأمر عليها، كما فعل كل هذه السنوات، وأن البنت الصغيرة هذه حملت الاسم ذاته الذي تحمله زوجته: سراب. ذلك ما يفسر طبعاً، تلك الجملة التي قالها لها، عندما تعرف بها للمرة الأولى في حديقة السنتر البريطاني، «منذ طفولتي وأنا أفكر فيك: سراب». وعندما سألته لاحقاً، بعد تسريحه أو هروبه من الجيش، لماذا لم يرو لها هذه القصة من قبل، ومن هي هذه البنت الصغيرة؟ حينها قرر صاحبنا المنتحل أن يقص على زوجته القصة. ولكن على طريقته طبعاً. من يثبت أن القصة التي رواها، لم تكن قصة منتحلة هي الأخرى!

أباح لها بأنه يشعر بالتعب، بأنه متعب جداً، لكنه رغم ذلك سيحكي لها كل شيء. كانا يستلقيان في الفراش، وكانت هي وضعت رأسه على صدرها. حدثها عن قصة البنت الصغيرة ذات العينين

الخضراوين والجدائل الشقراء والفانية الزرقاء، سراب، وكيف أنه لم يروِ لها القصة سابقاً، ليس لأنه أراد إخفاءها عليها، إنما لأنه منذ اليوم الذي رآها فيه في حديقة السنتر البريطاني، بدأ يفكر فيها وحدها، نسي القصة بالفعل، وكان يريد أن يعتقد أن البنت الصغيرة تلك لم تمت، إنما هي أنت وقد كبرت. لكن قبل مدة قصيرة، قبل شهر تقريباً، حملوا إلى عنبر الجثث، جثة فتاة صغيرة، قيل إنها على عكس أهلها، لم تمت تحت القصف إنما ماتت مذبوحة بشظايا قنبلة سقطت عليها وحدها، قنبلة انفلقت مثل المسامير، انغرست في كل مسامات جسدها وسمرته بالأرض. كل شيء في البنت ذكّره بتلك البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء: الطريقة التي ماتت بها، شعرها الطويل، عيناها، لون جلدها. حتى اسمها، لقد عرف أن اسمها «سراب». «تصوري» قال لها، «اسمها سراب على اسم تلك البنت»، قال لزوجته، «وكأن قدر كل من تحمل هذا الاسم أن تموت بهذه الطريقة التعسة»، ثم بكى على صدرها، لأنه عرف بأنه سيفقدها. راحت هي تمسد شعره، وتمسح دموعه، فسألته، لماذا يبكي، فأجابها، لأنه يشعر بأنه خان هذه البنت، مثلما خانها. ثم سألته وماذا بعد، فأجابها، ما كان عليَّ أن أخون هذه البنت، أن أخونك، ومع من؟ مع زوجة أخي. وعندما طلبت منه أن يروي القصة بالتفصيل، شعر بتعب أكثر، بجفنيه ثقيلين، فبكى بين ذراعيها. تلك الليلة ظل يقظاً، يتقلب في فراشه، يعذبه شعور بالذنب، أنه سيسبب موتاً جديداً، هذه المرة لزوجته.

في اليوم التالي، استيقظ صديقنا، قبل أن تستيقظ زوجته، استيقظ في ساعة مبكرة، قبل شروق الشمس، حزم حقيبته الصغيرة التي حفظ فيها كل ذكرياته التي تدل عليه، وغادر البيت. لم يترك خلفه ورقة أو رسالة وداع. لم يكن في ذهنه عنوان ما أو مكان محدد. فقط السير إلى الأمام وترك البيت خلفه. كان يمكن أن يذهب إلى أي مكان، باستثناء

بيت أهله، أولاً لأنه يعرف أنهم سيلقون عليه القبض ما إن يصل إلى هناك، ثانياً لأنه أراد أن ينتهي من الماضي الذي ارتبط مع ذلك البيت إلى الأبد. هكذا راح يدور ويدور، عبر شوارع مهجورة، وأماكن غريبة، وكأنه يقوم بنزهة عادية، نزهة عبر أماكن مألوفة، يصنع «صورة يوسف»، مثلما شئت له، أو «سورة يوسف»، كما تشاءون أنتم، يتنقل من مدينة إلى أخرى، كل مرة يمارس وظيفة جديدة وباسم منتحل جديد، وكانوا يلقون عليه القبض بين فترة وأخرى، وكأن هناك من يعرف من هو ويشي به طوال الوقت، يُسجن ويخرج، ثم يُسجن ويخرج من جديد، وعندما حدث ما حدث للبلاد وللناس، عندما أطبق الطاعون والخراب على البلاد، وانهدّت فيها ممالك واندثرت قصور، ودخلتها جيوش من كل بقاع العالم، وفُتحت أبواب السجون والمستشفيات وخرج حتى الموتى من قبورهم، وجد صديقنا المنتحل نفسه من جديد في الشارع، يسير وحده، تعباً، رأسه فارغ، يدور ويدور، ليجد قدميه تقودانه إلى البيت نفسه الذي غادره قبل سنوات، دخله، كما لو أنه غاب عنه ساعات قليلة. وكان كل شيء يوحي، من باب البيت الذي وجده مفتوحاً، ولم يحتج إلا لدفعه قليلاً لكي يدخل، وانتهاءً بنظافة المكان، وترتيب غرفة النوم، كأن أحداً عرف أنه سيعود، فأعد المكان سلفاً لكي يقيم فيه. كان تعباً، وعلى فراش الزوجية نام بعمق، للمرة الأولى بعد سنوات من البحث والترحال، لديه شعور بأنه لم يغادر بيته يوماً، وكأنه أقام هناك كل هذه السنوات. عندما استيقظ في صباح اليوم التالي، بحثت يده عن زوجته، التي كان على يقين أنها نامت طوال الليل إلى جانبه، لم يجدها هناك. نهض، غسل وجهه، وصنع لنفسه كوباً من الشاي. انتظرها حتى وقت الظهر. أدرك أن شيئاً ما حدث، وأنها خرجت هذه المرة دون أن تترك له ورقة أو رسالة وداع. فقرر أن يذهب في البحث عنها. خرج من البيت، وما إن قطع

مسافة قصيرة حتى زاوية الشارع، حتى سمع الناس تتحدث عن جثة امرأة شابة عُثر عليها في مكان قريب، إلى جانب حطام واحدة من عشرات السيارات المفخخة التي تنفجر في هذه الأيام. كانت المرأة مسجاة هناك، ميتة، انغرست المسامير في كل مسامات جسدها وسمّرته بالأرض. قال لنفسه: إنها هي، لا محالة، قدرها أن تموت بهذه الطريقة التعسة. كل شيء يشير إلى أنها زوجته، من وصف الناس لها، حتى طريقة تمددها على الشارع. هكذا راح يذهب يومياً إلى مستشفى مدينة الطب، لكي يسأل عن زوجته، ولكنه ما إن يصل إلى هناك، يسأل عن جثة أخيه، ربما خوفاً من أن تتأكد ظنونه، ويراها، يرى زوجته والمسامير مغروزة فيها من قمة رأسها حتى قدميها. وكان يعذبه الشعور بالإثم من جديد، وكأن عليه دائماً، أن يبعد عنه الشعور بالذنب، بأنه وحده وليس غيره كان المسؤول عما حدث. فيجلس هناك، في المستشفى، بصحبة رجلين، أحدهما عقيد جيش سابق، مصاب في رأسه، ومعه مرافقه، جندي، يعتقد أنه اخترع آلة تساعد البشر على النسيان، فيعزي نفسه قليلاً، قبل أن يكتشف لاحقاً، أن لا عزاء يشفيه من الألم الذي يستحوذ عليه، حتى وإن ازدحم العالم بملايين من آلات النسيان، وأن زوجته حتى وإن كانت على قيد الحياة، من الصعب عليها أن تعود إليه من جديد، لأنها سارت على طريق آخر. لكنه وتلك هي مصيبته، لا يقدر أن ينساها، مثلما لا يقدر أن ينسى تلك البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء. فهي هناك حاضرة في كل مكان.

كان يشعر دائماً، بأن كل شيء يذكّره بها، له علاقة بها، يشبهها، له إيقاع يشبه إيقاعها، ويحمل رنيناً مثل موسيقى صوتها، كل شيء يحمل اسمها، أينما ذهب، ومهما اختار الوجهة التي قادته خطواته إليها. راح يسير في الشوارع مثل من فقد عقله، يهذي ويحذر مَن يمر

به: «حان وقت قيام الساعة، وعلى القاتل تسديد ديونه»، يردد بالضبط تلك الجملة التي سمعها من أحدهم عبر التلفون. وإذا ما حان الليل فإنه يخرج في الشوارع ينادي اسمها، وتضاعف الهوس عنده والالتباس، حتى ألقوا القبض عليه وأودعوه مستشفى الشماعية، بعد أن خرج ذات يوم من صالة إحدى السينمات واضعاً على وجهه قناعاً ونظارة احتفظ بهما منذ الطفولة، ليلحق بامرأة عبرت الشارع صدفة، ليدخل خلفها إلى أحد البيوت، يمسك بها ويطرحها على الفراش.

جلبوه إلى المستشفى، وقالوا لي إنه مريض بحاجة إلى العناية. عندما تفحّصته، بعد ذلك، فكرت فيما إذا كان بالفعل مريضاً كما يدّعون؟ كان كل شيء فيه لافتاً للنظر، يختلف عن بقية المرضى. كان نحيلاً، حلق شاربيه على عكس ما يفعل الآخرون عادة، أقرب للقصر منه إلى الطول، ويبدو محدباً جداً في جلسته، وخاصة عندما يقترب من الآخر أثناء الحديث، أو عندما يرفع كأسه في ليالي شربنا السرية في الحانة السرية: حانة المدينة، التي أخذني إليها ذات ليلة. وطوال كل ذلك الوقت حافظ على أناقة متميزة، بدت للآخرين غريبة. مثلاً، حرص على لبس معطف مطري، كان يفتخر بشرائه من أسواق اللنكّة، يذكره بشخصيات الأفلام القديمة، أفلام الأسود والأبيض، التي ظل يعشقها. ومثل شخصيات تلك الأفلام، كان يرفع دائماً نصف ياقته والنصف الآخر يظل على وضعه. كان هناك دائماً ما يميزه، ما يحمل المرء على تمييزه عن الآخرين. وجهه الشاحب يوحي للوهلة الأولى بأن في ملامحه ما يشير للمعاناة، لمعاناة خاصة تضفي عليه طابعاً مميزاً، بل حتى طريقته الحذرة بالأكل، المتقشفة، على عكس الطريقة النهمة للمرضى الآخرين، كان متقشفاً في التدخين أيضاً، أما نظاراته الطبية ذات العدستين السميكتين فكان يصر على نزعها. نعم، كان كل شيء فيه مميزاً، حتى نظراته المتفحصة للآخرين بين الحين والآخر، جعلته

شخصاً مميزاً. وكثيراً ما تساءلت مع نفسي، كلما تفحصت وجهه بدقة، عمّا إذا هما، خمود الهمة والغم الفاتر، اللذان يخفيان حقيقة مظهره الذي من الصعب استشفاف أي ملمح مميز منه، ناهيك عن معرفة، بأنه شخص آخر، غير ما كان مفترض له. كل ذلك جعلني أعتقد أن وراء الرجل قصة، الأمر الذي حملني على التقرب إليه، والسعي للحديث معه. وما لفت نظري أكثر في تلك الأيام أنه كان أكثر ميلاً للصمت، لكنه مغلف بالفضول: يصغي أكثر مما يتحدث. كان يجب أن يمر بعض الوقت لكي يبدأ بالحديث. لكن في كل تلك القصص التي رواها، اختلط الوهم مع الحقيقة، الواقع مع الخيال، ومن سمعه يتحدث بتلك الطريقة لم يشك لحظة أنه مريض بالفعل، خاصة وأنه كان يخترع القصص بلذة. وكثيراً ما تساءلت مع نفسي، ما إذا كان يتصرف بهذه الطريقة، لأنه طور استراتيجية خاصة به لمواجهة العالم. ولكن لماذا يتصرف معي أنا أيضاً بهذه الطريقة؟ وكلما أبديت له بعضاً من الشك في القصص التي واظب على روايتها، قال لي، «إحك لي إذن، أنت القصة»، وعندما أسأله أية قصة يعني، وأيها يريد؟ يعلق بصوت لا يخلو من السخرية، «أية قصة، من غير المهم!».

ثم يقول لي، إنك تُذكرني بصديق لي، خدم معي في الجيش، روائي فرّ بجلده إلى خارج البلاد وتركنا هنا مع قدرنا، هارون والي، لماذا لا تنتحل شخصيته، وتفعل، كما لو كنت أنت هو هنا، لتجرب أن تأخذ اسمه، ولا تقلق من ناحيته، فأنا على يقين أنه سيوافق على ذلك، خذ اسمه، ليس هناك أكثر تناسباً من اسمه مع شخصك، حاول أن تكون منذ اليوم، صديقي الرواي، هارون والي. لم أرفض عرضه، ولم أجد فيه ما يضرّ بصداقتنا. هكذا رحت أروي القصة وراء القصة، وكأنني أنا الراوي الذي أراده، هارون والي، وهو يصغي وإذا ما سكتّ يطلب مني وبإلحاح: «إحك لي أية قصة، من غير المهم أية قصة».

تلك كانت طريقته، لكي يحصن نفسه في صمته من جديد، أمامي أنا الذي كنت أعتقد أنني سأشفيه عن طريق رواية القصص، حتى وإن رويت له قصصه هو نفسه؛ أحياناً أنسى أنني أكرر له ذات القصة، ولكن بشكل آخر. وما ساعدني على أن أنسى، أنني سبق وأن رويت القصة، وأنني أكررها بشكل آخر، لا غير، هو ابتعاده عني في بعض الأحيان.

وكما كان يحصل في الجيش، عندما واظب على الهرب من الثكنات، راح صديقنا المنتحل يهرب من مستشفى المجانين أكثر من مرة. وفي كل مرة يلقون فيها القبض عليه، يعود ويهرب من جديد. وفي المرة الأخيرة وعندما عمّت الفوضى كل البلاد، وتحولت جميعها إلى شارع مكتظ بالسيارات المفخخة، والقنابل المليئة بالمسامير، لم يعد هربه يعني أحداً، ربما باستثناء أخيه الذي انتحل اسمه، ليفتخر بماضٍ لا يعود إليه. رغم أن صاحبنا لم يغادر البيت في هذه المرة، كما فعل في المرات السابقة. نعم، قرر البقاء هناك، بانتظار عودة زوجته؛ ولكي تعرف ما حدث له في كل هذه السنوات ومنذ أن افترقا عن بعض، راح صاحبنا يسجل كل ما فكّر فيه وحدث في محيطه على آلة تسجيل، بل حتى في الليل يترك آلة التسجيل تعمل، تسجل أصوات الليل، لكي تعرف زوجته، عندما تأتي، بأن حتى البيت كان يتنفس باسمها، ليل نهار. وراح يستيقظ قبل ساعات الفجر، في منتصف الليل، لا يريد البقاء نائماً حتى الصباح، وكأنه بهذه الطريقة، يريد أن ينسى الصباح الذي غادر فيه البيت. ومساءً، أو ليلاً قبل النوم، كان يفكر فيها، فقط فيها، ولا يفكر في شخص أو في أمر آخر، يحاول إعادة تشكيلها، رسم ملامحها، وكأنه يستغل غيابها، لإعادة خلقها. كان ينام قليلاً، فقط من أجل أن يراها في الحلم. فيشعر أنه لم يفقدها، كما كان يتصور، إنما فقد نفسه ذاته. فهي ما زالت تنام هناك، إلى جانبه، وعليه ألا يزعجها، أن يتركها تنام، ومن الأفضل له أن يخرج للبحث عن نفسه.

هكذا راح صاحبنا يقوم بجولات عبر أماكن مهجورة، تبدأ في عمق الليل. لا شيء حقيقي غير جولاته تلك التي تنتهي في ساعات الصباح الأولى. يدور ويدور طوال اليوم، لعله يلتقي بالشخص الثاني غريمه، وعندما يتعب من البحث نهاراً، يعود في ساعات العصر للبيت، ينام ساعات قليلة، ويستيقظ في ساعة متأخرة من الليل، وفي الأيام الأخيرة بدأ غريمه، يزوره في ساعات الليل المتأخرة، يقول له: حان وقت قيام الساعة، وعلى القاتل تسديد ديونه. فيستيقظ ببطء وهدوء، لأنه يعتقد بأنه فقط بهذا الشكل لن يوقظ زوجته، التي يعتقد بأنها تنام إلى جانبه، ثم يخرج يحمل آلة التسجيل معه، التي أودع فيها أسراره، والتي كان يتركها عادة بينما ينام، على الطاولة في صالون البيت، ليلجأ إلى الحانة التي حدثته زوجته عنها ذات مرة، وكيف أنها واظبت على جلب أبيها من هناك ليالي عديدة. يسير مثل شخص منوّم، لا يعرف أن الطبيب المسؤول عن علاجه، لا يتركه لحظة يغيب عن عينيه، الطبيب الذي أصبح مثل صديق له، منذ أن قال له، سأحمل اسم صديقك الروائي: هارون والي، وإذا لا يكفي ذلك بالنسبة إليك، سأكون صديق أيام شبابك، أيام المغامرة، صديقك مزور الهويات، الذي سُجن بوشاية من أخيك، ثم قُتل هناك: جوزيف كرملي أو جوزيف ك، بل سأكون بالنسبة لك، كل الأصدقاء الذين افتقدتهم، أي شخص تشاء، ما دمنا نثق ببعض؛ سأشفيك، عن طريق رواية القصص، سأروي قصتك، وكأنها حدثت لغيرك، وسأحميك ولن أتركك تُقتل، ما دامت هناك قصص لم تُروَ بعد. لن تلاحظ أنت ذلك، سأتبعك أينما ذهبت، سأكون دائماً حيث تكون، ولا تستغرب أن أكون أنا أناك التي تبحث عنها، وعندما تجدني، ستعثر على نفسك، على «صورة يوسف»، ستعود إليها وتعود إليك، ولن تكون بعدها بحاجة إلى حقيبتك القديمة التي تحملها معك مثل بيت. لكن صديقنا المنتحل يسير مثل النائم، لا

يلاحظ أن صديقه يتبعه، بل لا يتعرف حتى في ملاحقيه، على زميليه، اللذين دخلا المستشفى معه، العقيد المصاب في رأسه، ومرافقه الجندي الذي يصر على اختراع آلة تساعد على النسيان، يلاحقانه أيضاً أينما ذهب. وما إن يجلس في الحانة، حتى يبدأ يشرب ويشرب ويشرب حتى يسكر. يمكن أن يبقى على هذه الحال ساعات طويلة، حتى ينسى نفسه، ولا يعود يعرف من هو، وكأنه يعيش تكملة الحلم الذي حلم به: هل هو الشخص الذي حلم قبل قليل وخرج يبحث عن الشخص الثاني، أم هو الشخص الثاني الذي يجلس هنا، ويزور الآخر في أحلامه؟ هل هو شخصية منتحلة أصلاً، شخصية منتحلة من الكتب مثلاً، أم هو شخصية تعيش بالفعل؟

الآن وقد قاربت قصتنا على نهايتها، وبعد تغير الأحوال والناس والبلاد، وبعد رواية القصة تلو الأخرى، شعر صاحبنا بالشجاعة على اتخاذ القرار بضرورة تغيير حياته أيضاً، فقرّر ألا يعبأ بالخطر الذي يشكله أخوه الأكبر، أخوه الذي لا يعرف في حياته غير الصعود الوظيفي والمجد، أخوه الجلاد الشهير، الذي سمى كل واحدة من بناته على صيحة استغاثة يطلقها سجين تحت التعذيب: رفقة، رحمة، شفقة، رأفة. أخوه الذي لا يريد أن يعرف أحد ماضيه، فاستحوذ على ماضي شخص آخر. نعم، قرّر ألا يعبأ بخطورة أخيه، ورجاله الذين ينفذون أوامره بالقتل وبإزاحة كل من يقف في طريقه، وليكن ما يكون، عليه أن يغامر هذه المرة، صحيح أنه لم يربح شيئاً في حياته، إلا أنه أيضاً لم يخسر كل شيء حتى الآن، وعليه أن يخرج مهما كلف الثمن، من البيت، أن يذهب من جديد إلى دائرة الطب العدلي لكي يتأكد من ظنونه، فربما تكون القتيلة امرأة أخرى، وأن زوجته ما تزال على قيد الحياة، تنتظره منذ سنوات، فهي لا يمكن أن تتوقف عن حبه أبداً. ربما لن يهزمه أخوه هذه المرة.

عندما انتهى الراوي من حكاية قصة صديقه، رفع رأسه باتجاهه. ابتسم له ورفع كأسه باتجاهه، وهتف:

«بصحة صديقنا الأمير العاشق».

فصاح الحاضرون:

«صحة»

فكر في أن الراوي تصرف وكأنه يروي قصته. من أين يعرف ما يفكر فيه؟ إنه بالفعل لم يشأ يوماً العودة للبيت، عندما تكون سراب ما زالت يقظة، أو نامت للتو. إنها بالتأكيد الآن ساعة نومها العميق، ساعة راحتها، تبدأ في هذا الوقت، ولا يريد أن يذهب للبيت إذا لم تكن نامت بشكل عميق، لكي لا تستيقظ عند فتح الباب أو إشعال النور. طبعاً بإمكانه أن يلمسها، وأن يوقظها برقة، ويقول لها، لم يتغير شيء، وهو يشعر بذلك دائماً، لم يتغير شيء، لكنه يخاف ألا تصدقه، وتعتقد أن كل ما يرويه ذكريات مجترة، تنتمي إلى قصصه المتكررة. طبعاً يستطيع أن يؤكد لها، أنهما سيظلان سوية هذه المرة، لن يفصلهما شيء، لكنه لا يستطيع تحمّل رؤيتها حزينة، مستلقية على ظهرها بلا حراك، عيناها الفارغتان تنظران إلى السقف أو إلى الحائط أو إلى يديها. لا يستطيع تحمّل دموعها التي تبحث عن عزاء، وهي تتحدث معه.

«أنت تبدو حزيناً جداً».

سمع صوت الراوي، وفي الوقت نفسه رآه يجلس إلى الطاولة، قبالته. كان يحمل ملامح وجه طبيب، قال يوسف لنفسه. رفع الرجل كأسه نحوه، أخذ جرعة، وأكمل:

«عرفت فوراً، وما إن رأيتك، بأنك كنت حزيناً، وفي الحقيقة حزيناً بصورة غير عادية، تفوق حزن سكان هذه البلاد كلها. بسبب سراب على ما أعتقد. لكن أيهن؟».

أراد أن يسأله، ماذا يقصد بذلك، ففي النهاية، هناك سراب واحدة:

«لننس الموضوع، ودعنا نشرب حتى الثمالة».

طلب منه ذلك، وشرب جرعة كبيرة.

«كانت رائعة دائماً، رقيقة، طيبة، ما زالت تحمل روح تلك الطفلة الجميلة، التي تجعل المرء يشك في أنه سيحل المشكلة قبل أن يموت. رغم أننا في النهاية نموت جميعاً».

فعلق:

«إلا هي. لن تموت. حتى وإن تَمُتْ فليس نتيجة انفجار سيارة مفخخة، أو بسبب مسامير غبية . لقد ألحقت بها الإساءة أضراراً أكبر من الموت»

«لكن كل شيء يشير إلى أنك حزين جداً، وأنك تود الحديث عن ذلك. هل لهذا السبب تحمل آلة التسجيل معك دائماً، لتسجل مجرى يومك، وتسجل أفكارك أيضاً، كل ما يتعلق بها طبعاً».

نظر إليه، ثم أشاح بصره بعيداً، وراح يتحدث، وكأنه يخاطب شخصاً بعيداً:

«أنت الوحيد الذي يختلف عن الآخرين، والذي يفهم ما أعانيه، عكس الآخرين، الذين لم يوقفوا حسدهم كل هذه المدة. آه لو يعرف أحد هؤلاء الحيوانات، العذابات التي كان عليّ تحمّلها، المصاعب التي كان عليّ التغلب عليها، ثم يقولون عنّي في النهاية إنني مجنون. »

فقال له الراوي:

«أنا هنا من أجلك، أنت تعرف ذلك. جئت أبحث عنك، أطوف مثل حاج، إلى الحانة، حانة المدينة، ليس لأنني قرأت الخبر في الصحيفة الرسمية».

عندما سمع تلك الجملة أدار رأسه نحوه، وكأنه فوجئ بهذا السؤال. وظل يتطلع بالراوي، مشدوهاً بعض الشيء، كأنه يريد أن يعرف ما إذا كان صادقاً في كلامه بالفعل.

فصاح به، وكأنه صحا للتو:

«لكنني، لست أنا. ألا تفهم. أحاول بالفعل أن أكون يوسف. تلك هي المعضلة، لقد هرب يوسف مني».

ثم صمت ليقول بنبرة خافتة مليئة باليأس:

«أشكرك على محاولتك مساعدتي. سامحني، نسيت بأنك قلت ذلك في حكايتك قبل قليل».

وبعد فترة صمت قصيرة، سسمع الراوي يسأله:

«لماذا لا تريد التحدث معي، كما كنا نفعل أيام زمان؟ إنك حتى لا تضحك لما أقوله. ألا تريد أن تعرف الحقيقة وتستريح؟»

تطلع بالراوي مرة أخرى، وهو يبذل هذه المرة جهداً أكبر، للتعرف عليه. لكنه ورغم أنه لم يشأ الإستسلام بسهولة، هزَّ رأسه بالنفي.

«لم تعد هناك حقيقة ولم تعد هناك أيام زمان. اختفى الاثنان معاً، ونحن حيوات تهرب من الماضي، من مطارديها. واليوم لم يتحول الجلادون إلى ضحايا وحسب، إنما يريدون من ضحاياهم أن يثبتوا براءتهم».

فعلق الراوي:

«ذلك ما يحاول زميلاك اللذان هربا معك أن يقولاه، لا أحد يصدق أنهما سيخترعان آلة تساعد على النسيان؟ ألا تراهما كيف يجلسان هادئين في الحانة؟»

فأجاب، وهو يشير باتجاه الاثنين اللذين ظلا جالسين عند المائدة التي جلس عندها الرواي قبل دقائق:

«هذان الحملان اللذان يطاردانني طوال الوقت، انظر إليهما: إنهما بانتظار أن يتحولا إلى ذئبين!»

رفع الراوي كأسه، ليشرب جرعة أخرى، وقال له مازحاً:

«لا تقلق، منذ اليوم لن يطاردك أحد غيري. أنا من يروي القصة».

«لكنك ما زلت لا تعرف القصة بكل تفاصيلها»

فعلق الراوي:

«لكنني أعرفك، وليس من الضروري في هذه القصة. أن نكون عرفنا بعضنا. المهم هو أن تُروى القصة بشكل جيد، وما نحن ساعين إليه».

امتدت يده للمرة الأولى إلى كأس العرق الذي ظل طوال هذا الوقت، على المائدة، لم يلمسه. رفعه صوب الراوي، ثم دفعه إلى فمه، ليشرب حتى القطرة الأخيرة. وقال:

«سمعتك تروي القصة، لكن هناك الكثير من التعديلات التي يجب أن تُجرى على قصة صديقك الذي رويت قصته. فهو مثلاً ذهب طوعاً إلى مستشفى الشماعية، لكي يظل قريباً من والد زوجته، أنت تعرفه، إنه أحد رواد هذه الحانة، وهو مثله مثل معلم الإنكليزية الأستاذ الذي فقد ابنته الوحيدة، سراب، البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء. سراب هي أيضاً البنت الوحيدة للعم عاصم. رغم أن هذه التفاصيل الصغيرة لا تلعب دوراً حاسماً، مثلما لعبت أمور أخرى في مجرى القصة. المهم هو رواية قصة الأخوين».

فقال له الراوي:

«أو رواية الجنون بكل أنواعه. على أية حال أترك لك قصة البنات

الوحيدات، لكي ترويها أنت، ربما في مناسبة أخرى. لا تنس البنت الصغيرة التي تركتها مريم».

فتطلع به بنظرات متسائلة، وكأنه لا يعرف ما يقصد.

«أعتقد أنك تعرف ماذا أعني، انسَ الموضوع إلى حين».

صمتا قليلاً، وفجأة قال يوسف، بينما كان منشغلاً بتعمير الكأس الثاني:

«إنه أمر غريب بالفعل. هل تعرف أن لدي شعوراً بأنني سمعت حديثنا من قبل، ليس في ما يتعلق بالبنت الصغيرة فقط. لدي شعور، بأننا نكمل جلسة انقطعت للأسف، منذ أن غادر البلاد صديقنا الراوي، هارون والي، قبل سنوات تبدو مثل قرون بعيدة الآن، ما عدت أتذكر».

فسمع الراوي يقول له:

«غالباً ما يحدث لك هذا، ليس منذ دخولك المستشفى، فالعالم كله عبارة عن مستشفى، أن تشعر بأن ما يحدث سبق وأن حدث لك، وأن ما يدور من حديث سبق وأن دار بيننا. لذلك......»

فقاطعه يوسف، وكأنه انزعج من سماع كلمة مسستشفى، وضرب بيده على آلة التسجيل:

«ستجد هذا الحديث الذي يدور بيننا وما سنقوله من كلام لاحق مسجلاً هنا. وكأنه كان معلقاً في الهواء، ينتظر فقط شخصاً يلتقطه».

شرب الراوي من كأسه، ثم علق:

«فهمت إذن، لماذا تترك آلة التسجيل تدور طوال الليل».

«ها نحن بدأنا نفهم بعضنا».

شرب جرعة أخرى، وتناول ملعقة من صحن الباقلاء هذه المرة وأكمل:

«ليكن ما يكون، يقولون بأنني مجنون، ولكنني يجب أن أروي لك بعض الأمور لكي ننتهي من القصة».

وبينما كان منشغلاً بالضغط على زر التسجيل، تساءل:

«كثيراً ما تساءلت، كيف تستطيع التمييز بين الأخوين، بيننا نحن الاثنين؟»

فأجاب الراوي، وقد أتى على ما تبقّى في كأسه من عرق:

«هل نسيت أنني أنا الذي اخترع هوياتكما».

فأجاب:

« أعرف».

ثم أضاف بسرعة، متسائلاً، وكأنه يريد أن يقطع على الراوي أي تعليق أو سؤال:

«أنت تقول بأن صديقك كان بارعاً في رواية القصص، صاحب تكنيك خاص، لكنك تتهمه بالانتحال».

فأجاب الراوي:

«لأنه كان يأخذ حكاياته من كل مكان. وغالباً ما كانت القصص التي يرويها بلا نهايات، وإن حوت على نهايات، فإنها تظل مفتوحة تجبرني على البقاء يقظاً وقتاً طويلاً، أفكر فيها، وكأنها تطلب مني حكماً. فبشكل ما، كانت نهايات القصص تتطلب دائماً تكملة إضافية من طرفي. ربما كان ذلك بسبب حرصه على عدم كشف حقيقة ما جرى له، أو ما كان يسعى إليه، أو ربما لأن سعيه للتكتم على ما كان يُنتظر منه أن يمارسه، هو ما جعله يلجأ إلى هذا الشكل من القصّ. وحتى إذا قيل إن قصصه غير حقيقية، فهي أكثر من حقيقية، لأنها تساعدنا على معرفة الحقيقة».

«إنه بارع إذن بالكذب».

حدّق الراوي به طويلاً، وقال له:

«أو ربما هو معني بمغزى القصة فقط! من يدري».

ربما كان ذلك تكتيكاً منه هو الآخر، لأنه رأى في نظراته ما يشبه الاتهام، فقال يوسف: «أنت الآخر تبدو حكواتياً مثل صديقي هارون والي، تلجأ للتكتيك، لكي تتجنب كل ما يُطلق عليه بالكذب».

«ربما أنت على حق. لكن هناك قصة حدثت بالفعل، لم أروِها للآخرين».

قال الراوي تلك الجملة، بينما أخذ يتطلع إليه، وكأنه يدرس ردود أفعاله:

«ذات يوم روى لي قصة عن أخيه، دون أن يكون هناك ما كان يستدعي أصلاً أن يروي قصة عن أخيه، فأنا لم أسأله، مثلما لم أسأل أحداً من قبله، كان يلجأ لي من أجل تزوير أوراقه. أتذكر أيضاً أنه لم يلفظ حتى اسمه في تلك الأيام، وكان عندما يتحدث عنه، يقول «أخي الأكبر». هكذا، قال، عندي أخ يكبرني، عجيب أمره، فمنذ صغرنا، وهو يفعل المستحيل لكي يحصل على كل شيء. ومن أجل معرفة أخي، يكفي الحديث عن رئيس البلدية في الفيلم الكارتوني الجميل (ذكرني بأحد أفلام الكارتون التي كانت تعرضها القناة الثانية في التلفزيون المحلي). قال: ذات يوم خرج رئيس البلدية يتنزه مع أحد حكماء القرية، وكان يجده جافاً في مشاعره مع الناس، فطلب منه أن يغير نفسه، حينها قال له: لماذا لا تصبح كثير العطاء لمن حولك، أنظر للقمر مثلاً، نوره لكل الناس، وليس لك وحدك، فلماذا لا تكون مثل القمر؟! لم يعجب الكلام طبعاً رئيس البلدية، حينها صعد لغرفة نومه، خرج من البلكونة، ونظر إلى القمر، وقال لا. . .مستحيل، القمر ليس لكل الناس، القمر لي أنا وحدي. أخذ الكرسي الذي كان يجلس عليه، ووضع فوقه كرسي آخر، حتى يستطيع أن يصل إلى القمر، ليكون له

وحده، لكنه سقط في حديقة المنزل. في اليوم التالي، طلب من كل الناس في القرية، أن يأتوا بكل كراسيهم، ليضعوها فوق بعضها البعض، ويصعد هو إلى القمر، وليكون هو أول شخص يلمس القمر بيده، وحينها لن يكون القمر للجميع، إنما سيكون القمر له وحده. أتذكر أنه ضحك حينها، وقال لي، «عليك أنت تكملة القصة». تلك هي جملته المحببة التي اعتاد أن يختم بها قصصه. لكني أتذكر أيضاً، أن ضحكته تحمل الكثير من الأسى، الخيبة الخفية. لم يتغير كثيراً طوال فترة تعارفنا. فكلما حكى قصة، أو تحدث عن شخص، ربط كلامه بقصص أحد الأفلام، أو بقصة شعبية قديمة نعرفها. كانت قصصاً كثيرة تلك التي حكاها لي، مثلما كانت قصصاً كثيرة تلك التي أكملتها أنا في رأسي، رغم أن قصصي هي الأخرى ظلت بحاجة إلى شخص ثالث يكملها. وكأن ليس الذي يحكي فقط يحتاج إلى شخص آخر، إنما من يقرأ أو يسمع أيضاً. هل أنا الآخر أحتاج إلى شخص آخر أيضاً؟ هل استبدلت الدور معه، وأنا الذي جاء بمحض إرادته إلى هنا، هذه الحانة، لكي نجعلها حانة الحكايات؟»

لبرهة صمت الراوي، ثم أضاف، عندما رآه ما يزال يتطلع به، وكأنه يطالبه بالمزيد:

«أتذكر أنه روى لي ذات مرة قصة، من أكثر القصص التي ظلت عالقة في ذهني. حدثني في الأول كيف أن قضية الأسماء تشغله، وأنه منذ زمن طويل، منذ طفولته بالأحرى، بدأ يشغل ذهنه بهذه المسألة، لدرجة أنه لا يظن أن هناك أشخاصاً حقيقيين من لحم ودم، بقدر ما هناك أسماء تدل عليهم، وأن الأسماء هي الحقيقية فقط، لا الشخصيات التي تحملها، وأنها تتنقل من شخص لآخر في الهواء، مثل بذور اللقاح التي تطير مع الرياح. في النهاية كل شيء يعدي مثل الأسماء. وإلا ما كانت تلك القضية علقت بذهنه منذ وقت مبكر. منذ أن صعد للمرة

الأولى في حياته للمسرح، عندما كان ما يزال تلميذاً في الصف الخامس الابتدائي.

في ذلك الوقت جاء إلى المدرسة معلم أنيق، له شاربان يشبهان شاربي كلارك غيبيل، وتسريحة شعر تشبه تسريحة شعر غريغوري بيك، يتذكر اسمه الأول فقط؛ سلام. وكان المعلم الأنيق هذا، الذي كان أصلاً معلماً لمادة الرياضيات، قبل أن يقوم بإخراج المسرحية السنوية المقررة للمدرسة، اكتشف عنده ميولاً فنية وموهبة بالتمثيل، فطلب منه المشاركة. في الوقت نفسه كان هناك صبي معوق بينهم، جلبه المعلم سلام من دار المعوقين لكي يقوم بتمثيل دور المعوق في المسرحية. في الحقيقة لم يكن دوراً صعباً للصبي، إنما كان مشهداً صغيراً، لكنه مهم. كان على الصبي المعوق أن يجلس عند إحدى المصاطب، وعندما يرى أخاه غير المعوق قادماً، يحاول الهرب، فيصيح أخوه به، ويحاول اللحاق به. كان اسم الصبي الحقيقي، موسى، بينما كان عليه في المسرحية أن يحمل اسم «هارون». لم يستوعب الصبي المعوق قضية استبدال اسمه. وسأل المخرج، لماذا عليه أن يحمل اسماً آخر، فأجابه المخرج، هذا هو المسرح، ولو حصل صدفة وأن اسمه الحقيقي يتطابق مع اسم الشخصية المسرحية، لما كان هناك ضير، لكنه عليه أن يلعب دور «هارون» كما هو مكتوب في المسرحية، وأن ينسى «موسى». لم يقتنع الصبي بتوضيح المخرج، أو لنقل إنه وافق على تبريره ولكن على مضض، إذ إنه ومنذ اليوم الأول للبروفات، بدا منشغل الذهن أكثر مما كان عليه في اليوم الأول. ذات يوم طلب الحديث مع المخرج. لم يكن من السهل على الصبي الكلام، وكان عليه أن يشرح أفكاره بصعوبة، كانت عنده مشاكل في النطق أيضاً، ولكنه رغم ذلك، حاول وبكل جهده، إقناع المخرج أن يستبدل دوره، ويعطيه الدور الآخر، دور الأخ غير المعوق. في الوهلة الأولى فكر المخرج أن محاولة الصبي نوع من

نزق الأطفال، لكن فجأة خطرت على ذهنه فكرة عبقرية، وقال للصبي، لماذا لا تمثل الدورين إذن: في يوم تمثل دور المعوق وفي اليوم الثاني تلعب الدور الآخر؟ فرح الصبي. وما حدث بعد ذلك، كان شيئاً يفوق كل تصور. إذ بدا الصبي يتحرك بصورة طبيعية على المسرح، عندما يلعب دور غير المعوق، أما عندما يلعب دور المعوق فيعود إلى وضعه السابق: يرجع إلى إعاقته. وعندما انتهوا من العرض المسرحي، رجع الصبي إلى حالته الأصلية، إلى الطفل «موسى» المعوق.

في تلك الليلة، بدت لي تلك القصة الغريبة التي رواها لي، تنتمي إلى حكاياته الليلية العديدة. وعندما سألته، ما الذي جعله يروي لي هذه القصة بالذات، فقال لي، وماذا ستعلق إذا سمعت القصة التي ستبدو أكثر غرابة؟ ثم حكى لي، بأن أمراً غريباً حدث له هو الآخر في تلك الأيام، ولا يعرف ما إذا حدث ذلك بتأثير من الطفل المعوق، أم أن ما جرى كان سيحدث في كل الأحوال. إنه أمر عجيب بالفعل، فكثيراً، ما تحدث لنا بعض الأشياء، التي نظن أننا سبق وأن رأيناها، أو أن حدوثها يتكرر أمامنا. وذلك ما شعر به بالضبط، طوال فترة تدربهم على المسرحية التي أرادوا تقديمها في بداية الفصل الدراسي الثاني.

كانت المسرحية مأخوذة عن قصة قصيرة، تدور على طفل صغير في المدرسة الابتدائية، تلميذ متميز، وكان ذكياً جداً في دروسه جميعاً، ما يزال في الصف الخامس الابتدائي. وذات يوم دخل الصف للمرة الأولى معلم الإنكليزية الجديد، تصحبه ابنته الصغيرة. اسم البنت سراب. أدارت البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، عقول التلاميذ في الصف، ومن ضمنهم هو. ومنذ لحظة دخولها سرى لغط من نوع خاص وانبعثت حيوية غير عادية في الصف. لكن التلميذ الصغير، الذي شعر بحمى بسيطة تسري في الأوردة والشرايين، منذ دخول البنت الصف، كان شبه متأكد أنه هو

وليس غيره من ستلتفت إليه البنت، لأن بنتاً اسمها سراب، لا يمكن أن تلتفت إلى غيره (لم أفهم السبب المنطقي لما يعنيه في ذلك الوقت). وذلك الشعور بالذات جعل قلبه يضرب بعنف، وحرارة جسده ترتفع، وبريقه يجف. كانت تلك اللحظة، التي بدأ فيها المعلم يسأل التلاميذ عن أسمائهم وعن رغباتهم في العمل الوظيفي الذي فكروا فيه، في المستقبل حين يكبرون. وعندما وصل الدور إليه، نسي التلميذ اسمه، تلعثم، ضحك المعلم، وقال له، أي طفل غريب الأطوار أنت. لكنه في النهاية هز يده، وربما اعتقد أن الصبي نسي اسمه بالفعل، فتجاوز الموضوع، وسأله هذه المرة، ماذا يريد أن يصبح عندما يكبر؟ طياراً، طبيباً أم مهندساً؟ كما أراد زملاؤه التلاميذ؟ فأجاب الصبي بنبرة مباشرة وبنبرة حاسمة، وهو يتطلع بالبنت:

«بطل».

ضحك المعلم، وضحك الصف عليه، بينما ابتسمت البنت فقط.

بعد ذلك أراد المعلم اختبار قدرات الطلاب في مادة اللغة الإنكليزية، فقال سألفظ أهم كلمة ليس في اللغة الإنكليزية وحسب، إنما في كل لغات العالم، وهي منذ أن لفظها «الأمير البطل» الدانماركي، دخلت التاريخ (عندما لفظ المعلم «الأمير البطل»، نظر نحو الصبي)، والذي قال "To be or not to be that is the question"، حسناً، من عنده القدرة على تهجي كلمة "Question"، ثم كتابتها على السبورة، ومن ينجح في ذلك، سيُعفى من الامتحان. كانت كلمة صعبة وطويلة بالنسبة للتلاميذ، الذين كانوا في بداية تعلمهم اللغة الإنكليزية. باستثناء يوسف، لم يجرؤ تلميذ آخر على رفع يده. تطلع المعلم يميناً ويساراً ليعرف ما إذا كان هناك غيره على استعداد للتنافس معه. وعندما لم يجد أحداً غيره، ناداه. «إذن قل لنا، أيها الأمير البطل». فتهجى التلميذ الذي سيناديه التلاميذ منذ ذلك اليوم بالعاشق، الكلمة بسرعة وحماس

غريبين، ثم تقدم ليكتبها على السبورة. صفق له التلاميذ، وكان تصفيق البنت الأشدّ حماسة.

منذ ذلك اليوم، بدأ معلم اللغة الإنكليزية ينظر بعينين مختلفتين إلى التلميذ. كان معجباً به، حتى أنه لم يعترض عندما راح في الأيام المقبلة يرى الصبي مع ابنته ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، في فترة الاستراحة بين الحصص الدراسية، في ساحة المدرسة، وبصورة خاصة تحت شجرة النبق. أثارت تلك اللقاءات المتكررة للاثنين غيرة التلاميذ الآخرين، وخاصة الأخ الأكبر الذي كان يدور حول البنت، والذي كان موضع سخرية المعلم وابنته، لأنه ورغم كبر سنه، كان ما زال في الصف الخامس الابتدائي، لرسوبه المتكرر بسبب مادة اللغة الإنكليزية بالذات. ذات يوم، وفي إحدى السفرات المدرسية قررت عصابة صغيرة من التلاميذ، يقودها الأخ الأكبر للطفل، قتل البنت. هكذا وضع الأخ الأكبر مسامير في الكعكة، التي حملها الأخ الأصغر معه في السفرة، والتي أراد تقديمها هدية للبنت. وهكذا ماتت حبيبته بيده، وكُتب على الطفل منذ تلك اللحظة الجنون. كانت تلك بشكل مختصر، الأحداث التي دارت في المسرحية، التي أرادوا تقديمها في قاعة النشاط المدرسي لمديرية التربية في المدينة.

ولكن بالتوازي مع ذلك، وقبل عرض المسرحية بأسبوع، جاء للمرة الأولى إلى مدرستهم، معلم جديد لمادة اللغة الإنكليزية، وجاءت معه ابنته ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء. كان اسمها أيضاً سراب. الغريب أن ما جرى في المسرحية، جرى في المدرسة تماماً، ولم يدر ما إذا رسم هو بدوره المسرحي مصير البنت مقدماً، الأمر الذي سبب موتها لاحقاً، أم أن المسرحية تحدثت عن قصته، وقصة البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء، قبل أن تحدث، وأن الحياة في الحقيقة تقلد الأدب

منذ زمن طويل، وأن كل شيء يزول، وتبقى الأسماء فقط، وربما لو لم يكن اسم البنت الصغيرة، ابنة معلم اللغة الإنكليزية، مطابقاً لاسم البنت في المسرحية أو القصة، لما حدث ما حدث، أو ربما جرت القصة بالفعل لتلميذين مثلهما في زمن آخر بعيد. منذ ذلك الوقت لم يكف عن سؤال نفسه، هل نحن مجرد أطياف لأسماء منقوشة في الهواء منذ الأزل، أم أننا نقوم بأدوار لأسماء أشخاص، غير الأشخاص الذين نكون عليهم؟ ولكي يجرب ذلك، أو لكي يطرد عن نفسه الشعور بالذنب الذي يؤلم أكثر من ارتكاب الإثم ذاته، بدأ يحلم بأنه شخصية أخرى، بأنه أكثر من شخص، أو هو هذا الشخص الذي يتكون من أربعة حروف، مثلما يتكون اسمه، وكل حرف منها يشكل شخصاً مختلفاً. لم أسأله في ذلك اليوم، ماذا يقصد بالحروف الأربعة التي يتكون منها اسمه؟ اسم أخيه، أم اسمه؟ اسم البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء أم اسم زوجته؟ ليس ذلك فقط، إنما لم أسأله أسئلة أخرى، وكأنني تركت الأمر له، أو لقصصه التي كان يرويها لي. وأعتقد أن السبب الثاني هو الأكثر رجحاناً، فبشكل ما، لم أفكر في أنه يحمل أسماء عديدة. وكان يجب أن تمرّ على القصة حروب وسجون وخراب وموت ودمار ونفي، لكي تكشف عن نفسها شيئاً فشيئاً، في حين أنها كان يجب أن تكون عكس ذلك، سهلة، بسيطة الفهم، إن لم يكن لجميع الناس، فعلى الأقل بالنسبة لي، كان عليّ أن أجد الأمر طبيعياً. ففي بلاد مثل هذه البلاد، بلاد المسحوقين والمنتصرين - جملته المحببة في وصفه للبلاد - ليس من الغريب أن للناس أسماء عديدة».

ظل طوال الوقت محافظاً على صمته، يصغي له بعمق، وكأنه كان يجري مقارنة بين ما يقوله الراوي وبين القصة الأخرى التي كانت تدور طوال الوقت في ذهنه. سمع صوت الراوي خافتاً:

«لكن أخاه يقول إن تلك كذبة أخرى من كذباته. كان يحلو له ترديدها دائماً. لم أقتل البنت. لأن ليس هناك بنت أصلاً».

فردّ يوسف، بحماس:

«أخي ينكر حتى قصة التعذيب، عندما كنت مرمياً هناك أسابيع طويلة. ينكر ما سبّبه للجميع من ألم وخراب. ينسى أنه أطلق أسماء بناته الأربع، على صيحات ضحاياه في زنازين التعذيب».

ثم انخرط في بكاء جعل صاحب الحانة يأتي لمواساته بكأس جديد من العرق، بعد أن فرغ ربع العرق الذي طلبه عند مجيئه. وعندما شرب نصف الكأس، قال للراوي:

«الآن تعرف، لماذا أسحب هذين الشخصين، المجنونين معي. نحن جميعاً بحاجة إلى آلة للنسيان. البلاد جميعها بحاجة لأن تتذكر لكي تنسى. وأخي أولهم. لا يتركني أعيش بسلام. في الماضي كان يتهمني بأنني أنا المسؤول عن إلحاق الأذى بكل شخص أعرفه، لا لشيء إلا لكي أكون بطلاً. بأنني كنت أخترع القصص لسراب لكي لا أقول لها بأنني كنت هارباً من الخدمة العسكرية ومطارداً من السلطات. بأنني لم أكتف بذلك، إنما رحت أخونها مع مريم، لكي أكون مرة أخرى بطلاً، أن أحل محل أخي. أخي لا يريد أن يُحصي عدد ضحاياه. يريد أن يعيش بلا إثم، أن أموت، ويظل هو على قيد الحياة، يصنع مجده باسمي».

كانت تلك اللحظة التي استلت فيها يده صفحات الجريدة التي احتفظ بها في جيب بنطلونه، ليرميها باتجاه الراوي:

«ينشر القصص والحوارات عن جرائم يوسف ماني».

قال ذلك، وهو يشير بأصابعه إلى حوار طويل احتل مساحة نصف صفحة في صحيفة الفجر، تحت عنوان «يوسف ماني يفضح جرائم

أخيه: الجلاد يونس». وتحت المقابلة مباشرة، ظهرت صورته إلى جانب صورة رجلين آخرين، كُتب فوقها بعنوان عريض، «هروب المجرم يونس ماني من مستشفى الشماعية مع اثنين من مرافقيه». دفع آخر جرعة من كأسه، وقال للراوي:

« هل تعرف، لماذا ألتصق في المكان، أخاف أن أتحرك؟ لأنني أخشى أن أُقتل».

فأجاب الراوي:

«الموت يتربص بنا جميعاً. ففي بلاد المسحوقين والمنتصرين كما يحلو لك أن تسميها، لكل واحد منا حصته، منذ أن تحول الجميع بشكل عادل: إلى مطارِدِين وأكباش محرقة».

صب لنفسه كأساً مجدداً، شرب نصفه تقريباً، ثم تطلع بالراوي بأسى:

«ولكن كبش المحرقة الجالس أمامك، يستطيع، أن يصف لك مشهد موته، حتى أنه كتبه مقدماً».

صمت قليلاً، شرب جرعة أخرى، أخرج قصاصة من جيبه، وبدأ وكأنه يقرأ مقاطع من مسرحية، يتخيل مشاهدها ويخرجها في رأسه. كان غائباً عن المكان، فقط شفاهه تتمتم:

«قطع مسافة طويلة وراءه. ثم توقف لبرهة، تنفس ببطء، وتطلع أمامه، فرأى البيت الذي أراد العودة إليه يلوح من بعيد، بالضبط عند نهاية الفتحة التي ينتهي عندها الشارع العريض الذي وقف عند بدايته. ومن هناك رأى ضوءاً شاحباً بعض الشيء، ينبعث، فقرر السير باتجاهه. سار على عجل نحو جدار الحديقة. كانت مجرد ثوان قليلة، عندما عرف أنه لم يكن هو الذي سار باتجاه الضوء، إنما هي كتلة الضوء التي اقتربت منه، لتتحول بسرعة تفوق سرعة أنفاسه التي بدأت تتلاحق، إلى

حزمة ساخنة، تختلط مع سخونه دمه الذي بدأ يخرج من رأسه، وحراره أنفاسه التي بدأت تتسارع أكثر، وكأنها تريد اللحاق بصوت الطلقات: دُمّ، دُمّ، دُمّ. . .دُمّ. .الطلقات التي لحقت به، وهو يبذل جهداً استثنائياً، لكي ينجح في القفز من فوق جدار الحديقة، حديقة البيت.

لبرهة سقط متكوماً على أرض الحديقة. لم يفتح عينيه، إنما ظن أنه يفعل ذلك. لأنه حتى تلك اللحظة، التي سقط فيها على الأرض، ليصبح جسده ملاصقاً للعشب الرخو، لم يعتقد أن حياة أخرى ستعود إليه. كان متأكداً من موته، لم يزعجه ذلك في الحقيقة، فهو كثيراً ما تخيل موته المسبق، بل حتى الطريقة التي سيحدث فيها. لكن ما لم يكن في حسبانه، أنه سيموت في هذا المكان، وليس كما توقع، أن يلاقي الموت في زاوية شارع، أو في البيت، أو وهو جالس في مقهى، بل حتى في السينما. في كل جولاته التي قام بها ليلة أمس، أو قبل ذلك، بل في كل تلك الجولات التي لم تحدث بعد، لم يكن الموت بعيداً عنه. كان ينتظره عند زاوية كل شارع، يصطحبه في كل خطوة يخطوها، وإذا ما شعر بأنه يفلت منه في لحظة، فإنه يحث السير، للبحث عنه. كأنه يهرب من الموت إليه، يذهب باحثاً عنه، لكي ينتهي منه، وإلى الأبد. لكنه أيضاً، في كل تلك اللحظات، كان يتخيل فوهة مسدس معين تمثل أمامه: مسدس أخيه. يعرف أنه سيموت بطلقة تأتي منه، تطلقها يداه الباردتان، وكأنه - أخاه - لم يكتف بكل الأذى الذي ألحقه به. كم تخيل موته، لكن ما لم يخطر على باله، هو أنه سيموت بهذا الشكل العبثي، كما حدث في فجر الأسبوع الثاني من أبريل. أن يموت بالذات عند وصوله البيت الذي ظنه، أنه البيت القديم الذي عاش به مع سراب، وأن يقتله رجلان مجنونان، هرب منهما منذ أن رأى نظراتهما اليائسة للمرة الأولى التي تبحث عن ضحية، تمنحهما العزاء، يلاحقانه أينما ذهب، ولا يعرف ما إذا كان أخوه استأجرهما لقتله،

وأدخلهما معه في مستشفى المجانين لكي يقتلاه، أم أنهما بالفعل ظناه الجلاد الذي كانا يبحثان عنه. لكن أيضاً، في اللحظة التي بدا فيها غائباً عن العالم، يشعر بحرارة الدم ولزُوجته على جسمه، استحوذ عليه شعور جديد لم يعرفه من قبل، وهو يرى فتاة صغيرة، لا يعرفها، تقترب من جسده المسجى، جسده المضرج بالدم. وليس كما ظن للوهلة الأولى، بأنها تلك البنت الصغيرة التي لم يتوقف عن تذكرها يوماً، البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء. وعندما سمع شهيق البنت الصغيرة، صوت بكائها، قال لنفسه، كيف أنه لا يعرف هذا الصوت؟ هل يُعقل أنه لم يسمعه من قبل؟ وعندما حطت عليه يد البنت الصغيرة، لترفعه مع المرأة التي اقتربت منها، شعر بأناملها الرقيقة، وبأنها ترفعه بعناية، وكأنها تخاف عليه أن ينكسر. ترى من تكون هذه البنت؟ ربما فتح عينيه لبرهة في تلك اللحظة، أو ربما تمتمت شفتاه بصوت واهن سؤالاً ضاع في غمغمات أصوات الرجال المطارِدين، أصحاب الأذرع والمسدسات، وإلا لما ظنت المراة التي رفعته، وهي تبكي، أنه يسألها عن اسمها.

«يوسف، يوسف أنا سراب. هل تسمعني؟»

لم يفهم. وكان من الصعب عليه أن يتأكد، أولاً: ما إذا كانت المرأة التي تتحدث معه بهذا الشكل هي سراب، زوجته، أم مريم، زوجة أخيه، التي اتفق معها على هذا الاسم؟ ثانياً: ما إذا كان ما يزال على قيد الحياة أم أنه غادر العالم منذ وقت؟ لكن الأمر اليقيني الوحيد الذي عرفه في تلك اللحظة، هو أنه بعد مغادرته الحانة وتسليمه آلة التسجيل إلى صديقه الراوي، في ساعات الصباح الأولى تلك، قبل شروق الشمس بثوان قليلة، ومن مكانه على عشب الحديقة، حيث التصق وجهه العاري التعب بالأرض، رأى امرأة تتقدم نحوه، تسحب في يدها بنتاً صغيرة في الحادية عشرة من العمر، الاثنتان تجلسان مباشرة

عند رأسه، وكأنهما أرادتا منع الشمس من الوصول إليه. ولكن الشمس كانت قد ابتعدت عنه، فقد ارتفعت عند قمة شجرة اليوكالبتوس الضخمة الوحيدة الثابتة انتصبت وحيدة في الحديقة. كان الهواء ساكناً بالنسبة ليوم ربيعي، والهدوء يخيم على المكان بصورة غير عادية؛ ولبرهة ارتفع في الهواء صوت شخير خفيف. أتى متقطعاً، مختلطاً، بصيحة يتيمة واحدة لديكٍ، ونهيق متقطع لحمار، طغى على بقية الأصوات، قبل أن تطرده أصوات العصافير التي بدت متحفزة تتقافز على قمة اليوكالبتوس وعلى قمم النخلات الثلاث التي توزعت في الحديقة. كان يعرف البيت قطعة قطعة. وكان يكفي أن ينفتح جفناه قليلاً، ليكمل في ذهنه بقية المشهد. لبرهة بللت وجهه دمعة هبطت من إحداهما عليه، من البنت الصغيرة كما يظن.

تخيل: البنت الصغرى تفرك عينيها، تغلقهما وتفتحهما. إذ ما زال خدر النوم وبقية من نعاس تسري في جسدها، مثلها مثل الخدر الذي انتشر في الهواء المحيط. حتى الجملة التي وصلت مسامعه، جاءته مخدرة:

«يوسف، هذه بنتك، هي الأخرى اسمها سراب، ستذهب معك هذه المرة»

«البنت الخامسة لمريم!»

لا يدري ما إذا خرجت تلك الجملة من فمه بالفعل. لم يكن ذلك سؤالاً بل نوع من التأكيد. ثم شعر بالبنت الصغيرة تقترب منه، تلمسه بيدها. في الوهلة الأولى، ظن أنه يهذي، وأنها البنت التي لم ينسها أبداً: البنت الصغيرة ذات العينين الخضراوين والجدائل الشقراء والفانيلة الزرقاء. لكنه ما إن شم رائحتها، التي لفحت خياشيمه، وشعر بأناملها تلمس بشرته، وكأنها تريد التأكد أنه على قيد الحياة، حتى أدرك أنهما يعرفان بعضهما منذ زمن طويل. كل شيء يقول له ذلك: حركة يدها،

نظراتها المتسائلة باتجاهه. رآها تتطلع به، وكأنها تريد أن تقول له شيئاً. كان كل شيء مبهماً أمام عينيه، ربما هو الخدر الذي سرى في الخلايا والعضلات يشل التفكير عنده، أو ربما يحدث له، كما يحدث دائماً، عندما يشعر بنفسه قد دخل نفقاً طويلاً، يجد نفسه عند نهايته، على شكل شبح، لا يحمل اسماً، أو هوية.

«هل عرفتني؟ يوسف، أنا سراب. وهذه بنتك اسمها أيضاً سراب. . كل شيء سراب في سراب»

سمع صوتها مرة أخرى والذي ما زالت فيه بقايا نعاس مرة أخرى. أراد أن يجيب، لكنه شعر بثقل لسانه. ثم رآها، أو تخيلها تقترب، وتلمس جبهته، ثم تعاين البنت الجالسة لصقها. تأخذ يديها، وتسقط من عينيها دمعة، تمسحها البنت بأناملها.

«سأروي لك القصة».

في تلك اللحظة سقط رأس يوسف في حضنها، وأغمض عينيه على صورة البنت تصغي لسراب، وهي تروي القصة على طريقتها، ساعات طويلة، بوهن سمع يوسف نتفاً منها، ليعيدها هنا من جديد:

«كان يا ما كان، في سالف الزمان، كان هناك أَخَوَان».

انتهى من رواية القصة، فتح عينيه، بلع ريقه، مسح بعض العرق الذي تصبب على جبهته، وجاء على بقية الكأس، ثم قال للراوي:

«تلك هي القصة التي كانت تنقصك».

ليضيف بعدها:

«ولكن من أين لك أن تعرف أنها ستحدث، إن لم تسمعها مني؟»

فسمع صوت الراوي الذي كان يصغي له طوال الوقت بجدية:

«إنها ميتة رومانسية، تختلف عن باقي الميتات في هذه البلاد. كأنك نسيت كيف يموت الناس هنا».

ثم أضاف الراوي متسائلاً:

«لكن قل لي، من أين تعرف موتك، بهذا الشكل؟»

«رسالة الجريدة واضحة: إما أن أعود إلى المستشفى، أو أن أُقتّل».

«أو أن تعود إلى سراب، وتروي لها الحكاية كاملة».

ثم رأى الراوي يكمل:

«إسمعني جيداً: انسَ أخاك، انسَ كل شيء، وأحزم أمرك. ما يزال بالإمكان إصلاح الأمر. الانتظار هذا غير مجدٍ، لأنها يمكن أن تبتعد عنك كل يوم أكثر، عليك أن تذهب إليها، وإذا لم تفتح لك الباب عليك أن تضربه بقوة. يجب أن تدخل البيت، وتتحدث معها بصوت عال، لكي تسمع كل ما تقوله. عليك أن تجعلها تتذكر كيف كنتما تقضيان أيامكما ولياليكما، أن تذكرها بصدى تلك الضحكات التي كانت تملأ فضاء البيت. ربما ستلتفت إليك، وتطلب منك سيجارة، وتقول لك، تعال، يا يوسف، لنجلس هنا ونتحدث عن كل ما مضى من خراب، ولنفكر من أين نبدأ من جديد. لم يفت الأوان، كلا، دائماً يستطيع المرء أن يخلق أوانه، وخاصة إذا تعلق الأمر بامرأة، ليست أية امرأة كانت، امرأة تسرق خيالنا لتثبت بأنها تفوق الحقيقة، امرأة تهدينا الكوكب كله».

علق يوسف، ربما لكي يغير من الموضوع:

«من غير المجدي الذهاب الآن، فهي يجب أن تكون نائمة الآن، كما أعتقد، لن تستيقظ على وقع خطواتي، أو عندما تسمع صوتي، لن تطلب مني سيجارة، كلا، إنها لن تلاحظ لحظة دخولي البيت. إنها تنام، ولن تستيقظ على ضربات الباب. وأنا أحبها ويجب ألا أنسى ولا للحظة واحدة، بأنها عانت بما فيه الكفاية، ولا ينقصها أن تعرف من هي البنت الصغيرة التي تعيش عندها».

فأردف الراوي:

«سراب تعرف كل قصصك، حتى المنتحلة منها، وإلا ما الذي جعلها تعيش مع البنت الصغيرة التي جلبها أخوك إلى البيت، تعيش معها كما لو كانت بنتكما معاً؟»

فأجاب بصوت حزين، منكسر:

« ها أنت تريد اختراع قصة جديدة. أرجوك لا قصص جديدة بعد الآن».

فعلق الراوي:

«كما تشاء. أترك لك هذه المرة تكملة القصة، ربما ترويها في مناسبة أخرى».

ثم أضاف الراوي بصوت حازم:

«لكن حان الوقت أيضاً، لكي تذهب إلى سراب، وتنسى قصة أخيك».

كانت الساعة الثالثة والنصف تقريباً أو أكثر. دفع الجرعة الأخيرة. فكر، أنها ساعة نومها العميق، وبأنها لن تستيقظ عندما يدخل البيت.

التفت فجأة إلى الراوي، وكأنه تذكر شيئاً، وقال له:

«ربما أنت على حق. عليّ الذهاب إليها. ربما عليّ أن أفعل كل ما اقترحته عليّ، وأن أنسى أخي ولو ليوم واحد».

فقال له الراوي:

«أنت تعرف عنوان البيت، لا حاجة أن أصفه لك».

ابتسم وفكر، أنها المرة الأولى التي يشعر فيها بالراحة. عاين الحكواتي، وكأنه مقبل على فعل كبير:

«لقد انتظرت أحداً يقول لي ذلك. لماذا تأخرت كل هذا الوقت؟»

فأجابه الراوي:

«كنت دائماً معك، لكنك كنت تردد ذلك المثل الآرامي: لا تسأل عن طريقك شخصاً يعرفه جيداً، ذلك أنه سيحرمك متعة الضياع».

فتطلع به، وكأنه لا يفهم ماذا كان يعنيه:

«على أية حال. من منا لا يملك ذاكرة ضائعة. ففي النهاية نحن أرواح ضائعة مع وقف التنفيذ».

ثم أكمل بعجالة، دون أن ينتظر جواباً:

«خذ آلة التسجيل، افعل بالقصة ما تشاء».

قال تلك الجملة وكأنه يريد التخلص من عبء أثقل كاهله دهوراً طويلة، وكأنه يريد السير وحده: دون إرث ودون ماض، بل دون شاهد أيضاً. أخذ الراوي آلة التسجيل، وقال له:

«هل تعرف منذ سنوات طويلة، ومنذ أن كتبت أول قصة، وأنا أفكر في كتابة عمل أستطيع أن أسميه كتاب العمر. في الحقيقة ليس عملاً روائياً أو قصصياً بالمعنى المتعارف عليه، فقط كتاب، يحوي على كل شيء ولاشيء، حتى وإن احتوى نتفاً ومقاطعاً من قصص أخرى كتبتها أو تلك التي لم أكتبها بعد؛ كتاب يدور هنا ويدور في كل مكان؛ كتاب منتحل وأصلي في الوقت نفسه؛ كتاب يتحدث عن الموتى وعن الأحياء؛ كتاب يجد المرء فيه من مثلك ومَن في طريقه لأن يعيش على صورتك، صورة يوسف، كما تظنها أنت، يجد كل ما فقده وكل ما يبحث عنه. لا أدري لماذا لم أنجز ذلك، مثلما لا أدري لماذا كنت أفكر في هذا الكتاب. ربما بسبب البنات، نعم كنت أحب بنتاً، وكنت أريد أن أقول لها كل شيء، كانت تكتب لي رسائل طويلة، وكانت رسائلها عبقرية، تحوي كل شيء، تصف لي حياتها اليومية، كل هذه التفاصيل الدقيقة، من علاقتها بوالديها وأخواتها في البيت، إلى علاقتها بصديقاتها في المدرسة وجولاتها في الشارع، وكنت أعجب، فالبنت

تسكن في شارعنا ذاته، لكنها كانت تتحدث عن أشياء، بدت لي وكأنها قادمة من كوكب آخر. أعتقد أنني ذات صباح وبعد أن قرأت رسالة منها، قررت أن أكتب هذا العمل. كانت رسالة خاصة جداً، أخبرتني فيها عن سخف القصائد التي كنت أكتبها إليها، أنت تعرف أن كل بداياتنا شعرية، وتعرف أن معظم الشعراء أدعياء، بكل ما كتبوه عن المرأة. إنهم جبناء، لم يلمسوا أية امرأة في حياتهم، وهي ربما عنتهم الجنسية تجعلهم يقولون هذه الكلمات الكبيرة ويطلقون التصريحات الرنانة في المقابلات. وقالت لي، إنك كما تبدو شاباً لطيفاً، طموح، صحيح أنني لا أحبك، لكن هذا لا يغير كونك شاباً لطيفاً، وأمامك مستقبل باهر، شريطة أن تقلع عن كتابة الشعر. ولا تعتقد بأن النساء تحب الشعراء، لا تتفاجأ إذا قلت لك، بأننا نحب المغامرين، حتى وإن كانوا محتالين أو قطاع طرق. وإذا أردت أن تعشقك النساء فعليك أن تكتب عن هؤلاء. احتفظ بعنواني، لكي ترسل لي الكتاب عندما تنتهي من إنجازه، ولكني أعتقد بأنك في كل الأحوال لن تفعل، لأن من الجائز جداً، أن تكون فتاة أخرى قرأت الكتاب وأخذتك مني.

ما زلت أحتفظ بتلك الرسالة التي غيرت حياتي، أحملها معي دائماً، ولن ألقي بها بعيداً حتى إنجاز الكتاب. ومنذ أن حملوك إلى المستشفى، عرفت أنك شخص يختلف عن الباقين، قلت لنفسي، هذا الرجل يحمل قصة خاصة به، قصة تختلف عن باقي القصص، وعليَّ أن أساعده على لمّ شظاياها، وصدق حدسي. ها أنت كما ترى، لن أجد قصة أفضل من قصتك، التي تختصر كل هذه القصص. وأعتقد أن القضية الآن، ليست لها علاقة بالنساء بالمقام الأول، رغم أن ليس هناك من يرفض أن يكون محبوباً، إنما لها علاقة بتلبية نداء تستطيع أن تطلق عليه نداءً داخلياً، أو نداء يأتي من البعيد، مثل الصوت الذي يزورك أحياناً في الحلم، ويجعلك تفكر فيما إذا كان ذلك هو صوتك بالفعل،

وأن الشخص النائم غيرك، أم أنك أنت الشخص النائم والصوت هو صوت لشخص آخر، لعبة شبيهة بلعبة المرايا، يضحك لها الطفل، ويأخذها الشخص الناضج على محمل الجد. على أية حال، مهما بدت لغتي غريبة ومعقدة بعض الشيء، أرجو أن تسامحني عليها، فالعالم الذي نعيش فيه بشكل عام معقد، عالم سريالي نعيشه يومياً، عالم ليس فيه شيء حقيقي، كل القصص تقلد بعضها وتتداخل مع بعضها، وكل الناس ينتحلون شخصيات غيرهم. رغم ذلك، أعتقد أن إنساناً بعمري يستطيع أن يساعد الناس قليلاً، أو على الأقل يساعد نفسه. ولا تنسَ أن شخصاً في عمري تبدأ الناس تأخذه على محمل الجد، ولا يعتقد الناس بأنه يكتب من أجل إثارة دهشة النساء ونيل إعجابهن. على أية حال سأكتب قصتك، لكي تحبّك النساء، أو لكي تعود لك زوجتك على الأقل».

انتهى الراوي من كلامه. تطلع بيوسف، فرآه يشرب ما تبقى في كأسه. ثم ينهض بتثاقل.

فقال له:

«سأصطحبك حتى الباب».

فرفع يده، بإشارة منه، أن يظل على جلسته:

«من الجائز جداً أن أُقتل. لا داعي أن تموت معي. عليك أن تروي القصة، وإذا نقصك شيء تعرف عنواني، ستجد هناك كل ما ينقصك. الحقيبة التي كانت بمثابة بيتي، وعدد لا يحصى من أشرطة التسجيل».

وعندما اقترب من الباب، توقف قليلاً، استدار، وكأنه تذكر شيئاً مهماً، ليقول للراوي:

«إذا أردت معرفة الحقيقة، اسمع ما ترويه آلة التسجيل»

كانت الساعة الرابعة صباحاً تقريباً. عندها غادر مثلما جاء، كأنه

طيف عابر، أو كأنه إحدى تلك الشخصيات التي تظهر في الأفلام القديمة، أفلام الأسود والأبيض، فجأة، وما إن يألف المرء وجودها، حتى تختفي بلمح البرق. هكذا غادر. وكان كل شيء على وجهه يشير إلى أنه تحرر من كل عبء، من كل إثم، بعد أن ترك كل ما له علاقة به، بحياته، في الحانة، وها هو للمرة الأولى يسير، دون أي شعور بالخوف من غريمه، وكأنه يقول لنفسه: ليكن ما يكون.

قطع مسافة طويلة. ثم توقف لبرهة، تنفس ببطء، وتطلع أمامه، فرأى البيت الذي أراد العودة إليه يلوح من بعيد، بالضبط عند نهاية الفتحة التي ينتهي عندها الشارع العريض الذي وقف عند بدايته. ومن هناك رأى ضوءاً شاحباً بعض الشيء، ينبعث، فقرر السير باتجاهه. سار على عجل نحو جدار الحديقة. كانت مجرد ثوان قليلة، عندما عرف أنه لم يكن هو الذي سار باتجاه الضوء، إنما هي كتلة الضوء التي اقتربت منه، لتتحول بسرعة تفوق سرعة أنفاسه التي بدأت تتلاحق، إلى حزمة ساخنة، تختلط مع سخونه دمه الذي بدأ يخرج من رأسه، وحرارة أنفاسه التي بدأت تتسارع أكثر، وكأنها تريد اللحاق بصوت الطلقات: دم، دم، دم. . . دم. . الطلقات التي لحقت به، وهو يقفز من فوق جدار الحديقة، يبذل جهداً استثنائياً.

لبرهة سقط متكوماً على أرض الحديقة. لم يفتح عينيه، إنما ظن أنه يفعل ذلك. لأنه حتى اللحظة، التي سقط فيها على الأرض، ليصبح جسمه ملاصقاً للعشب الرخو، لم يعتقد أن حياة أخرى ستعود إليه، فتخيل المشهد، مشهد موته، كما قرأه في الحانة السرية قبل قليل، لكنه عندما رأى بنتاً صغيرة في الحادية عشرة من عمرها، تقترب منه، ثم تجلس عند رأسه، وتلمسه بيديها، عرف أنه سيعيش هذه المرة. . . . .

بداية الحكاية

«إذا أردت معرفة الحقيقة، اسمع ما ترويه آلة التسجيل»، تلك كانت جملته التي ظلت عالقة في ذهني، منذ أن سلمني الآلة؛ لم تغادر سمعي، منذ أن حبست نفسي في تلك الغرفة الصغيرة، التي كانت غرفته أصلاً. فركت عينيَّ، وتطلعت عبر شباك الغرفة. كان يجب أن تكون مرت ساعات طويلة، على استلقائي في السرير، أصغي إلى صوته، القادم من شريط التسجيل، أكافح بالبقاء طوال الوقت يقظاً، كي أسمع ما ترويه آلة التسجيل. من غير المهم ما كان يقوله، المهم أنه أجبرني على الإصغاء له، حريصاً بالفعل على معرفة كل شيء، مهيئاً نفسي، لكل ما يمكن أن يحصل بعدها من مفاجآت، وكأنني أعرف أنني لن أكون الشخص ذاته الذي كان قبل سماع الكاسيت، وأن عليَّ في النهاية أن أبذل جهداً استثنائياً، لكي ألم بقايا قصته.

«إذا أردت معرفة الحقيقة، اسمع ما ترويه آلة التسجيل»، كانت تلك الجملة الأخيرة التي قالها لي في لقائنا الأخير. ولكنه نسي أن يقول إن ما يقصده بالحقيقة، هو حقيقته، وإن القصص تلك، التي سمعتها من الآلة، هي الأخرى، تكاد تكون مخترعة. وتبدو على الأغلب، ليس لها أية علاقة بما جري في الواقع فعلاً. لا أقصد قصة الأخوين، وإستبدالهما الأسماء والهويات، فتلك القصة يمكن أن تكون من اختراع أحد آخر، إنما أقصد كل القصص الأخرى، التي تضمنتها قصته، والتي

ربما أحتاج إلى وقت أطول لكي أستطيع لملمتها مع بعض، لكي أُقنع نفسي، أنها حدثت بالفعل، المتخيلة منها، أو تلك التي حدثت بالفعل.

«كم هي غريبة الأمور أحياناً» قلت لنفسي، لماذا تدفعنا القصص التي نعرف أنها مخترعة، إلى تصديقها، وكأنها حدثت فعلاً، فما سمعته من آلة التسجيل، يبدو أحياناً حقيقياً، وفي أحايين أخرى يبدو أنه قادم من زمن بعيد، يجعلني أكثر ميلاً للاعتقاد، أنه عن طريق سرده ما جرى على تلك الآلة، كان يخترع القصص لي وحسب، وكأنني أنا يوسف ماني وهو هارون والي، صديقه الروائي، أو أنا المريض، وهو الطبيب، الذي يريد أن يشفيني، يقلب اللعبة، يخلط الأسماء والشخوص والحكايات، ولم يستثنني حتى أنا، من لعبته. ومن الصعب على أحد غيري غير معني في وضع نفسه في مكانه، تصديق ما سجله على أشرطة التسجيل، أو يفهم كل ما ضمنه في قصته من لبس ولعب وغموض، سواء تعلق الأمر في وصفه للأماكن، أو في رسمه للجغرافيا، وكأن شيئاً لم يحدث في البلاد، وكأن الأماكن، الشوارع، الأسواق، صالات السينما، لم تتعرض ذاكرتها، (رغم كل الحروب والفوضى والقتل والدمار)، للخراب، وكأنه في صحوته تلك، يشبه أهل الكهف أولئك، الذين لا يريدون تصديق، أنهم بعد صحوتهم، وجدوا عالماً مختلفاً، عن العالم الذي تركوه، رغم أنه ليس الوحيد الذي يفعل ذلك، ففي كل القصص التي رواها، كان يصطدم بأناس يتصرفون وكأن شيئاً لم يحدث، كما لو اشترك جميع الناس في تمثيلية استعراضية كبيرة، بالتأكيد لم يخترعها من أجلي وحسب، إنما اخترعها على أكثر تقدير لنفسه أيضاً، وكأنه اكتشف طريقة مثلى له للبقاء على قيد الحياة: اختراع القصص!

لماذا أحمّله وحده تَبِعَة الأمر. ألا أتصرف أنا بالطريقة ذاتها؟ وإذا كان الأمر غير ذلك، فلماذا ضغطت على مفتاح الآلة؟ هل فعلت ذلك من أجله لأنني صدقت جملته التي قالها: «أذا أردت الحقيقة، اسمع ما

ترويه آلة التسجيل»، أم من أجلي أنا، الذي اخترع قصة له، ولم يشأ التصديق أنه مريض آخر، أحد جيش المرضى الذين يجلبونهم يومياً، والذين لا غرابة أن يزداد عددهم في هذه البلاد، «بلاد المسحوقين والمنتصرين» ها أنا أقلب جملته أخيراً، وأرددها ليس كما كان يحلو له أن يردد؟ أم لأنني أنا الآخر أردت البقاء على قيد الحياة عن طريق رواية قصته، ونسيت قصتي، منذ أن هرب جميع مرضى المستشفى الذي كنت أعمل فيه (ها أنا أخترع قصة جديدة)؟ من نحن؟ هل صحيح أننا لا نعيش إلا عندما نحول بعضنا إلى قصص تروي بعضها؟ ذوات تستبدل الأسماء والهويات فيما بينها؟ وفي حالتنا، ألا نكون استبدلنا بعضنا دون أن ندري، كما نعرف في القصص الي قرأناها ذات يوم، وفي الأفلام القديمة، أفلام الأسود والأبيض التي شاهدناها في سنوات مرت، وكيف أن المرضى والأطباء يستبدلون أدوارهم؟ هل خشيت، أن أنتهي أنا الآخر مثله، الأمر الذي جعلني أروي له القصة تلو القصة، قصصاً مختلفة؟ وهو؟ ألم يتصرف، كما لو كان ينفذ تلك الجملة التي قالتها خالته له: «عليك أن تروي قصتهم جميعاً»؟ أليس ذلك ما جعله يُعجب بقصة جوزيف كرملي أو جوزيف ك، ويُلبسها لي، كما لو أنني من عمل في تزوير الوثائق ولوحات الرسم، وليس الراوي الذي أراده دائماً أن يكون قريباً منه، يطلب منه، أن يسمع قصصه التي يرويها، أن يصدق ما جرى له بالفعل، وأن يحاول ولو مرة واحدة على الأقل، أن يعيش ما عاشه، ويزور كل تلك الأماكن التي مرَّ بها؛ أن يغمض عينيه، إن استدعى الأمر، لكي يجرب ماذا يعني، أن يعيش المرء الكابوس، وألا يسأل متى حدث ذلك بالضبط، فمتى يكون للكابوس زمن ما، إن لم يكن أبدياً؟

الآن وبعد أن أغلقت الشريط، «شريط الألم هذا» (كما قالت له سراب ذات مرة)، كم بودّي أن أغلق شريط الذكريات أيضاً، أن أختم

القصة هذه، وأنهض. أن أترك الغرفة التي هي غرفته بالأصل، وأغادر البيت، الذي حبست نفسي فيه منذ أن علمت بما حدث له أخيراً. كم بودّي أن أن أنهي ترددي، وأذهب إلى المستشفى، أبحث من جديد عن جثته في عنبر الموتى، لأسأله، وأقول له، إن آلة التسجيل لم تزد عندي غير الالتباس، وإن عليه بالفعل أن يساعدني الآن، قبل أن أهرب أنا الآخر من جحيم هذا المكان. وإنه إذا أرادني عن طريق سماع ما سجله هناك، أن أكون شاهداً من جديد أو ربما قاضياً أيضاً، على ما يحدث بين الاثنين، بينهما، بين الأخوين، فأنا لا أصلح للعب دور الله. بل ليس هناك أحد يصلح للعب هذا الدور في بلاد المسحوقين والمنتصرين، (كما أردد الجملة، وليس كما كان يحلو له أن يقول). لكنني، أعرف من أين يجيء ترددي، أعرف أنه لم يتركني وحدي في فوضى قصته. حتى الطبيب المسؤول في عنبر الموتى (الذي ذكرني بنفسي)، الذي توقع موته، قال لي، عندما رأى الاستمارات التقليدية، التي كُتب فيها اسمه: لا أحد يعرف ماذا يجري هنا بالضبط، فصاحبك هذا، كان اليوم هنا يسأل عن جثة بالاسم نفسه، ثم تأفف وقال بسخرية، عرفت أنه مجنون، ولكن أن يُقتل هو الآخر، فهذا يعني أن الجميع تحولوا في هذه البلاد العظيمة إلى مجانين عظام!!؟ وعندما سألته ماذا يعني، قال: أعرف أن الجميع اليوم ضد الجميع، لكن أن يطلق عليه النار رجلان، يقولان، إنهما كانا يبحثان عليه منذ سنوات طويلة، لكي ينتهيا من القصة، سنوات طويلة، يحملان الجراح في كل مسامات جسمهما، حتى أنني رأيتهما هنا مرات عديدة في ممرات المستشفى، لا يتوقفان من الحديث عن اختراع آلة تساعد على النسيان، ظننتهما يهذران للوهلة الأولى، وعندما رأيتهما هنا من جديد، يصرخان أنهما لا يستطيعان نسيان ما عاشاه تحت التعذيب، وكيف أنهما، كانا عبثاً يصرخان مستغيثين، طالبين منه: رفقة، أو رحمة أو شفقة أو رأفة،

قلت إن الرجلين مجنونان بالفعل، أو دفعهما شخص ما؛ قالا إنه كان يعذبهما أكثر، عندما يسمع نداءات الاستغاثة، ويسألهما: أعجب كيف ترددون أسماء بناتي!؟ وعندما سألت الموظف، من أين عرفا، أنه هو الرجل الذي يبحثان عنه، قال، حسب قول الرجلين، فقد دلّهما عليه أخوه، تصور، يقولان، يجب تقديم الشكر والامتنان لأخيه، هكذا يجب أن تكون صورة البلاد في المستقبل، في الفجر الجديد، وهذا ما كُتب في الجريدة لاحقاً، ثم سلمني، وقبل أن أغادر عنبر الموتى، صحيفة محلية. ولم ينس أن يعرض عليّ بيع تلفون محمول جديد «جداً، جداً، جداً» (كما أصر على الترديد!)، فرفضت، لكنني أخذت الصحيفة، التي طلب مني ثمنها، فأعطيته له وأخذتها معي. في الطريق إلى البيت رأيت العنوان الكبير على الصفحة الأولى من الصحيفة الرسمية «الفجر الجديد»: الرجال الذين يصنعون مستقبل البلاد، وتحته صورة الرجلين. وعندما رأيت صورتهما، تذكرت، أنهما المريضان الآخران اللذان هربا من المستشفى في اليوم نفسه الذي جاءا فيه، وفي اليوم نفسه الذي هرب فيه يوسف أيضاً. ترى هل عرفهما، أم قالا له شيئاً وهرب؟ من أين عرف ذلك؟ قلت لنفسي: إنه لا يحتاج إلى جهد كبير، فهو يملك حس المطارَدِين. فكرت، أي موت عبثي كان ينتظره، فما إن وصل إلى البيت القديم الذي عاش فيه ذات مرة مع سراب، حتى اخترقت جسده أربع طلقات، على عدد بنات أخيه، وكأن أخاه ذاته يجلده هذه المرة بيديه، يعذبه، لكل بنت طلقة: لكل رفقة أو رحمة أو شفقة أو رأفة يطلبها، وفقط هي رؤية البنت الصغيرة التي اقتربت منه، ولمست جبهته، وسط شهقاتها التي اختلطت مع شهقات سراب، وهي تقول له: «أرجوك لا تمت، لا تترك ابنتك سراب وحدها»، جعلته يشعر أنه لن يموت، وأنه سيعيش من جديد، ولن يجعل أخاه يهزمه، كما حدث في المرات السابقة.

فركت عيني، وكأنني أنا - وليس هو -، الذي بدأ يتحرك مثله، يهرب كعادته، ويأتي إلى هنا، يعود إلى البيت القديم، ينام، ويصحو؛ يصحو وينام، ولا يدري كم مر عليه من الوقت هناك، لكنه في لحظة ما، في عمق الليل يصحو، فيجد نفسه - مثلما يحدث لي الآن - ملقى على السرير، يصغي إلى آخر دقات قلبه، قبل أن يتوقف النبض، ويصبح أحد هؤلاء الأموات. ولأنه يتمنى أن يكون شخصاً آخر، ليعيش عذابه الدائم، يلمس نبضه، فيشعر بضرباته، ويقول لنفسه: إذن أنا حي، لا بد أن يكون الميت غيري. فأنا غادرت المستشفى منذ أسابيع، بعد شفائي، وسأطرد ذكرى إطلاق النار مع الوقت من ذهني تماماً. ها أنا أسمع أنفاسه، وها أنا أجعله يعيش مجدداً عن طريق حركاتي، أجعله يصيخ السمع، فيسمع أصواتاً خفيفة تصفر قادمة من جهة الحديقة، عبر الشباك. حينها يقول لنفسه، لا بد أن يكون الفجر، وبلا شك أنها حيوانات الفجر تستيقظ مثله، تتفحص نفسها أولاً، لكي تتأكد أنها ما زالت على قيد الحياة، وأن ليلة أخرى مضت، وها هي تهيّئ نفسها لعمل نهار قادم، ما زال يتثاءب في نومه، يحاول أن يحرر نفسه منه. ومن البعيد تصل إلى سمعه صوت إطلاق عيارات نارية اختلط مع صوت قطار سريع، كلما ابتعد كلما تخيله يخط بصوته حدود مسافة جديدة، وكأنه أحد المسافرين، الذين سينزلون منه في المحطة القادمة. فيقول لنفسه: بالفعل، أنا شخص آخر، ها أنا أرى نفسي بوضوح:

أحرّك جسمي، لبرهة أعدّل من جلستي قليلاً، أمد يدي للكومودين الصغيرة القريبة من جهة السرير الملاصقة للحائط، وأسحب ساعتي التي تركتها هناك. أتطلع بأرقامها الفسفورية. كانت الساعة الرابعة تقريباً. فأتذكر جملة لا أدري أين سمعتها أو قرأتها: «إنها اللحظة التي يشعر فيها المريض الذي عليه أن يسافر، والذي يقضي الليلة في فندق غير معروف وهناك يستيقظ نتيجة خاطر ما، بالسعادة عندما يرى بصيص

ضوء تحت عتبة الباب». الفارق، هو أن المريض الذي في حالتي، لا يجلس في فندق غير معروف، إنما في بيت وسط المدينة، بيت في اللامكان، يجد نفسه في مكان المريض، متمدداً على فراشه، يتخيل بصيص ضوء ينبعث من فسفور بطن الساعة التي وضعها إلى جانب صحيفة محلية ونظارات طبية سميكة وآلة تسجيل تركها هناك، قريباً من جهاز التلفون، رأسه مشوش لا يستطيع التركيز على قصة واحدة، فيضغط على زر مفتاح آلة التسجيل، ثم يفرك عينيه، ويتطلع حوله، كأنه يصحو من كابوس طويل، فيرى - أو يتخيل أنه رأى - على زجاج النافذة، وسط الظلمة، وجه فتاة صغيرة، في نحو الحادية عشرة من عمرها، كل شيء يدل، أنها ذات البنت، سراب، تجلس هناك، تمسك يد رجل استلقى على سرير عريض، أوسع مما يحتاجه جسمه النحيل، شفاهه تتمتم بصوت تسمعه البنت فقط، يطلب منها ألا تنسى ما حدث له ولكل الناس الذين أحاطوا به، وألا تنسى كل حكاية يرويها، مهما تقادم العمر بها، أن تظل تتذكره وتتذكر كل القصص التي تسمعها منه، قبل أن ينهض ويتحول إلى شخص آخر، يبدأ رحلته اليومية، عبر أماكن مألوفة، ويصنع معه، دون أن يدري، أو. . . . يدري: صورة يوسف.

أبريل 2003 - ديسمبر 2004

المحتويات

نجم والي

صورة يوسف

لم أعرف، ما إذا كان الشعور بالفزع الذي استحوذ عليَّ فجأة، بأن من ينام هناك يمكن أن يكون أي شخص، باستثناء أن أكون أنا، أم صدى الجملة الأخيرة التي جاءتني من آلة التسجيل: «حان وقت قيام الساعة، وعلى القاتل تسديد ديونه»، ما جعلني أفزّ مذعوراً. ولا أدري كم مضى عليّ من الوقت وأنا مستلقٍ على سرير عريض يتسع في الحقيقة لشخصين على الأقل، بدا أوسع مما يحتاج حجم جسمي النحيف، الذي تكور على نفسه أكثر، بالوضع نفسه الذي كنت أرى يوسف فيه، قبل أن ينام، عندما يسترخي على السرير، ويبدأ بالتركيز لكي يروي قصة من قصصه.

ISBN 9953-68-107-4





ص ب ٥١٥٨/١١٣ بيروت- لبنان
ص.ب 4006 – الدار البيضاء – المغرب